

تَفْسِيرُ الْمَرْأِغِيِّ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المرغني
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثالثون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثامن

سورة النبأ

هي مكية ، وعدد آياتها أربعون ، نزلت بعد سورة المعارج .
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) اشتغالها على إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به .

(٢) أن في هذه وما قبلها تأنيبا وتقريعا للكافرين ، فهناك قال : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ » وهنا قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا »

(٣) أن في كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذب به المكذبون .

(٤) أن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال : « لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ » . وهنا قال : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » إلى آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)
 كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)
 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
 سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
 مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) .

شرح المفردات

عَمَّ : أى عن أى شئ ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا ، والنبأ : الخبر الذى
 يعنى به ويهتم بشأنه ؛ والمراد به خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين ،
 كَلَّا : كلمة تفيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه ، والمهاد : (بكسر الميم) والمهد فى نحو
 قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا » : المكان المهدى المذل ، والأوتاد :
 واحدها وتد ؛ وهو ما يثق فى الأرض ليربط إليه الحبل الذى تشد به الخيمة ، والأزواج :
 واحدها زوج ؛ ويطلق على الذكر والأنثى ، والسبات : (بضم السين) قطع الحركة
 لتحصيل الراحة ، واللباس : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه ، معاشا :
 أى وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة ، سبعا شدادا : أى سبع سموات قوية محكمة
 لا فطور فيها ولا تصدع ، والسراج : ما يضيء وينير ، والوهاج : للتألى ، والمراد
 به الشمس ، والمعصرات : السحاب والغيوم إذا أعصرت : أى حان وقت أن تعصر

الماء فيسقط منها ، والنجاج : كثير الانصباب عظيم السيالان ؛ والمراد به المطر ، والنج : سيلان دم الهدى ، وفي الحديث « أحب العمل إلى الله العَجَّ والنَجَّ » والعج : رفع الصوت بالتلبية ، والنج : إراقة دم الهدى ، والحب : ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ، والنبات : ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش ، والجنات : واحدها جنة ، وهي الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل ، والجنات الأنفاق : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخفاف ، وقيل واحدها لف (بكسر اللام وفتحها) وقال أبو عبيدة : واحدها لقيف كشریف وأشراف .

المعنى الجملى

كان اشركون كلما اجتمعوا فى ناد من أنديتهم أخذوا يتحدثون فى شأن الرسول وفيما جاء به ويسأل بعضهم بعضا ، ويسألون غيرهم فيقولون : أساحر هو أم شاعر أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء ؟ ، ويتحدثون فى شأن القرآن : أسحر هو أم شعر أم كهانة ؟ ويقول كل واحد ماشاء له هواء ، والرسول سائر قُدُما فى تبليغ رسالته ، وأمامه مصباحه للنير الذى يضىء للناس سبيل الرشاد ، وهو كتابه الكريم ، كما كانوا يتحدثون فى شأن البعث ، ويأخذ الجدل بينهم كل مأخذ ؛ ففهم من ينكرونه البتة ، ويزعمون أنهم إذا ماتوا انتهى أمرهم ، وما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ؛ ومنهم من كانوا يزعمون أنهم إنما تبعث أرواحهم لا أجسامهم بعد أن تأكلها الأرض ، وتبعث بها يد البلى .

وربما لقي أحدهم بعض من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فيسأله عن ذلك استهزاء وسخرية .

وفى هؤلاء وأشباههم نزلت هذه السورة ردًا عليهم وتكذيبا لهم ، وإقامة للحجة ؛ على أن الله قادر على أن يعيدهم بعد موتهم . وإن صاروا ترابا ، أو أكلتهم السباع ،

أو اختوتهم البحار فكانوا طعاما للشياك ، أو أحرقتهم النيران فطاروا مع الريح .
وقد ذكر لهم من مظاهر قدرته أموراً تسعة يشاهدونها بأعينهم لا يخفى عليهم
شيء منها :

- (١) انبساط الأرض وتمهيدها لتصلح لسير الناس والأنعام .
 - (٢) سموق الجبال صاعدة في الجوّ .
 - (٣) تنوع آدميين إلى ذكور وإناث .
 - (٤) جعل النوم راحة للإنسان من عناء الأعمال التي يزاولها عامة نهاره .
 - (٥) جعل الليل ساتراً للخلق .
 - (٦) جعل النهار وقتاً لشئون الحياة والمعاش .
 - (٧) ارتفاع السموات فوقنا مع إحكام الوضع ودقة الصنع .
 - (٨) وجود الشمس المنيرة المتوهجة .
 - (٩) نزول المطر وما ينشأ عنه من النبات .
- فكل ذلك داع لهم أن يعترفوا أن من قدر على كل هذا فلا تعجزه إعادتهم
إلى النشأة الآخرة .

الإيضاح

(عمّ يتساءلون ؟) أى عن أى شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم ؟
روى عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث
فيما بينها ، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به ، فنزلت : عمّ يتساءلون .
ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون) أى عن الخبر العظيم الشأن الذى
اختلفوا فى أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم بقوله : « إِنَّ هِيَ إِلَّا

حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» ومن شاكٍ فيه بقوله : « مَا نَدْرِي بِمَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِظِينَ » .

وإيراد الكلام بصورة السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ، وتثبيت الجواب في نفس السائل كما جاء في قوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . ثم أخذ سبحانه يرد عليهم متوعدا لهم فقال :

(كلا سيعلمون) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون ، وتنقطع عنهم الريبة ، حين يُسأل كل عامل عما عمل ، ويفصل بين الخلائق .

وقصارى ذلك - فليردجروا عما هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حلّ بهم العذاب والفكال ، وأن ما يتساءلون عنه ، ويضحكون منه حق لا شك فيه ولا ريب .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله : (ثم كلا سيعلمون) وفي تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد . ثم شرع يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون ، مع أنها بين أعينهم فى كل حين فقال :

(١) (ألم نجعل الأرض مهاداً) أى كيف تنكرون أو تشكون فى البعث ، وقد عاينتم ما يدل عليه من قدرة تامة ، وعلم محيط ، وحكمة باهرة تقتضى ألا يكون ما خلق من الخلق عبثاً ، فمن ينعم بهذه النعم لا يهملها سدى .

انظروا إلى الأرض التى جعلت ممهدة موطأة للناس والدواب ، يقيمون عليها ويفترشونها وينتفعمون بخيراتها الظاهرة والباطنة .

(٢) (والجبال أوتادا) أى وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كي لا تميل بأهلها ، وتضطرب بسكانها ، ولولاها لكانت دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان ، فلا تتم الحكمة فى كونها مهادا لهم .

(٣) (وخلقناكم أزواجا) أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا ، ليم الاتناس والتعاون على سعادة المعيشة ، وحفظ النسل وتكيله بالتربية والتعليم .
ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) (وجعلنا نومكم سباتا) أى وجعلنا نومكم فى الليل قطعاً للمتعاب التى تكابدونها فى النهار ، سعيًا فى تحصيل أمور المعاش ؛ فالشاهد أن فى نوم بضع ساعات فى الليل راحة للقوى من تعبها ، ونشاطا لها من كسلها ، وإعادة لما فقد منها ، ولولا ذلك لفقدت القوى ، وانقطع المرء عن العمل فى شئون الحياة المختلفة .

(٥) (وجعلنا الليل لباسا) أى وجعلنا الليل بظلامه ساترا للأجسام ومغطيا لها كاللباس الذى يغطى الجسم ويستتره . ووجه المنة فى ذلك — أن ظلمته تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو إخفاء لما لا يحب أن يطلع عليه غيره ، والله درء المتنبى :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تحبّر أن الما نوية تكذب^(١)

(٦) (وجعلنا النهار معاشا) أى وجعلناه وقتا لتحصيل أسباب المعاش ، لأن الناس يتقلبون فيه فى حوائجهم ومكاسبهم .

(٧) (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) أى سبع سموات قوية الأمر ، محكمة النسيج والوضع ، لا يؤثر فيها كثر الغداة ولا لمر العشى ، ليس بها تصدع ولا فطور .

(٨) (وجعلنا سراجا وهاجبا) أى وأنشأنا الشمس سراجا متلأثا بالغا الغاية فى الضوء والحرارة .

(١) الما نوية : طائفة تعتقد أن الخير من النهار والشر من الليل .

وقد جعل الله في هذا السكوك سر الحياة ؛ فالحرارة والضوء يطردان الأمراض ويُنقشان كل حي ، ولا أدل على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوءها وحرارتها ، والجرائم لا تتوالد إلا حيث يحتجب عنهما السكان ، ويتعدان عن المكان .

(٩) (وأزلنا من المعصرات ماء نجاسا) أى وأزلنا من السحاب والغيوم التى تتحلب بالمطر ماء كثير السيلا ، عظيم الانصباب . ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال :

(لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألقالا) أى لنبدل بوساطته جذب الأرض خصبا ، فنخرج من الأرض حبا يقتات به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تقتات به الدواب ، وحدائق ذات أغصان ملتفة .

وقد جمع الله في هذه الآية جميع أنواع ماتنبته الأرض ، فإن ما يخرج منها إما أن يكون ذاساق أولا ؛ والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ؛ والثانى إما أن يكون له أكام فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وآخر الحدائق لأن القاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

وقال الفرءاء : الجنة مافيه النخيل ، والفردوس مافيه النكرم .

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَأْبًا (٢٢) لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا حِصْنٌ لَهَا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا

وَعَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا
فَلَئِنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠).

شرح المفردات

يوم الفصل : هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين
الخلائق ، ميقاتا : أى حدًا تنتهى عنده الدنيا ، والصور فى الأصل : البوق الذى ينفخ
فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجمعوا عند
النافخ ، والأفواج : واحدها فوج وهو الجماعة ، وفتحت السماء : أى انشقت
وتصدعت ، وسيرت الجبال : أى زالت من أماكنها وتفتتت صخورها ، سرايا :
أى كالسراب ، فهى بعد تفتتها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غبارا متراكما ،
المرصاد : موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها ، للطاغين : أى للذين طغوا
فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره ، والمآب : المرجع ، لابئين : أى مقيمين ، أحقابا ،
واحدها حُقب ، وواحد الحقب حِقْبَةٌ : وهى مدة مبهمه من الزمان . قال متمم
ابن نويرة :

وَكُنَّا كَنَدِمَانِي جَذِيمَةً حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كَأَيِّ وَمَالِكَا أطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والبرد : برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم «منع البردُ البردَ» أى أصابه
من شدة البرد ما منعه النوم ، ولا سرايا : أى سرايا يسكن عظمهم ويزيل الحرقة
عن بواطنهم ، والحميم : الماء الحار المغلى ، عساقا : أى قيحا وصديدا وعرقا دأثم
السيلان من أجسادهم ، وفاقا : أى وفق أعمالهم السيئة ، لا يرجون : أى لا يتوقعون ،

حساباً : أى محاسبة على أعمالهم ، أو ثواب حساب ، كذّاباً : أى تكذيباً ، وقرئ
بالتخفيف بمعنى كذا ، وعليه قول الأعشى :

فصدّقَتْهَا وكذّبَتْهَا والمرء ينفعه كذّابه

كتاباً : أى إحصاء بالكتابة .

المعنى الجملى

بعد أن نبه عباده إلى هذه الظواهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ،
أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله وهو يوم الفصل ، ويدكر لهم
بعض ما يكون فيه تخويفاً لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ما وضحت الأدلة
واستبان الحق ، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأنه عظيم ، وأمر الكائنات فيه على غير
ماتهمدون ، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها هزواً ، وأن
جهنم مرجعهم الذى ينتهون إليه ، وأنهم سيقيمون فيها أحقاباً طوالاً لا يجدون شيئاً
من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها رَوْحاً ينقّس عنهم حر النار ، ولا يذوقون من
الشراب إلا الماء الحارّ والصديد الذى يسيل من أجسادهم ، جزاء سيّئ أعمالهم ،
إذ هم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، ومن ثم اقترفوا السيئات ، وارتكبوا مختلف
المعاصى ، وكذبوا الدلائل التى أقامها الله على صدق رسوله أشدّ التكذيب ، وقد
أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه ، فلم يغب عنه شىء صدر منهم ، وسيوفهم
جزاء ما صنعوا ، وستكون له كلمة الفصل ، فيقول لهم : « ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ
إِلَّا عَذَابًا » .

الإيضاح

(إن يوم الفصل كان ميقاتاً) أى إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين والآخرين
يثابون فيه أو يعاقبون ، ويتميزون فيه ويكونون مراتب ودرجات بحسب أعمالهم كما
قال : « وَامْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَهْلُهَا الْمُجْرِمُونَ » .

وقد جعله الله حداً تنتهى عنده الدنيا ، وتجتمع فيه الخلائق ، ليرى كل امرئ ما قدمت يده ، فيجازى المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .
ثم بين هذا اليوم وزاد في تفخيمه وتهويله فقال :

(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) أى يوم ينفخ في الصور فتحيون وتبعثون من قبوركم وتأتون إلى الموقف من غير تلبث ، وإمام كل أمة رسولها كما قال سبحانه « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ » .

(وفتحت السماء فكانت أبوابا) أى وانشقت السماء وتصدعت ، وقد جاء نحو هذا في آيات كثيرة كقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » ، وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقوله : « وَ يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالنِّعَمِ » .

ذاك أنه يحصل اضطراب في نظام الكواكب ، فيذهب التماسك بينها ، ولا يكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب ، لا يلتقى فيها شيء بشيء ، وذلك هو خراب العالم العلوى ، كما يخرب الكون السفلى .

(وسيرت الجبال فكانت سرابا) أى إن الجبال لا تكون في ذلك اليوم على ثباتها المعروف ، بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعد ، فإذا قربت منه لم تجد شيئا ، لتفرق أجزائها وانثاث جواهرها .

والخلاصة — إنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، فذكر أول أحوالها وهو الاندكاك بقوله : « وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » ثم ذكر أنها تصير كالهمم المنفوش كما قال : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » ثم ذكر أنها تصير هباء كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » ثم ذكر أنها تنسف وتحملها الرياح كما جاء في قوله : « وَتَرَى الْجِبَالُ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » ، ثم ذكر أنها تصير سرايا ، أى لاشيء كما في هذه الآية .

و بعد أن عُدَّ وجوه إحسانه ، ودلائل قدرته على إرساله رسوله ، وذكر أن يوم الفصل بين الرسول ومعانديه سيكون يوم القيامة ، وبين أهوال هذا اليوم ، وامتنياز شئونه وأحواله عن شئون أيام الدنيا وأحوالها — ذكر وعيد المكذبين وبيان ما يلاقونه فقال :

(إن جهنم كانت مرصاداً) أى إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزئها من يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وفعاله .

وروى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

(لطاغين مآباً) أى إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا ولم يستمعوا إلى الداعى الذى جاءهم بالهدى ونور الحق .

وبعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بين مدة ذلك فقال :

(لا تبثن فيها أحقاباً) أى إنهم سيمكثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضاً فكما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر كما قال : « يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حمياً وغساقاً) أى لا يذوقون فى جهنم برداً يبرد حر السعير عنهم إلا الغساق ، ولا شراباً يرويههم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شراباً فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقه من بواطنهم ، ولكن يجدون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستفدرة .

والخلاصة — إنهم لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ الغاية فى السخونة ، أو الصديد المنتن ، ولا برداً إلا الماء الحار المغلى .

(جزاء وفاقا) أى إنه تعالى ينزل بهم شديد عقابه من جرّاء أنهم أنوا بقطيع المعاصي ، فيكون العقاب وفقّ الذنب ومقداره كما قال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فاتّاهم الله ما يسوؤهم . وبعد أن بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعد لهم كان وفقّ جرّمهم — فصل أنواع جرّاتهم فذكر أنها نوعان فقال :

(١) (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) أى لإنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا ، واجترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم ، لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب ولا يتوقعونه .

ورغبة المرء في فعل الخيرات ، وترك المحظورات ، إنما تكون غالبا لاعتقاده أنه ينتفع بذلك في الآخرة ، فمن كان منكرا لها لا يقدم على شيء مما يحسن عمله ، ولا يحجم عن أمر مما يقبح .

(٢) (وكذبوا بآياتنا كذابا) أى وكذبوا بجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد وجميع ما جاء في القرآن .

والخلاصة — إنهم أقدموا على جميع المنكرات ، ولم يراعوا عن فعل السيئات وأنكروا بقلوبهم الحق واتبعوا الباطل .

وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية — أرشد إلى أنها في مقدارها وكيفيتها معلومة له تعالى لا يغيب عنه شيء منها فقال :

(وكل شيء أحصيناه كتابا) أى إنا علمنا جميع ما عملوا علما ثابتا لا يعتريه تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يحدوا شيئا مما كانوا يصنعون في الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأننا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شيء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ »

وإنما قيل (كتابا) دون أن يقال (إحصاء) لأن الكتابة هى النهاية فى قوة العلم بالشئ ، فمن من يريد أن يحصى كلام متكلم حتى لا يغيب منه شئ ، عد إلى كتابته ، فكأنه تعالى يقول : « وكل شئ أحصيناه إحصاء يساوى فى ثباته وضبطه ما يكتب » .

و بعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات — رتب عليه هذا الجزاء فقال :

(فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) أى فذوقوا ما أتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال : « وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .
 روى قتادة عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ذاك أن فيها تقر بما وتو بيخا لهم فى يوم الفصل ، وغضبا من أرحم الراحمين ، وتميضا لهم من الغفران .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)
 وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (٣٦) .

شرح المفردات

مفازا : أى فوزا بالنعيم والثواب ، حدائق : أى بساتين فيها أنواع الثمر والشجر وأعنابا : واحدها عنب ، وكواعب : واحدها كاعب ، وهى التى نهى ثديها وتكعبها ، والأتراب : واحدها ترب ، وهى التى سنّها من سن صاحبته ، والكأس : إناء من بلور للشراب ، دهاقا : أى ممتلئة ؛ يقال أدهق الحوض : أى ملأه . قال خدّاش ابن زهير :

أَنَا مَا عَاسِرٍ يَبْغِي قِرَانَا فَأَتَرَعْنَاهُ كَأَسَادَهَا قَا

واللغو: الباطل من الكلام ، والكذاب : التكذيب ، عطاء : أى تفضلاً منه وإحساناً ، حساباً : أى كافياً لهم ، تقول أعطاني فلان حتى أحسبني : أى حتى كفاي بعطائه . قال :

فَلَمَّا حَلَلْتُ بِهِ ضَمْنِي فَأَوَّلَى جَمِيلاً وَأَعْطَى حَسَاباً
أَيْ أَعْطَى مَا كَفَى .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التى وصفها ووصف ما فيها ، وذكر أنها عطاء من الله تعالى ، وفى هذا استنهاض لعمالى المهمم ، بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وازديادهم من القربات والطاعات ، كما أن فيها إيلا ما لأنفس الضالين المكذبين .

الإيضاح

(إن للمتقين مفازاً) أى إن لمن اتقى محارم الله وخاف عقابه فوزاً بالكرامة والثواب العظيم ، فى جنات النعيم .

ثم فسر هذا الفوز وفصله فقال :

(حدائق وأعقاباً) أى بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار ، لها أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشتهيها النفوس ، وتقر به العيون .

وقد أفردت بالذكر وهى مما يكون فى الحدائق عنفاة بأمرها كما جاء فى قوله :

« مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

ثم وصف ما فى الحدائق والجنات فقال :

(وكواعب أترابا) أى وهوراً كواعب لم تتدلَّ ثُدِيَّهنَّ ، وهنَّ أبكارُ عُرُبٍ أتراب .

والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء فى الدنيا على نحو من اللذة ، وإن كنا لانعلم كنهه فى الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به ، وأنه تمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة ، وأنه يشا كل أحوال العالم الأخرى .

(وكأس دهاقا) أى وكأساً من الخمر مترعة ملاءى متتابعة على شاربيها .

(لا يسمعون فيها لعوا ولا كذآبا) أى لا يجرى بينهم حين يشربون — لغو الكلام ولا يكذب بعضهم بعضاً ، كما يجرى بين الشرِّب فى الدنيا ، لأنهم إذا شربوا لم تغتر أعصابهم ، ولم تتغير عقولهم كما قال تعالى : « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ » ، واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين المخلصين .

ولما ذكر أنواع النعيم بين أن هذا جزاء لهم على ما عملوا ، وتفضل منه سبحانه فقال :

(جزاء من ربك عطاء حساباً) أى جاراهم الله به وأعطاهم به بفضله وإحسانه عطاء كافياً وافياً .

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا أَلْبَتَىٰ كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) .

شرح المفردات

الخطاب : المخاطبة والمكلمة ، الروح : جبريل عليه الصلاة والسلام ، والمآب : المرجع ، والإنذار : الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ، والمرء : الإنسان ذكرأ كان أو أنثى ، ما قدمت يدها : أى ما صنعه فى حياته الأولى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن يوم القيامة موعد للفصل بين الخلائق ، وتنتهى به أيام الدنيا ، وأن دار العذاب معدة للكافرين ، وأن الفوز بالنعيم للمتقين ؛ أعقب ذلك بأن هذا يوم يقوم فيه جبريل والملائكة صفاً صفاً لا يتكلمون إلا إذا أذن لهم ربهم وقالوا قولاً صحيحاً .

ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ، وأن الناس فيه فريقان : فريق بعيد من الله ومرجعه إلى النار ، وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة ؛ فمن كانت له مشيئة صادقة ، فليتخذ مآباً إلى ربه ، وليعمل عملاً صالحاً يقربه منه ، ويحمله محل كرامته .

ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلمون غدا ما قدمته أيديهم ويرونه حاضراً لديهم ، وحينئذ يندمون ، ولات ساعة مندم ، ويبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كننا تراباً لم نصب حظاً من الحياة .

الإيضاح

(رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) أى إنه سبحانه المالك لشئونهما ، المدبر لأموورهما ، ولا يملك أحد من أهلها مخاطبته تعالى بالشفاعة إلا بإذنه .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

(يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) أى إن الملائكة على جلالة أقدارهم ، ورفيع درجاتهم لا يستطيعون أن يتكلموا فى هذا اليوم ، لإجلالاً لربهم ، ووقوفاً عند أقدارهم ، إلا إذا أذن لهم ربهم ، وقالوا قولاً صدقاً وصواباً .

وفى الآية دلالة على أنهم مع قريبتهم من ربهم لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن له ربه ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب ، لأنه يقول الصواب ، وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يأذن له ويختص به ، ولا أثر له فيما أرادته البتة .

والملائكة مخلوقات غيبها الله عنا ، ولم يجعل لنا قدرة على رؤيتها ، فعلمنا أن نؤمن بها وإن لم نرها ، ونصدق بما جاء فى كتابه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها .

وبعد أن ذكر أحوال المكلفين فى درجات الثواب والعقاب ، وبين عظمة يوم القيامة - أردف ذلك بيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه فقال :

(ذلك اليوم الحق) أى ذلك اليوم متحقق لا ريب فيه ولا مفر منه ، وأنه يوم تبلى فيه السمائر ، وتنكشف فيه الضمائر ، أما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتوبة ، وضمائرهم غير معلومة .

(فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) أى فمن شاء عمل صالحاً يقربه من ربه ، ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه .

ثم زاد فى تخويف الكفار وإنذارهم فقال :

(إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) أى إنا نحذركم عذاب يوم القيامة وهو قريب ، لأن كل ما هو آت قريب كما قال : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

وإنهم ليجدون مقدماته إذا فارقت الروح البدن ، فإنه يتكشف لهم ما كان ينتظروهم ، ولا يزالون منه في ألم إلى أن يلاقوا ربهم .

(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أى هذا العذاب القريب يوم ينظر المرء ما صنعه فى حياته الأولى من الأعمال ، فإن كان قد آمن بربه وعمل عمل الأبرار فطوبى له وحسن مأب ، وإن كان قد كذب به وبرسوله فله الويل وأليم العذاب .
ونحو الآية قوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » .

(ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) أى ويقول الكافر من شدة ما يلحق ومن هول ما يرى: ليتنى كنت ترابا ، يريد: ليتنى لم أكن من المكلفين ، بل كنت حجرا أو ترابا لا يجرى عليه تكليف حتى لا يعاقب هذا العقاب .
وفى الآية إيماء إلى ما يكون عليه المؤمنون من الاستبشار والسرور بما رأوه .
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ما اشتملت عليه هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على الموضوعات الآتية :

- (١) سؤال المشركين عن البعث ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام .
- (٢) تهديد المشركين على إنكارهم إياه .
- (٣) إقامة الأدلة على إمكان حصوله .
- (٤) أحداث يوم القيامة .
- (٥) ما يلاقيه المكذبون من العذاب .
- (٦) فوز المتقين بجنت النعيم .
- (٧) إن هذا اليوم حق لا ريب فيه .
- (٨) إنذار الكافرين بالعذاب الأليم وتمنيهم فى ذلك اليوم أن لو كانوا ترابا .

سورة النازعات

هي مكية ، وآيها ست وأربعون ، نزلت بعد سورة النبأ .
 ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة - وهنا أقسم على أن
 البعث حق لا ريب فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)
 فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦)
 تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)
 يَقُولُونَ: أَأُنْثَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١)
 قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا
 هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) .

شرح المفردات

والنازعات : أى الكواكب الجاريات على نظام معين فى سيرها كالشمس
 والقمر ، يقال نزع الخليل : إذا جرت ، غرقا : أى مجدة مسرعة فى جريها ، لتقطع
 مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى المغرب ، والناشطات نشطا : أى الخارجات من
 برج إلى برج ، من قولهم : نشط النور إذا خرج ، والسابحات سبحا : أى السائرات
 فى أفلاكها سيرا هادئا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وقد جعل مرورها فى جوائها
 كالسبح فى الماء كما جاء فى قوله : « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » والسابقات سبقا :

أى المسرعات عن غيرها فى سببها ، فتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة أسرع مما يتم غيرها كالقمر فإنه يتم دورته فى شهر قمرى ، والأرض تتم دورتها فى سنة شمسية ، وهكذا غيرها من السيارات السريعة ، ومنها ما لا يتم دورته إلا فى سنين ، فالمدبرات أمرا : أى فالكواكب التى تدبر بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى بظهور بعض آثارها ، فسبق القمر علمنا حساب شهره ، وله الأثر العظيم فى السحاب والمطر وفى البحر من المد والجزر ، ولضياءه حين امتلائه فوائد فى تصريف منافع الناس والحيوان ، وسبق الشمس فى أبراجها علمنا حساب الشهور ، وسبقها إلى تتم دورتها السنوية علمنا حساب السنين ، وخالف بين فصول السنة ، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، وقد نسب إليها التدبير ، لأنها أسباب ما نستفيد منه ، والمدير الحكيم : هو الله تعالى جل شأنه .

وترجف : أى تضطرب وتحرك ، والراجفة : الأرض بمن عليها ، والرافدة : السماء وما فيها تردفها وتتبعها ، فإنها تنشق وتثركواكبها ، الواجفة : أى الشديدة الاضطراب ، خاشعة : أى ذليلة ، الخافرة : الحياة الأولى ، أى الحياة بعد الموت وقد ظلنوها حياتهم الأولى ، يقال رجع فى حافرتة : أى فى طريقه التى جاء فيها ، والنخرة : البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح ، والكرّة : الرجعة ، من الكرّ ، وهو الرجوع ، والخاسرة : هى التى يخسر أصحابها ولا يرجون ، والزجرة : الصيحة ، والمراد بها النفخة الثانية يبعث بها الأموات ، والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، لأن السراب يجرى فيها ، وسميت بذلك لأن شدة الخوف التى تعترى من عليها تُطير النوم من أعينهم فلا يذوقون نوما ، فهى ساهرة : أى ساهر من عليها .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة بالخلف بأصناف من مخلوقاته - إن ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر البعث وعرض الخلائق على ربهم ، لينال كل عامل

جزاء عمله - حق لاريب فيه في يوم تعظم فيه الأهوال ، وتضطرب القلوب ،
وتخشع الأبصار ، ويعجب المبعوثون من عودتهم إلى حياتهم الأولى بعد أن كانوا
عظاما نخرة تمر فيها الرياح ، ويتحتمون أن صفقتهم كانت خاسرة ، إذ أنهم أنكروا
في الدنيا معادهم ، ويجابون على تعجبهم ألا يحسبوا أن الإحياء صعب على الله ،
فما الأمر عنده إلا صيحة واحدة ، فإذا الناس جميعا ظاهرون في أرض المعاد .

لوتدبرنا أمر القسَم ببعض المخلوقات في الكتاب الكريم لوجدناه يرجع
إلى أحد أمرين :

(١) أن تكون هذه المخلوقات قد عظمت في أعين بعض الناس ، وقوى
سلطانها في نفوسهم ، حتى عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله كالشمس والقمر
في نحو قوله : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها » وقد ذكر سبحانه بجانب
ذلك بعض صفاتها الدالة على أنها مخلوقة له كتنغيرها من حال إلى حال ، وما يطرأ
عليها من الأفول والزوال ، مما لا يكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة .

(٢) أن تكون مما احتقره الناس لغفلتهم عن فائدته ، وزهولهم عن موضع
العبرة فيه ، ولو أنهم تدبروا فيما هو عليه من جليل الصنعة ، وبديع الحكمة لاهتدوا
إلى معرفة خالقه ، ونعتوه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

فأقسم سبحانه على التوحيد في قوله : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا .
فَالتَّائِبَاتِ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وأقسم على أن الرسول حق بقوله : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وأقسم إن القرآن حق في قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ
لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » .

وحلف إن الجزاء حق ، وإن الناس سيبعثون إلى ربهم ، وإن كلا منهم سيلقى جزاء عمله كما قال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . فَأَلْمُسَمَاتِ أُمْرًا . إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » .

الإيضاح

(والنازعات غرقا . والناشاطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) افتتح سبحانه هذه السورة بالقسم بالكواكب والنجوم والشموس والأقمار ، إظهارا لعظم شأنها ، وإتقان نظامها ، وغزارة فوائدها ، وأنها مسخرة لبارئها ، خاضعة لأمره - لتبين بعد الموت ، ويدل على هذا ما حكاه عنهم بعد من قولهم : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً ؟ » أى أنبث إذا صرنا كذلك ؟ .

(يوم ترجف الراجفة) أى حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال ، فيسمع لها صوت شديد .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ » .

(تدبعا الرادفة) أى تقلوها السماء بما فيها من كواكب ، إذ تنشق وتنثر كواكبها إثر اضطراب الأرض وميدانها .

عن أبي بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها ، وهى التى يقول الله فيها - يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتَدَبَعُهَا الرَّادِفَةُ » .

(قلوب يومئذ واجفة) أى قلوب يومئذ مضطربة قلقا خائفة ، والمراد بها

قلوب الكفار ، ذاك أنهم بعد أن عاينوا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكره لهم ويشاهدونه في دنياهم ولم يؤمنوا به ، اضطرب نفوسهم ، مخافة أن يحل بهم ما أنذروا به ، كما هي حال من تهدده بمقوبة إن لم يُقْلِع عن جرأته - يهلع قلبه إن شاهد بوادر التنفيذ .

(أبصارها خاشعة) أى أبصار أصحابها خاشعة تظهر فيها الذلة والخوف .

وقد حكى الله عنهم أقوالا ثلاثة استبعدوا بها أمر البعث ، واستهزؤا فيها بالرسول والمؤمنين :

(١) (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ؟) أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت : أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات ، فراجعون أحياء كما كنا قبل مماتنا ؟
وتقول العرب لكل من كان في أمر ثم خرج منه ثم عاد إليه : قد رجع إلى حافرتة : أى إلى أمره الذى كان فيه أولا .

(٢) (أئذا كنا عظاما نحرة ؟) أى أنرد إلى الحياة بعد أن نصير عظاما بالية نولست لتفتت ؟

(٣) و (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) أى إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاما نحرة ، فمن نحن إذا خامرون ، لأننا كذبنا به ولم نأخذ العدة له ، فيا ويلنا في هذا اليوم ! .

وهذا منهم استهزاء وتهكم ، اعتقادا منهم أن ذلك لن يكون .

وقد رد الله عليهم مقالاتهم بقوله :

(فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) أى لاستبعدوا ذلك وتظنوه عسيرا شاقا علينا ، فإنما هي صيحة واحدة ، وهى النفخة الثانية التى يبعث الله بها الموتى فإذا الناس كلهم على سطح الأرض أحياء .

ونحو الآية قوله : « وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْهَلًا مِنْ فَوْاقِ » .

وخلاصة هذا — لاتحسبوا أن هذه الرجعة عسيرة شاقة علينا ، فما إعادتكم التي ظننتموها صعبة إلا أن تأمر ملكا من ملائكتنا أن يصبح صيحة واحدة ، فإذا أنتم جميعا لدينا محضرون ، لا يتخلف منكم أحد ، ولا يستطيع التخلف إن أراد .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِىِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْكُشْبَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَخَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَارُبُكُمْ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) .

شرح المفردات

المقدس : أى لمبارك المطهر ، والوادي المقدس : هو وادٍ بأسفل جبل طور سينا من بَرية الشام ، طوى : وادٍ بين أُنْثَلَة ومصر ، طغى : أى تجاوز الحد فتكبر على الله وكفر به . هل لك إلى كذا : أى هل ترغب فيه ، وتزكى : أى تنزه وتطهر من العيوب ، وأهديك : أى أدلك ، فتخشى : أى فتخاف ، والآية الكبرى : أى العلامة الدالة على صدقه في دعواه النبوة ، وهى انقلاب العصا حية ، أى ترك

موسى ، يسعى : أى فى مكايده ، فخر : أى فجمع السحرة الذين فى بلاده ،
والنكال : العذاب ، والآخرة : يوم القيامة ، والأولى : الدنيا .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن كفار مكة إصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى العنوّ
والطغيان ، واستهزأهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك يشق عليه ، ويصعب
على نفسه - ذكر له قصص موسى مع فرعون طاغية مصر ، وبين له أنه قد بلغ
فى الجبروت حدًا لم يبلغه قومك ، فقد ادعى الألوهية وأب قومه على موسى ، وكان
موسى مع هذا كله يحمل المشاقّ العظام فى دعوته إلى الإيمان - ليكون ذلك تسليّة
لرسوله عما يلاقيه من قومه من شديد العناد وعظيم الإعراض ، يرشد إلى ذلك قوله :
« فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » .

وفى ذلك عبرة أخرى لقومه - وهى أن فرعون مع أنه كان أقوى منهم شكيمة
وأشد شوكة وأعظم سلطانا ، لما تمرد على موسى وعصا أمر ربه أخذه الله نكال
الآخرة والأولى ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجمله لمن خلفه آية ، فأتى أبها القوم
مهما عظمت حالكم وقوى سلطانكم لم تبلغوا مبلغ فرعون ، فأخذكم أهون على
الله منه .

وفى هذا تهديد لهم وإنذار بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله ، فسيصيبهم مثل
ما أصاب فرعون وقومه كما قال فى آية أخرى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِأُذُنِ اللَّهِ
بِهِ كَافِرُونَ » .

الإيضاح

(هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) أى ألم يبلغك حديث موسى مع فرعون وقومه ، وقد أمره الله بالتلطف فى القول ، واللين فى الدعوة إلى الحق ، إقامة للحجة ، والوصول من أقرب حجة ، كما جاء فى سورة طه « قَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

فاتبع نهجه ، واسلك سبيله ، يكن ذلك أقرب للفوز ببغيتك ، وبلوغ مطلبك كما فاز موسى وانتصر .

وكان ذلك حين ناداه ربه بالوادي المطهر المبارك من طور سيناء من برية الشام بعد مضى وقت من الليل .

ثم فصل هذه المناجاة بقوله :

(أذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب له وعظه ، فإنه تجاوز الحد وتكبر على الله وكفر به ، وتجبر على بنى إسرائيل ، واستعبد لهم حتى بلغ من أمره أن ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم .

ثم طلب إلى موسى أن يُبين له القول ليكون ذلك أنجع فى الدعوة فقال :

(فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى) أى فقل له : هل يرغب أن تطهر نفسك من الآثام التى انغمست فيها ، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير ، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات ، وتخشى عاقبة مخالفة أمر ربك ، حتى تأمن من عقابه ، إذا أدبت ما ألزمتك به من فرائضه ، واجتنبت ما نهاك عنه من معاصيه .

ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان ، ولم يقنع بما أدلى إليه موسى من حجة ، فاضطر إلى أن يظهر له دليلا يراه ويشاهده فقال :

(فأراه الآية الكبرى) أى فلما لم يقنع بالدليل القولى أظهر له آية ودليلا يراه بعينه ، وهو انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كذب الداعى ، وعصى سلطان البرهان ، وأظهر تمردا عليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى) أى فكذب موسى ثم ولّى معرضاً عما دعاه إليه من طاعة ربه وخشيته ، وطفق يخبّ في المعاصي ويضع ، غير متدبر في عاقبة أمره ، ولا مفكر في غده .

(فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى) أى فجمع السحرة الذين هم تحت إمّرتّه وسلطانه كما جاء في قوله : « وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا تَوَكُّ بِكُلِّ شَعَرٍ عَدِيمٍ » فقام فيهم يقول : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » فلا سلطان يعلو سلطاني ، ولم يزل في عتوّه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند خروجهم من مصر فأغرق فيه هو وجنوده ، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله :

(فأخذ الله نكال الآخرة والأولى) أى فنسكل الله به ولم يكن ذلك النكال مقصوراً على ما عذب به في الدنيا من الفرق في البحر ، بل عذبه في الآخرة أيضاً في جهنم وبئس القرار .

(إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) أى إن فيما ذكر لموعظة لمن نه عقل يتدبر به في عواقب الأمور ومصايرها ، فينظر في حوادث الماضين ، ويقيس بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها .

ءَأْتَمُّ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨)
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) .

شرح المفردات

أشد خلقاً : أى أصعب إنشاء ، والبناء : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة ، والسمك : قامة كل شيء ،

فسواها : أى جعل كل جزء موضوع فى موضعه ، أعطاش ليلها : أى أظلمه ، ضحاها :
أى نورها وضيء شمسها ، دحاها : أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى ، قال زيد بن عمرو
ابن نفيل :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقالا
دحاها فلما استوت شدّها بأيدٍ وأرسي عليها الجبالا
مرعاها : أى نباتها ، متاعا لكم : أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

المعنى الجملى

بعد أن قص على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون وأوما بهذا
القصص إلى أنهم لا يُعجزون الذى أخذ فرعون ونكل به وجعله عبرة للباقيين ، وسلى
به رسوله حتى لا يحزن لتكذيب قومه له ، وعدم إيمانهم بما جاءهم به ، أخذ يخاطب
منكرى البعث ، وينبههم إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحدوه ، فإن بعثهم حين إذا
أضيف إلى خلق السموات التى تدل بحسن نظامها وجلالها ، على حكمة مبدعها وعظيم
قدرته ، وواسع حكمته ، وإلى خلق الأرض التى دحاها بعدها وجعلها معدة للسكنى ،
وهياً فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان ، فأخرج منها الماء الذى به حياة كل شىء
وأثبت فيها النبات الذى به قوام الإنسان والحيوان .

المعنى الجملى

(أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟) أى أأنتم أيها الناس وقد خلقتم من ماء مهين
ضعافا عاجزين لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة — أصعب إبداعا
وإنشاء أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ .

إنكم لاتنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم تعجز عن إبداعها ،
فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ، يرشد إلى ذلك قوله : « نَخْلُقُ »

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ » .

وفى هذا من التقرُّيع والتوبيخ ما لا يخفى .

و بعد أن أشار إلى عظم خلق السموات إجمالاً شرع يبين ذلك تفصيلاً فقال :

(بناها . رفع سمكها فسوّاها) أى ضم أجزاءها المتفرقة وربطها بما يمسكها حتى حصل عن جميعها بنية واحدة ، فقد أبدع فى خلق الكواكب وجعل كل كوكب منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل منها ما يمسكه فى مداره حتى كان من مجموعها ما يشبه البناء وهو ما نسميه بالسماء .

وقد جعلها ذاهبة فى العلوّ صُعُداً ، وعدّها موضع كل جزء منها فى موضعه الذى يستحقه ويحسن أن يكون فيه .

(وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) أى وجعل ليلها مظلمة بتغيب كواكبها ، وأبرز نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس فى سائرها .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهبط الأرض للسكنى ومن ثم قال :

(والأرض بعد ذلك دحاها) أى ومهد الأرض بعد ذلك وبسطها للسكنى ، وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك ، فلا تخالف هذه الآية ما جاء فى سورة السجدة من قوله : « أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسَمِّيَ أَسْمَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، والآية التي نحن بصدها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدا لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالآيتان ترشدان إلى أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدا ودحاها ، فأية السجدة حكاية للخلق الأول ومبدئه وهذه الآية حكاية للإصلاح الذى كان بعد الخلق .

ثم فسر التمهيد بما لا بد منه فى تأتى سكناها من أمر الماء كل والمشارب وإمكان القرار عليها فقال :

(أخرج منها ماءها ومرعاها) أى فَجَّرَ منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبث فيها النبات سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والتمر ، أم قوتا للأنعام والماشية كالعشب والحشيش .

(والجبال أرساها) أى وثبت الجبال فى أماكنها وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال :

(متاعاً لكم ولأنعامكم) أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليعتصم به الناس والأنعام من الإبل والغنم والبقر .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيئون ، ورافع السماء فوقكم ، ومهد الأرض تحتكم - قادراً على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم ، ووفر لكم هذا الخير الكثير ؟

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ
 مَا سَعَى (٣٥) وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧)
 وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ
 خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
 الْمَأْوَى (٤١) .

شرح المفردات

الطامة الكبرى : أى الداهية العظمى التى تطم على الدواهي أى تغلب وتعلو ،
 وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث فالله ابن عباس ، وَبُرُزَّتِ الجحيم : أى
 كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان ، طغى : أى تكبر وتجاوز الحد ،
 آثر : أى قدّم وفضل ، المأوى : المستقر ، مقام ربه : أى جلاله وعظمته ، ونهى
 النفس عن الهوى : أى زجرها وكفها عن هواها المردى لها بميلها إلى الشهوات .

المعنى الجملى

بعد أن بين أنه تعالى قادر على نشر الأموات كما قدر على خلق الأكوان ، بين
 صدق ما أوحى به إلى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين ،
 كائن لابد منه ، فإذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة حين تعرض
 الأعمال على العاملين ، فيتذكر كل امرئ ما عمل ، ويظهر الله الجحيم وهى دار
 العذاب للعيان فيراها كل ذى بصر ، فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على العاملين ؛ فأما
 من تجاوز الحدود التى حدها الله فى شرائعه ، وفضل لذائذ الدنيا على ثواب الآخرة
 فدار العذاب مستقره ومأواه ؛ وأما من خاف مقامه بين يدى ربه فى ذلك اليوم ،

وزجر نفسه عن هواها ، فلم تجر وراء شهواتها فالجنة منزله ومأواه ، جزاء ما قدمت يداه .

الإيضاح

(فإذا جاءت الطامة الكبرى) أى فإذا حل ذلك اليوم الذى تشيب من هوله الولدان ، وتشاهد فيه النار ، فينسى المرء كل هول دونها — فصل الله بين الخلائق ، فأدخل الطائعين الأبرار الجنة ، وأدخل المتمردين العصاة النار .
وقد وصف هذا اليوم بوصفين :

(١) (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) أى حين يرى الإنسان أعماله مدونة في كتابه وكان قد نسيها فتعاوده الذكري ، كما قال سبحانه : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ » .
(٢) (وبرزت الجحيم لمن يرى) أى وأظهرت النار حتى يراها كل ذى عينين سواء منهم المؤمن والكافر ، سوى أنها تكون مقراً للكافرين ، وينجى الله المؤمنين .

والخلاصة — إذا جاء ذلك اليوم فصل الله بين الخلائق كما فصله بعد بقوله :
(فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى) أى فأما من تكبر وتجاوز الحد وآثر لذات الحياة الدنيا ، وشهواتها على ثواب الآخرة ، فالنار مثواه ومستقره .

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى)
أى وأما من حذر وقوفه بين يدى ربه يوم القيامة ، وأدرك مقدار عظيمته وقهره ، وغلبة جبروته وسطوته ، وجنب نفسه الوقوع فى محارمه ، فالجنة مثواه وقراره
وقد ذكر سبحانه من أوصاف السعداء شيئين يضادان أوصاف الأشقياء :

(١) فقولوه : « خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » يقابل قوله : « طَغَى » وقوله : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » يضاد قوله : « وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » وقد مدح الحكماء

مخالفة الهوى فقالوا : إذا أردت الصواب فاطر هواك فخالفه . وقيل لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين . وقيل :

نخالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفسه تنزع به كل منزع
ومن يطع النفس اللجوجة تُرْده وترم به فى مصرع أى مصرع

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥)
كَانَ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) .

شرح المفردات

الساعة : هى ساعة يبعث الله الخلائق من قبورهم ، وهى يوم القيامة ، أيان : أى متى ، مرساها : أى إرساؤها ، وإقامتها : أى حصولها ، فيم أنت من ذكرها : أى فى أى شئ أنت من أن تذكر لهم وقت حصولها ، وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها ، إلى ربك منتهاها : أى إن منتهى علم حصولها عند ربك لم يؤته أحدا من خلقه ، واللبث : الإقامة ، والعشية : طرف النهار من آخره ، والضحى : طرفه من أوله .

المعنى الجملى

كان المشركون يسألون الرسول عنادا واستهزاء عن الساعة ، ويطلبون إليه أن يعجل بها كما يرشد إلى ذلك قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » وربما سأله عن تحديد وقتها ، فكان : صلى الله عليه وسلم يردد فى نفسه مايقولون ، ويتمنى لو أمكن أن يجيب عما يسألون ، كما هو شأن الحريص على الهداية ، المجدد فى الإقناع — فنهاه الله عن نمى ما لا يرجى ، وأبان له أنه لا حاجة لك إلى ذلك ،

فإن علمها عند ربك ، وإنما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبههم من غفلته ، حتى يستعد لما يلتمه حينئذ ؛ أما هؤلاء المعاندون فدعهم في غوايتهم ، ولا تشغل نفسك بالجواب عما يسألون ، فإذا جاء هذا اليوم خيّل إليهم أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا إلى يوم البعث إلا طرفا من نهار أوله أو آخره ، ولم يلبثوا نهارا كاملا لمفاجأتها لهم على غير استعداد لوقوعها .

الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟) أى يسألك أيها الرسول هؤلاء المكذبون بالبعث عن الساعة التى تبعث فيها الموتى من قبورهم ، متى قيامها وظهورها ؟
(فيم أنت من ذكرها؟) أى ماهذه الذكرى الدائمة لها ، وما هذا الاهتمام الذى جعلك لا تألو جهدا فى السؤال عنها ؟

روى عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية » .

وتلخيص المعنى — لا تشغل نفسك بهذا الأمر ، ولا تكلفها عناء البحث عنه ، واستكناه أسراره ، ومعرفة ما حجبه الله عن خلقه من شأنه .

(إلى ربك منتهاها) أى إلى ربك ينتهى علم الساعة ، فلا يعلم وقت قيامها غيره ، ولم يعطه للملك مكرم ، ولا لنبي مرسل .

(إنما أنت منذر من يخشاها) أى إنما أنت رسول مبعوث للإنذار والتخويف ، وتحذير الناس من المعاصى والقبائح ، ولم تكلف علم وقتها ؛ فدع علم مالم تكلف به ، واعمل ما أمرت به من إنذار من أمرت بإنذاره .

ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا عَلَيْهَا بِنْدُ رَبِّي لَا يُجِدُهَا لَوْ قَوَّيْتُمُ الْإِهْوُ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » ثم قرر ما دل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به ، فقال :

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إن هذا اليوم الذى لجوا فى إنكاره سيقع البتة ، ويرونه بأعينهم ، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت .
والخلاصة — إنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشية ، وتقول العرب : آتيك العشية أو غداها ، وآتيك الغداة أو عشيتها ؛ والمراد أنهم يستقصرون مدة لبثهم ، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

موضوعات السورة الكريمة :

- (١) إثبات البعث .
- (٢) مقالة المشركين فى إنكاره والرد عليهم .
- (٣) قصص موسى مع فرعون ، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم .
- (٤) إقامة الدخان على إثبات البعث .
- (٥) أهوال يوم القيامة .
- (٦) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء بحسب أعمالهم فى الدنيا .
- (٧) سؤال المشركين عن الساعة وميقاتها .
- (٨) نهى الرسول عن البحث عنها واشتغاله بأمرها .
- (٩) ذهول المشركين من شدة الهول عن مقدار ما لبثوا فى الدنيا .

سورة عبس

هى مكية ، وآياتها ثنتان وأربعون ، نزلت بعد سورة النجم .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها — وذكر هنا من
ينقعه الإنذار ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)
أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) .

شرح المفردات

عبس : أى قطب وجهه من ضيق الصدر ، وتولى : أى أعرض ، أن جاءه
الأعمى : أى لأجل أن جاءه ، وما يدريك : أى أى شئ يعرفك حال هذا الأعمى ؟
يزكى : أى يتطهر بما يلقن من الشرائع ، يذكّر : أى يتعظ ، استغنى : أى بماله
وقوته عن سماع القرآن ، تصدى : أى تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه ، يسعى :
أى يسرع ، يخشى : أى يخاف من الغواية ، تلهى : أى تتلهى وتتغافل .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة فى ابن أم مكتوم عمرو بن قيس ابن خال خديجة ، وكان أعمى
وهو من المهاجرين الأولين . استخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصى بالناس
مرارا ، وكان يؤذن بعد بلال .

وكان من حديثه أن أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأممية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعومهم للإسلام، ويذكّرهم بأيام الله، ويحذّرم بطشه وجبروته، ويعدم أحسن الثوبة إن أسلموا، وهو شديد الحرص على أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه؛ لأنه يعلم أن سيُسلم بإسلامهم خلق كثير، إذ بيدهم مقادة العرب.

فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أفرئتني وعلمني مما علمك الله، وكررت ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم، فذكره الرسول قطعه لكلامه، وظهرت في وجهه الكراهة، فعيسى وأعرض عنه.

وقد عاتب الله نبيه بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا ينبغي أن يكون باعثاً على كراهة كلامه والإعراض عنه، لأن ذلك يورث انكسار قلوب الفقراء، وهو مطالب بتأليف قلوبهم كما قال: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» وقال: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا».

ولأنه كان ذكّى الفؤاد إذا سمع الحكمة وعابها، فيتطهر بها من أضرار الآثام، وتصفو بها نفسه، أو يذكّر بها ويتعظ فتتنفعه العظة في مستأنف أيامه.

أما أولئك الأغنياء فأكثرهم جمّدة أغبياء، فلا ينبغي التصدق لهم، طمعاً في إقبالهم على الإسلام، ليتبهم غيرهم.

وقوة الإنسان إنما هي في ذكاء قلبه، وحياة قلبه، وإذعانه للحق متى لاحت له أماراته؛ أما المال والنسب، والحشم والأعوان فهي عواريج تجمي وتترهل، وتقرّ حيناً ثم تنتقل.

والخلاصة — إنه سبحانه عاتب نبيه وأمره بأن يُقْبَلَ على ذى العقل الذكى،
ونهاه أن ينصرف عنه إلى ذى الجاه القوى، فإن الأول حى بطبعه، والثانى غائب
عن حسه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات مُكْرِم ابن أم مكتوم
ويقبل عليه ويتفقده، ويقول له إذا رآه: أهلا بمن عاتبني فيه ربي، ويسأله هل
لك حاجة؟

الإيضاح

(عبس وتولى. أن جاءه الأعمى) أى قطب الرسول صلى الله عليه وسلم وجهه
وأعرض، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه.

وفى التعبير عنه بالأعمى إشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه صلى الله عليه
وسلم حين تشاغله بالقوم، وقد يكون ذلك لذكر العلة التى اقتضت الإعراض عنه،
والتعميس فى وجهه؛ فكأنه قيل: إنه بسبب عماء كان يستحق مزيد الرفق والرأفة،
فكيف يليق بك أن تخصه بالغلظة؟

وهذا كما تقول لرجل جاءه فقير فاتهره وآذاه: أتؤذى هذا المسكين الذى
يستحق منك الشفقة ومزيد الحنان والمطف؟

(وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنتفه الذكرى؟) أى وأى شئ يعلمك حال
هذا الأعمى؟ لعله يتطهر بما يسمعه منك، ويتقاه عنك، فنزول عنه أوضار الآثام،
أو يتعظ فتنتفه ذكراك وموعظتك.

والخلاصة — إنك لا تدرى ما هو مترقب منه من ترك أو تذكر، ولو دريت
لما كان الذى كان.

وفى هذا إيماء إلى أن من تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى
منهم التزكى ولا التذكر.

ثم ذكر أن أمره مع الحاضرين مجلسه انحصر في شيئين :

(١) (أما من استغنى . فأنت له تصدى) أى أما من استغنى بماله وقوته عن الإيمان ، وعما عندك من المعارف التى يشتمل عليها الكتاب المنزل عليك ، فأنت تقبل عليه ، حرصا على إسلامه ، ومزيد الرغبة فى إيمانه .

(وما عليك ألا يركى ؟) أى وأى عيب عليك فى بقائه كذلك ، وألا يقطر من وسخ الجهالة ؟ فما أنت إلا رسول مبالغ عن الله ، وقد أدبت ما يجب عليك ، فما بالك يشتد بك الحرص على إسلامه .

وقصارى ذلك — لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، والاشتغال بدعوتهم ، أن تعرض عن الذين سبقت لهم منا الحسنى .

(٢) (وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى) أى وأما من جاءك مسرعا فى طلب الهداية والقرب من ربه ، وهو يخشاه ويحذر الوقوع فى الغواية ، فأنت تلهى عنه ، وتتغافل عن إجابته إلى مطلبه .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

شرح المفردات

كلا : كلمة يقصد بها زجر المخاطب عن الأمر الذى يعاتب عليه ، لئلا يعاوده ، وهنا هو التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى ، تذكرة : أى موعظة ، ذكره : أى اتعظه ، فى صحف مكرمة : أى مودعة فى صحف شريفة ، مرفوعة : أى عالية القدر ، مطهرة : أى من النقص لا تشوبها الضلالات ، سفرة : واحد من سافر ؛ من سفر بين القوم إذا نصب نفسه وسيطا ليصلح من أمورهم ما فسد .

قال شاعرهم :

فما أَدع السفارة بين قومي ولا أمشي بفشٍّ إن مشيت
والمراد هنا الملائكة والأنبياء ، لأنهم وسائط بين الله وخلقه في البيان عما يريد ،
كرام : واحد كرم ، بررة : واحد بَرٌّ ، والمراد أنهم كرام على الله ، أطهار
لا يقارفون ذنباً .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حادث ابن أم مكتوم وعَتَبَهُ على رسوله فيما كان منه معه ،
أردف ذلك ببيان أن الهداية التي يسوقها الله إلى البشر على السنة رسله ، ليست من
الأمر التي يُحتمل لتقريرها في النفوس وتثبيتها في القلوب ، وإنما هي تذكرة يقصد
بها تنبيه الغافل إلى ما جبل الخلق عليه من معرفة توحيدهِ ؛ فمن أعرض عن ذلك
فإنه معاند يقاوم ما يدعوه إليه حسه ، وتنازعه إليه نفسه .

فما عليك إلا أن تبلغ ما عرفت عن ربك ، لتذكرك به الناس ، وتنبه الغافل ،
أما أن تحابي القوى المعاند ، ظناً منك أن مداجاته تردّه عن عناده ، فذلك ليس من
شأنك ، « فذكرك إن نَعَمْتَ الذُّكْرَى » .

وهذه الهداية أودعها سبحانه في الصحف الإلهية الشريفة القدر ، المطهرة من
النقائص والعيوب ، وأنزلها على الناس بواسطة ملائكته الكرام البررة .

الإيضاح

(كلا إنها تذكرة) أى ما الأمر كما تفعل أيها الرسول ، بأن تعبس في وجه
من جاءك يسعى وهو يخشى ، وتقبل على من استغنى ، بل الهداية المودعة في الكتب
الإلهية وأجلها القرآن ، تذكير ووعظ وتنبيه لمن غفل عن آيات ربه .

وقد وصف سبحانه تلك التذكرة بأوصاف تدل على مالها من عظيم
الشأن فقال :

(١) (فمن شاء ذكره) أى إن هذه التذكرة بيّنة ظاهرة ، فلو أن إنساناً أراد أن يتدبرها ، ويتفهم معناها ، ويتعظ بها ، ويعمل بموجبها — لقدّر على ذلك واستطاعه ، ولا يمنعه عن الاهتداء بها إلا عدم المشيئة عنادا واستكبارا .

(٢) (فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة) أى وقد أودعت هذه التذكرة فى الكتب الإلهية ذات الشرف والرفعة ، المطهرة من النقائص ولا تشوبها شوائب الضلالات ، تنزل بواسطة الملائكة على الأنبياء ، وهم يبلغونها للناس .

وكل من الملك والنبي سفير ، وكل منهما رسول ، والملائكة كرام على الله كما قال : « بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » وأبرار أطهار لا يقارفون ذنبا ، ولا يجترحون إثما ، كما قال سبحانه : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) .

شرح المفردات

قدره : أى أنشأه فى أطوار وأحوال مختلفة ، طورا بعد طور ، وحالا بعد حال ، والسبيل : الطريق ، يسره : أى سهل له سلوك سبل الخير والشر ، فأقبره : أى جعل له قبرا يوارى فيه ، أنشره : أى بعثه بعد الموت ، كلا : زجر له عن ترفعه وتكبره .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال القرآن وذكر أنه كتاب التذكى والموعظة ، وأن فى استطاعة كل أحد أن ينتفع بعظاته لو أراد — أردف هذا ببيان أنه لا يسوغ للإنسان مهما

كثير ماله ، ونبه شأنه ، أن يتكبر ويتعاضم ويعطى نفسه ما تهواه ، ولا يفكر في منتهاه ، ولا فيمن أنعم عليه بنعمة الخالق والإيجاد ، وصوره في أحسن الصور ، في أطوار مختلفة ، وأشكال متعددة ، ثم لا يلبث إلا قليلا على ظهر البسيطة حتى يعود إلى التراب كما كان ، ويوضع في لحدّه ، إلى أمد قدره الله في علمه ، ثم يبعثه من قبره ، ويحاسبه على ما عمل في الدار الأولى ، ويستوفي جزاءه إن خيرا وإن شرا ، لكنه ما أكفره بنعمة ربه ، وما أبعدّه عن اتباع أوامره ، واجتناب نواهيه !

الإيضاح

(قتل الإنسان) هذا دعاء عليه بأشنع الدعوات على ما هو المعروف في لسانهم ، يقولون إذا تعجبوا من إنسان : قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ! والمراد بيان قببح حاله وأنه بلغ حدا من العتوّ والكبر لا يستحق معه أن يبقى حيا .

(ما أكفره) أى ما أشد كفرانه للنعم التي يتقلب فيها ، وأكثر ذهوله عن مُسئديها ، وعن غمره بها من حين إيجاده ، إلى ساعة معاده !

ثم شرع يفصل ما أجمله ، ويبين ما أفاض عليه من النعم في مراتب ثلاث ، المبدأ والوسط والمنتهى ، وأشار إلى الأولى بقوله :

(من أى شئ خلقه ؟) أى من شئ حقير ، فلا ينبغي له التجبر ولا التكبر . وقد أجاب عن هذا الاستفهام بقوله :

(من نطفة خلقه فقدّره) أى خلقه من ماء مهين ، وقدره أطوارا وأحوالا ، طورا بعد طور وحالا بعد حال ، وأتم خلقه بأعضاء تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود بحسب ما يقتضيه كمال نوعه .

وقد أثر عن بعضهم : كيف يتكبر الإنسان ، وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة
قذرة ، وهو فيما بين الموقنين حمال عذرة .

وروى عن عليّ كرم الله وجهه قوله : كيف يفخر الإنسان وقد خرج من موضع
البول مرتين .

وأشار إلى المرتبة الوسطى بقوله :

(ثم السبيل يسره) أى ثم جعله متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، فأتاه
قدرة العمل ، ووهبه العقل الذى يميز به بين الأعمال ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته
كما قال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » وبعث إليه الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل
معهم الكتب المشتملة على الحكم والمواعظ والدعوة إلى أنواع البر ، والتحذير من
الشر ، والحاوية لما فيه سعادة البشر في معاشهم ومعادهم .

وأشار إلى المرتبة الأخيرة بقوله :

(ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) أى ثم قبض روحه ولم يتركه مطروحا
على الأرض جزرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل في غريزة نوعه أن يوارى ميته
تكرمة له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب والجزاء في الوقت الذى قدره
في علمه .

وفي قوله : « إذا شاء » إشعار بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا هو ، فهو الذى
استأثر بعلمه ، وهو القادر على تقديمه وتأخيرهم ، وهو القاهر فوق عباده وذو السلطان
عليهم فى إحيائهم وإماتهم ، وبعثهم وحشرهم ، وحسابهم على ما قدموا من عمل ،
خيرا كان أو شرا .

ثم أكد كفرانه بالنعمة فقال :

(كلا لما يقض ما أمره) أى حقا إن حال الإنسان لندعو إلى العجب ، فإنه
بعد أن رأى فى نفسه مما عددناه من عظيم الآيات ، وشاهد من جلائل الآثار ،

ما يحرك الأنظار ، ويسير بها إلى صواب الآراء ، وصحيح الأفكار - لم يقض ما أمره به من التأمل في دلائل قدرته ، والتدبر في معالم هذا الكون المنبثة بوحداية خاقه ، الناطقة بأن لها موقدا يستحق أن يقصده وحده دون سواء ، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلى ما يأمره به .

والخلاصة — إن الإنسان قد بلغ في ججده آيات خالقه مبلغا لا ينتهى منه العجب ، إذ قد رأى في نفسه وفي السموات والأرض وسائر ما يحيط به من العوالم ، الآيات الناطقة بوحداية الخالق ، الدالة على عظيم قدرته ، ثم هو لا يزال مستمرا في نكران نعمته عليه ، فإذا ذكر لا يتذكر ، وإذا أرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم ، ولا يزال يرتكب ما نهى عنه ، ويترك ما أمر به .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) .

شرح المفردات

القضب : الرطبة وهي ما يؤكل من النبات غضا طريا ؛ وسمى قضبا لأنه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى ، غلبا : واحدا غلبا أى ضخمة عظيمة ، والأب : المرعى لأنه يؤب : أى يؤم وينتجع ، متاعا لكم ولأنعامكم : أى أنبتناه لكم لتتمتعوا به وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدلائل على قدرته تعالى وهى كائنة فى نفسه ، يراها فى يومه بعد أمسه - أردفها ذكر الآيات المنبئة فى الآفاق الناطقة ببديع صنعه ، وباهر حكمته .

الإيضاح

(فلينظر الإنسان إلى طعامه) أى فليتدبر الإنسان شأن نفسه ، وليفكر فى أمر طعامه ، وتديره وتهيته حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بنيتة ، ويجد فى تناوله لذة تدفعه إليه ، ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة التى قدرت له .

وقد فصل ذلك بقوله :

(أنا صببنا الماء صبا) أى أنزلناه من المزن إنزالا بعد أن بقى حيناً فى جو السماء مع ثقله .

(ثم شققنا الأرض شقا) أى ثم شققنا الأرض شقا مشاهدا مرئيا لمن نظر إليها بعد أن كانت متماسكة الأجزاء .

وقد اقتضت حكمته ذلك ، ليدخل الهواء والضياء فى جوفها ، ويهيئانها لتغذية النبات .

ثم ذكر سبحانه ثمانية أنواع من النبات :

(١) (فأنبتنا فيها حبا) كالحنطة والشعير والارز وهو الأصل فى الغذاء .

(٢) (وعنبا) وهو من وجه غذاء ، وفاكهة من وجه آخر .

(٣) (وقضبا) وهو كما قال ابن عباس والضحاك ومقاتل واختاره القراء

وأبو عبيدة والأصمعى - الرطبة : هى ما يؤكل من النبات غصا طريا .

(٤ ، ٥) (وزيتونا ونخلا) وقد تقدم بيان منافعهما ، وسيأتى أيضا .

(٦) (وحدات غلبا) أى وبساتين ذات أشجار ضخمة مشمرة ذات حوائط تحيط بها ، وعظم الحدائق إما بالتفاف أشجارها وكثرتها ، وإما بعظم كل شجرة وغلظها وكبرها .

وفى ذكرها بهذا الوصف إيماء إلى أن النعمة فى الأشجار بجملتها ، وليست فى ثمرها خاصة ، فمن خُشْبِها يتخذ أرقى أنواع الأثاث وأدوات العمل وآلاته لمختلف الحرف والصناعات ، وكذا اوقود لتدبير الطعام والخبز على ضروب شتى ، وتستعمل فى صهر الحديد وأنواع المعادن المختلفة .

(٧) (وفاكهة) يتمتع بلذتها الإنسان خاصة كالتين والتفاح والوخ وغيرها .

(٨) (وأيا) أى مرعى للحيوان خاصة .

ثم ذكر الحكمة فى خلق هذه الأشياء فقال :

(متاعا لكم ولأنعامكم) أى أنبتنا ذلك ، لتمتعوا به وتنفعوا به أتم وأنعامكم ، منه ما ينتفع به الإنسان ، ومنه ما يأكله الحيوان .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ
وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)
وَوُجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِمْ غَبْرَةٌ (٤٠) تَرَهَقُمَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) .

شرح المفردات

الصنخ : الضرب بالحديد على الحديد ، وبالعصا الضلابة على شئ مصمت ،
فيسمع إذ ذاك صوت شديد ؛ والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها ،

وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجزائه على بعض ، ومن ثم سميت صاخة وقارعة ، شأن : أى شغل ، يغنيه : أى يصرفه ويصدّه عن مساعدة ذوى قرابته ، قال شاعرهم :

سيفنيك حربُ بنى مالك عن الفُحش والجهل فى الخُمل

مسفرة : أى مضيئة مشرقة ؛ يقال : أسفر الصبح إذا أضاء ، مستبشرة : أى فرحة بما نالت ، والغبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار ، ترهقها : أى تغشاها ، والفترة : سواد كالدخان ، والفجرة : واحد من فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرماته .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه آلاءه على عباده ، وذكرهم بإحسانه إليهم فى هذه الحياة ، وبين أنه لا ينبغي للعاقل بعد كل ما رأى أن يتمرد عن طاعة صاحب هذه النعم الجسم - أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها التى توجب الفزع والخوف منه ، ليدعوه ذلك إلى التأمل فيما مضى من الدلائل التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة التى جاءت على ألسنة رسله ، ويتزود بصالح الأعمال التى تكون نبراسا يضىء أمامه فى ظلمات هذا اليوم .

وذكر أن الناس حينئذ فریقان : فریق ضاحك مستبشر ، فریح فرح الحب يلقى حبيبه ، وهو من كان يعتقد الحق ويعمل للحق ، وفریق تلعو وجهه الغبرة ، وترهقه الفترة ، وهو الذى تمرد على الله ورسوله ، وأعرض عن قبول ما جاءه من الحق ، ولم يعمل بما أمر به من صالح الأعمال .

الإيضاح

(فإذا جاءت الصاخة) أى فإذا جاء يوم القيامة حين يحدث ذلك الصوت الهائل الذى يصفخ الأسماع ويصكها بشدته - فما أعظم أسف الكافرين ، وما أشد ندمهم .

ثم فصل بعض أهوال هذا اليوم فقال :

(يوم يفرّ المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أى يوم يشغل كلّ امرئ ما يصيبه من الأهوال ، فيفر من يتوهم أنه يتعلق به ، ويطلب معونته ، على ما هو فيه ، فيتوارى من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من زوجه التي هي ألصق الناس به ، وقد كان في الدنيا يبذل النفس والنفس في الدفاع عنها ، بل من بنيه وهم فلذات كبد ، وقد كان في الحياة الأولى يفتديهم بماله وروحه ، وهم ريحانة الدنيا ونور الحياة أمام عينه .
ونحو الآية قوله : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا » .

وإنما كان الأمر كذلك ، لأن لكل امرئ منهم من الرهب ، وما يُرهب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب — شأننا يغنيه ، ويصدّه عن ذوى قرابته ، فليس لديه فضل فسكر ولا قوة يُمدّ بها غيره .

وقد يكون المعنى — يغنيه ذلك الهم الذي ركبه بسبب نفسه ، وشغله حتى ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر .

وبعد أن ذكر الأهوال التي تعرض للناس في ذلك اليوم ، وأنها لاتسعف أحدا بمواساة أحد ولا الالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه واتصاله به — أردفه بيان أن الناس في ذلك اليوم سعداء وأشقياء ، وأشار إلى الأولين بقوله :

(وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة) أى وجوه يومئذ متهللة ضاحكة فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها ستوفى ما وعدت به جزاء إيمانها وما قدمت من عمل صالح ، وبشكرها لنعم ربها وآلائه ، وإيثارها ما أمرها به على ما تهواه .

وأشار إلى الآخرين بقوله :

(ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها فترة . أولئك هم الكفرة الفجرة) أى ووجوه يعلوها غبار الذل وسواد القم والحزن ، وهى وجوه الكفار الذين لم يؤمنوا

بالله ، وبما جاء به أنبيأؤه ، وخرجوا عن حدود شرائعه ، واجتروا السيئات ، واقتروا المعاصى .

وقصارى ما سلف — إن الناس إذ ذاك فريقان :

(١) فريق كان فى دنياه يطلب الحق وينظر فى الحجة ، ويعمل ما استقام عليه الدليل ، لا يثنيه عن الأخذ به قلة الآخذين ، ولا قوة المعاندين ، وهؤلاء سيطمثنون إلى ما أدركوا ، ويفرحون بما نالوا ، وتظهر على أسارير وجوههم علامات البشر والسرور .

(٢) فريق احتقر عقله ، وأهمل النظر فى نعم الله عليه ، وارتضى الجهل ، وانصرف عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد ، وظل يُحِبُّ ويضع فى أهوائه الباطلة ، وعقائده الزائفة — وهؤلاء سيجدون كل شئ على غير ما كانوا يعرفون ، فتظهر عليهم آثار الخيبة والفشل ، وتعلو وجوههم الغيرة ، وترهقها القفرة ، لأنهم كانوا فى حياتهم الدنيا كفرة فجرة .

اللهم احشرنا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة ، وصل ربنا على نبيك وآله وصحبه .

ما جاء فى هذه السورة الكريمة من مقاصد

(١) عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمى .

(٢) أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبر .

(٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق الإنسان والنظر فى طعامه وشرابه .

(٤) أهوال يوم القيامة .

(٥) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء ، وذكر حال كل منهما حينئذ .

سورة التكوير

هى مكية ، وآياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة المسد .

ومناسبتها لما قبلها — أن كليهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها . أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَ- إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَ- إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ
سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا
الْبَحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨)
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ
كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣)
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ (١٤) .

شرح المفردات

تكوير الشمس : لفها كتكوير العمامة ؛ والمراد منه اختفاؤها عن الأعين
وذهاب ضوءها ، وانكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى
ضوؤها ، وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التى ترزّل الأرض ، فتقطع أوصالها ،
وتفصل منها أجيالها ، وتقذفها فى الفضاء ، والعشار : واحدا عشر (بضم العين

وفتح الشين) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى الخاطبين وقت التنزيل ، قال الأعشى فى المدح :

هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضا وإما عشارا

وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم المول وشدة الكرب ، حشرت : أى ماتت وهلكت ، وتسجير البحار : تفجير الزئزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحرا واحدا ، زُوِّجت : أى قرنت الأرواح بأجسادها ، موودة : هى التى دفنت وهى صغيرة ، وقد كان ذلك عادة فاشية فيهم فى الجاهلية ، وكان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا حتى افتخر بذلك الفرزدق فقال :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توءد

يريد جدّه صمّعة ، وكان يشترين من آبائهن ، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موودة ، والمراد بالصحف صحف الأعمال التى تنشر على العباد حين يقفون للحساب ، كشطت : أى كشفت وأزيلت عما فوقها كما يكشط جلد الذبيحة عنها ، سمرت : أى أوقدت إيقادا شديدا ، أزفت : أى أدنيت من أهلها وقربت منهم ، ما أحضرت : أى ما أعدت لها من خير أو شر .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة الكريمة بذكر يوم القيامة ، وما يكون فيه من حوادث عظام ، ليفتح شأنه ، وبين أنه حين تقع هذه الأحداث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خير أو شر ، ووجدت ذلك أمامها ماثلا ، ورأت ما أعدت لها من جزاء وتمنت إن كانت من أهل الخير أن لو كانت زادت منه ، وإن كانت من أهل الشر أن لو لم تكن فعلته ، واستبان لها أن الوعيد الذى جاء على ألسنة الرسل كان وعيدا صادقا ، لا تهويل فيه ولا تضليل .

الإيضاح

(إذا الشمس كورت) أى إذا كورت الشمس واحمى ضوءها وسقطت حين خراب العالم الذى يعيش فيه الحى فى حياته الدنيا ، ولا يبقى فى عالمه الآخر الذى ينقلب إليه شىء من هذه الأجرام .

(وإذا النجوم انكدرت) أى وإذا النجوم تفتتت وذهب لألاؤها كما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَحَرَتْ » .

(وإذا الجبال سيرت) أى وإذا الجبال قلعت عن الأرض وسيرت فى الهواء حين زلزلة الأرض ، فتقطع أوصالها وتقذف فى الفضاء ، وتمر على الرؤوس مر السحاب ونحو الآية قوله : « وَسَيَّرَ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا » وقوله : « وَيَوْمَ نَسِفُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » .

(وإذا المشار عطلت) أى وإذا النوق العشار وهى أكرم الأموال لديهم . وأعرضا عندهم — أهملت ولم يعن بشأنها لاشتداد الخطب ، وفداحة الهول . وهذا على وجه التمثيل ، لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشاء ، ولكن مثل هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشاء لعطلها واشتغل بنفسه قاله القرطبي . (وإذا الوحوش حشرت) أى ماتت وهلكت ، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس وأصابتهم بالقحط والجذب ، حشرتهم السنة : أى أهلكتهم ، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم

(وإذا البحار سجرت) أى تغير الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحراً واحداً ، وهذا على نحو ما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ »

وقد يكون المراد من تسجيرها إضرامها نارا ، فإن ما فى باطن الأرض من النار يظهر بتشققاتها وتمزق طبقاتها العليا ، وحينئذ يصير الماء بخارا ، ولا يبقى إلا النار .

وقد أثبت البحث العلمى غليان البراكين ، وهى جبال النار التى فى باطن الأرض ، وتشهد لذلك الزلازل الشديدة التى تشق الأرض والجبال فى بعض الأطراف كما حدث فى مستينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩ م ، وحدث فى اليابان بعد ذلك .

وجاء فى بعض الأخبار « إن البحر غطاء جهنم » .

وبعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء وبطلان الحياة فى الأرض وامتناع المميشة فيها - أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور فقال :
(وإذا النفوس زوجت) أى وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة ، فإله عكرمة والضحاك والسعبي .

وفى هذا إيماء إلى أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد ، فبعد أن كانت منفردة عن البدن تعود إليه .

(وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت ؟) أى وإذا سئلت الموءودة بين يدي وائدها عن السبب الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد وقعا على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته .

وقد افتن العرب فى الوأد ، فمنهم من كان إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحيها ولا يقتلها ، أمسكها مهانة إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى إبله ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فال لأمها : طييبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحماشها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء حتى إذا بلغها قال لها انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى نسوى البئر بالأرض ، ومنهم من كان يفعل ما هو أنكى وأقسى من ذلك .

فيا لله ، ما أعظم هذه القسوة بقتل البريئات بغير جرم سوى خوف الفقر أو العار ، وكيف استبدلت الرحمة بالفظاظة ، والرأفة بالغلظة ، بعد أن خالط الإسلام قلوبهم ، ومحا وصمة هذا الخزي عنهم .

١ (وإذا الصحف نشرت) أى وإذا صحف الأعمال ظهرت للعالمين فى موقف الحساب حتى لا يرتابوا فيها ، ولا ينبغي أن نبحث عن تلك الصحف ، لنعلم أهى على مثال الأوراق التى نكتب فيها فى الدنيا ، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرى استعماله فى الكتابة ، فإن ذلك مما لا يصل إليه علمنا ، ولم يحى نص قاطع عن المعصوم صلى الله عليه وسلم يفسر ذلك .

(وإذا السماء كشطت) فلم يبق غطاء ولا سماء ، ولم يوجد ما يطبق عليه اسم الأعلى والأسفل

(وإذا الجحيم سعرت) أى وإذا جهنم التى يعاقب فيها أهل الكفر والطغيان أوقدت إيقاداً شديداً ، فيكون ألم من يدخل فيها من أشد الآلام التى تحدث عن مسّ الذيرين للأجسام الحية ، وقد جاء فى سورة البقرة : « وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

(وإذا الجنة أزلقت) أى وإذا الجنة أذيت من أهلها : أى أعدت لنزولهم . ونحو الآية قوله تعالى : « وَأُزْلِقَتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

(علمت نفس ما أحضرت) أى إذا حصل كل ماتقدم من الأحداث السالفة ، تعلم كل نفس ما كان من عملها متقبلاً وما كان منه مردوداً عليها ، فكثير من الناس كانوا فى الحياة الدنيا مغرورين بما تزينه لهم الشياطين ، وسيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضى عنها ، بل هى مبعدة من الله مستحقة لغضبه ؛ فالذين يعملون أعمالهم رياء الناس ليس لهم من عملهم إلا الجهد والمشقة ، ولا تكون مقبولة عند ربهم ، فعلمينا أن ننظر إلى الأعمال بمنظار الشرع ، ونزنها بميزانه الصحيح .

والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما صدر عن قلب ملىء بالإيمان ، عامر بحبه والرغبة فى رضاه ، والحرص على أداء واجباته التى فرضها عليه .

فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)
ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخفي ؛ يقال خنس فلان بين القوم
إذا انقبض واختفى ، والكنس : واحدها كانس أو كانه من قولهم : كنس الطي
إذا دخل كناسه وهو بيته الذى يتخذه من أغصان الشجر ؛ والمراد بالخنس
الجوار الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها : غيبوها عن البصر نهائياً ،
وكنوسها : ظهورها للبصر ليلاً ، فهي تظهر فى أملاكها ، كما تظهر الظباء فى كنسها ،
وعسس : أى أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر نوره ، قال علقمة بن قُرط :

حتى إذا الصبح لها تنفّسا وانجاب عنها ليلها وعسسا

والرسول : هو جبريل عليه السلام ، وكريم : أى عزيز على الله ، ذى قوة :
أى فى حفظه ، مكين : أى ذى مكانة وجاه عند ربه يعطيه مأسأله ؛ يقال مكّن فلان
لدى فلان إذا كانت له عنده حُطوة ومنزلة ، ثمَّ (بفتح التاء) أى هناك ، أمين :
أى على وحيه ورسالاته ، صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، بالأفق المبين :

أى بالأفق الواضح ، وضنين : أى بخيل ، رجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله ،
فأين تذهبون : أى أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة ، أن يستقيم :
أى على الطريق الواضح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر من أحوال يوم القيامة وأهوالها ما ذكر ، وبين أن الناس حينئذ
يقفون على حقائق أعمالهم فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها وما هو
مردود عليهم — أردف ذلك بيان أن ما يحدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو
القرآن الذى أنزل عليه وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتموه به من المعايير
كقولكم : إنه ساحر أو مجنون ، أو كذاب ، أو شاعر ما هو إلا محض افتراء ، وأن
لجأكم فى عداوته وتآلبكم عليه ما هو إلا عناد واستكبار ، وأنكم فى قرارة نفوسكم
عالمون بحقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا إن هذه عبارة للعرب فى القسم تريد بها تأكيد الخبر
كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم ، وكأنه يقول : أنا لا أقسم بكذا وكذا
على إثبات ما أذكره ، ولا على وجوده فهو واضح جلى ليس فى حاجة إلى الحلف ؛
والمراد به القسم المؤكد .

(بالخنس . الجوار الكنس) أى بالكواكب جميعها ، وهى تخرس بالنهار
فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل : أى تطلع فى أما كنسها كالوحش فى كنسها ؛
وقد أقسم بها سبحانه ، لما فى حركاتها وظهورها طوراً واختفائها طوراً آخر من
الدلائل على قدرة مصرفها ، وبديع صنعه ، وإحكام نظامه .

ويرى بعض العلماء أن المراد بها الداررى الحسة وهى : عطارد ، والزهرة ،
والمرئخ ، والمشتري ، وزحل ، لأنها تجرى مع الشمس ، ثم ترى راجمة حتى تختفى
فى ضوءها ؛ فرجوعها فى رأى العين هو خنوسها ، واختفاؤها هو كنوسها .
(والليل إذا عسعس) أى والليل إذا أدبر وولى ، وفى إداره زوال النعمة التى
نعمر الأحياء ، بانسدال الظلمة والحسارها .

(والصبح إذا تنفس) أى والصبح إذا أسفر وظهر نوره ، وفى ذلك بشرى
لأنفس بحياة جديدة فى نهار جديد ، إذ تنطلق الإرادات ، لتحصيل الرغبات .
وسدّ الحجات ، واستدراك مافات ، والاستعداد لما هو آت .
ثم ذكر الخلوف عليه فقال :

(إنه لقول رسول) أى إن ما أخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم من أمر
لساعة ليس بكهانة ولا اختلاق ، بل هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه ، وإنما
كان قونه لأنه هو الذى حمله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقد وصف هذا الرسول
خمسة أوصاف :

(١) (كريم) أى عزيز على ربه ، إذ أعطاه أفضل العطايا ، وهى الهداية
والإرشاد ، وأمره أن يوصلها إلى أنبيائه ليبلغوها لعباده .
(٢) (ذى قوة) فى الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ ، وقد جاء فى آية أخرى :
«عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» .

(٣) (عند ذى العرش مكين) أى ذى جاهٍ ومنزلة عند ربه يعطيه ماسأل .
(٤) (مطاع ثم) أى هو مطاع عند الله فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرون
عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه .

(٥) (أمين) على وحى ربه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به .
وجنبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

وبعد أن وصف الرسول وصف المرسل إليه فقال :

(وما صاحبكم بمجنون) أى وايس محمد صلى الله عليه وسلم بالمجنون كما كانت ترميه قريش بذلك حين كانت تسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر مما لم يكن معروفا لهم كما حكى عنهم فى قوله : « أئى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبینٌ . ثم تولوا عنه وقالوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ » وقوله : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

وفى التعبير (بصاحبكم) استدلال عليهم ، وإقامة للحجة على كذبهم فى دعواهم ، فإنه إذا كان صاحبهم ، وكانوا قد خالطوه وعاشروه ، وعرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من استقامة ، وصدق لهجة ، وكامل عقل ، ووفور حلم ، وتفوق على جميع الأنداد والأتراب فى صفات الخير — لم يكن ادعائهم عليه ما يناقض ذلك إلا باطلا من القول وزورا .

(ولقد رآه بالأفق المبين) أى وإن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى ، وقد تمثل له جبريل فى مثال يظهر ويُبصر ، فتجلى لعينه ، وأعلم أنه جبريل فعرفه .

وقد ذكرت هذه الرؤية فى سورة النجم فى قوله : « مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتَحْمِلُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » .

(وما هو على الغيب بضنين) أى وايس محمد بالمتهم على القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام ، بل هو ثقة أمين لا يأتى به من عند نفسه ، ولا يبدل منه حرفا بحرف ، ولا معنى بمعنى ، إذ لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وسماع الشرائع منه .

ثم نفى عنه فرية أخرى كانوا يتوَلَّونها عليه فقال :

(وما هو بقول شيطان رجيم) أى وما هذا الذى يتكلم به محمد بقول ألقاه

الشیطان على لسانه حين خالط عقله كما تزعمون ، فإنه قد عرف بصحة العقل ، وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدث به من خبر الآخرة والجنة والنار من قول الشياطين .

وقد حكى الله سبحانه عن الأمم جميعاً أنهم رموا أنبياءهم بالجنون فقال :
(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ) .

ثم ذكر أنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر ، وجهلوا سبيل الحكمة فقال :
(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) أى فأى سبيل تسلكونها وقد سُدَّتْ عليكم السبل ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ، وبطلت مفترياتكم ، فلم يبق لكم سبيل تستطيعون الهرب منها .

ثم بين حقيقة القرآن فقال :

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى وما هذا القرآن إلا عظة للخلق كافة يتذكرون بها ما غُرِزَ في طباعهم من حب الخير ، وإنما أنساهم ذكره ما طرأ عليهم بمقتضى الإلف والعادة من ملكات السوء التى تحدثها أمراض البيئة والمجتمع ، والقدوة السيئة .
ثم بين أنه لا ينتفع بهذه النظم كل العالمين فقال :

(لمن شاء منكم أن يستقيم) أى إنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته ، للاستقامة على جادة الحق والصواب ؛ أما من انحرف عن ذلك فلا يؤثر فيه هذا الذكر ولا يخرج من غفلته .

والخلاصة — إن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية ، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه ، ويمجد في كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .
ثم دفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة في فعل ما يريد ، وله الاختيار التام فيما يفعل ، وهو منقطع العلاقة في إرادته من سلطان ربه فقال :

(وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) أى إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخفقها الله فيكم بقدرته ، الموافقة لإرادته ، فهو الذى يودع فيكم

إرادة فعل الخير فتعصر فهممكم إليه ، ولو شاء أسلبكم هذه الإرادة وجعلكم كالحیوانات لا إرادة لها .

وفي قوله : « رب العالمين » بيان لعلة هذا ، فإنه لما كان رب العالمين ، وهو الذى منحكم كل ما تتمتعون به من القوى كالإرادة وغيرها ، وهو صاحب السلطان عليكم — كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما وجهت له توجهت ، ولو شاء أن يحوها محيت ، فله الأمر وله الحكم وهو على كل شئ قدير .

موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) أهوال يوم القيامة .
- (٢) الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح إن القرآن منزل من عند الله بواسطة ملائكته .
- (٣) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٤) بيان أن القرآن عظة وذكرى لمن أراد الهداية ، وتوجهت نفسه إلى فعل الخير .
- (٥) مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب سبحانه ، وليس لها استقلال بالعمل .

سورة الانفطار

هى مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة النازعات .
وهى كسابقتها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ (٥) .

شرح المفردات

انفطرت : أى انشقت ، انتثرت : أى تساقطت متفرقة ، فُجِّرَتْ : أى فتحت
وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز واختلط عذيبها بملحها ، بُعْثِرَتْ : أى قلب
ترابها الذى حثى على موتائها ، وأزيل وأخرج من دفن فيها ، ما قدمت : أى من
أعمال الخير ، وما أخرت : أى منها بالكسل والتسويق .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين
خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ،
منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير
البحار وبعثرة القبور ، ثم أبان أنه فى ذلك اليوم تتجلى للنفس أعمالها على حقيقتها ،
فلا ترى خيرا فى صورة شر ، ولا تفخيل شرا فى مثال خير ، كما يقع فى الدنيا لأغلب

النفوس ، فيعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا مقصرون ، فيأسفون على ما تركوا ، ويستبشرون بما عملوا ، ويعضُّ أهل سوء بنان الدم ، ويوقنون بسوء المنقلب ، ويتمنون أن لو كانوا تراباً .

الإيضاح

(إذا السماء انفطرت) أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، عند خراب هذا العالم بأسره .

وجاء نحو الآية قوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » وقوله : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » وقوله : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » .

(وإذا الكواكب انتثرت) أى سقطت وتفرقت ، وهذا يحىء تاليا لما قبله ، إذ متى انشقت السماء وانتفض تركيبها ، واختل نظامها - انتثرت كواكبها .

(وإذا البحار فجرت) أى أزيل ما بينها من حواجز ، فاختلط عذبها بملحها ، وفاضت على سطح الأرض حينئذ من الدهر كما قال : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » أى ملئت وفاض ماؤها ، لاضطراب الأرض وزلازلها الشديد ، ووقوع الخلل فى جميع أجزائها .

والخلاصة — إن هذا العالم تزول صفاته ، وتبديل أحواله ، فتكون الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء كما قال : « يَوْمَ نَبْدَلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ » .

(وإذا القبور بعثرت) أى أثيرت وقلب أسفها أعلاها ، وباطنها ظاهرها ، ليخرج من فيها من الموقى أحياء .

قوله رَأَى خَيْرَ
(علمت نفس ما لم تحضرت) أى علم كل أحد ما قدم لنفسه من عمل ولم يقصر فيه ، وعلم ما أخره وتكاسل عن أدائه .

وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن المعصية .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

شرح المفردات

ما غرك : أى أى شئ خدعك وجرّأك على العصيان ؟ الكريم : أى العلى العظيم ، فسواك : أى جعل أعضائك سوية سليمة معدّة لمساقتها ، فعذلك : أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق ، فى أى صورة ما شاء ركبك : أى ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأحكمها ، وكلمة (ما) جاءت زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه ، وهى طريقة متبعة فى كلامهم عند إرادة التهويل ، وسلوك سبيل التعظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى صدر السورة أنه فى يوم القيامة يبدّل نظام هذا العالم ، ويسأل الخلائق عما قدمت أيديهم ، ويحاسبهم على ما اقترفوا من آثام ، ويقرّعهم على تكاسلهم فى أداء ما أمروا به ، ويجزّيهم أحسن الجزاء على ما قدموا من عمل صالح - أردف هذا بخطاب الإنسان واستفساره عما دعاه إلى مخالفة خالقه، وتعاديه فى فجوره وطغيانه ، واسترساله مع دواعى النفس الأمارة بالسوء ، مع أنه لو تدبّر فى نفسه وفى خلقه لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو جدير بشكرانه ، ومداومته على

طاعته ، وهو الذى خلقه فسواه وجعله على أحسن صورة ، وكمله بالعقل والفهم والتدبر فى عواقب الأمور ومصايرها .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الذى خلقك فسواك فعدلك) أى أيها الإنسان العاقل الذى أوتى من قوة الفكر ، وبسطة القدرة ما أوتى ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات - أى شئ خدعك وجراك على عصيان ربك الكريم الذى أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر ، ولا تزال أياديه تتوالى عليك ، ونعمه تترى لديك ؟ ألا تشكر من برأك وصورك فأحسن صورتك ، وجعلك معتدل القامة ، تام الخلق ؟

ووصف نفسه بالكريم دون القهار ، إيذاناً بأن ذلك مما لا يصلح أن يكون مداراً لاغتراره ، وإغواء الشيطان له بنحو قوله : افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثل ذلك فى الآخرة ، بل هذا يصلح للمبالغة فى الإقبال على الإيمان والطاعة .

والخلاصة — كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الذى من صفاته الكرم ، الزاجر لك عن عصيانك ومخالفة أمره ؟

قال عمر بن الخطاب وقد تلا الآية: غرّه جهله وقرأ: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» . وقال قتادة : غرّه عدوه المسلط عليه .

ثم أجمل ما فصله أولاً بقوله :

(فى أى صورة ما شاء ربك) أى ربك فى صورة هى من أبهى الصور وأجلها ، وأدناها على بقائك الأبدى فى نشأة أخرى بعد هذه النشأة ، فإن الكريم يوفى كل مرتبة من الوجود حتمها ، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لا ينبغي أن يعيش

كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر ، وإنما الذى يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها ، ولا فناء بعدها ، يوقى فيها كل ذى حق حقه ، وكل عامل جزاء عمله .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنْ عَنِيتُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ؟ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

شرح المفردات

كلا : كلمة تفيد نفى شيء قد تقدم وتحقيق غيره ، والدين : الجزاء ، حافظين أى يحصون أعمالكم خيرا كانت أو شرا ، والأبرار : واحدهم برّ؛ وهو من يفعل البر (بكسر الباء) ويتقى الله فى كل أفعاله ، والفجار : واحدهم فاجر؛ وهو التارك لما شرعه الله وحده لعباده ، يصلونها : أى يقاسون حرها ، يوم الدين : أى يوم الجزاء ، ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل نعمه على الإنسان خلقه على أحسن صورة ، وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر - أعقب هذا بيان أنه لا شيء يقعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد

والتكذيب ؛ فالشعور النفسى يوحى به ، والدليل الثقلى الذى أتى به الرسول يصدقه ، والله لم يترك عملا لعباده إلا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل أجره ؛ فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .

ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان ، بررة مطيعون لربهم فيما به أمر وعنه نهى ، وهؤلاء يتقبلون فى النعيم ، وفجرة يتركون أوامر الدين ، وأولئك يكونون فى دار العذاب والهوان يقاسون حر النار ، وأنه فى هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوى ما قدمت يداه ، فيجفوه الأولياء ، ويخزله الشفعاء ، ويتبرأ منه الأفرباء ، فلا شفيع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ، وهو المهيمن على عباده ، وييده تصريف أمورهم ، وهو الصادق فى وعده ، العدل الحكيم فى وعيده ؛ فلا هرب لعامل مما أعد له من الجزاء على عمله .

الإيضاح

(كلاب تكذبون بالدين) أى ارتدعوا عن الاغترار بكرمى لكم ، فإنكم لاستقيمين على ما توجهه نعمى عليكم ، ويدعوه إرشادى لكم ، بل تجترئون على ما هو أعظم منه ، فتكذبون بيوم الجزاء والحساب على القليل والكثير ، يوم تبعثون للفصل بينكم ، فتجازى كل نفس بما عملت ، وما قدمت وأخرت .

ثم حذرهم من تهاديهم فى غيهم ببيان أن أعمالهم محصاة عليهم فقال :
(وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تعملون) أى إن أعمالكم محصاة عليكم ، فقد وكل بكم ملائكة حفظة ، كرام كاتبون ، يحصون كل ما تعملون من خير وشر .

وقد ذكر ذلك فى غير موضع من الكتاب الكريم كقوله : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَنْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وقوله : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَرَّقَ عِبَادَهُ وَرُسُلُ عَلَيْهِمْ حَفَظَةٌ » .

وليس علينا أن نبحث عن كنه هؤلاء الحفظة ، ولا أن نعرف من أى شىء خلقوا ، وما عملهم ، وكيف يحفظون الأعمال ، وهل عندهم أوراق وأقلام ، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال ، أو هم أرواح تتجلى فيها تلك الأعمال ، فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس - كل ذلك لم تكلف العلم به ، وإنما تكلف الإيمان بصدق الخبر ، وتقويض الأمر فى حقيقته إلى الله .

ثم ذكر نتيجة الحفظ والكتابة من الثواب والعقاب ، وبين أن العاملين فى ذلك اليوم فريقان ، وبين مآل كل منهما فقال :

(إن الأبرار ابنى نعيم . وإن الفجار ابنى جحيم . يصلونها يوم الدين) أى وإن أهل الثواب وهم الأبرار يكونون فى دار النعيم ، وإن أهل العقاب وهم الفجار يكونون فى دار الجحيم ، دار العذاب الأليم يقاسون أهوالها .

ثم بين أن هذا العذاب حتم لا منجاة لهم منه ولا مهرب فقال :

(وما هم عنها بغائبين) أى إنهم لا يغيبون عن الجحيم ، ولا ينفكون عن عذابها ، بل هم ملازمون لها .

ثم عاد إلى تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره فقال :

(وما أدراك ما يوم الدين) أى إن أمرك أيها الإنسان لعجيب ، فأنت لاه عن هذا اليوم غير مبال به ، وقد كنت خليفاً أن تتعرف حقيقة حاله ، لتأخذ لنفسك الحيلة ، وتتدبر أمرك ، ولا تترك إلى عفورك وكرمه وصفحه ، فإنك لا تدري ما قدر لك .

ثم زاده توكيدا وتعظيما فقال :

(ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟) أى ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم ، كأنك قد أدركت كنهه ، وعرفت وجه الخلاص مما يلتلك فيه من الأهوال ، ولوعرفته حق معرفته للانت قناتك ، ورجعت إلى ربك تائباً ، وعدت إليه مستغفراً ، طالبا الصفح عما قدمت يداك .

ثم بين حقيقة أمره فقال :

(يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) أى يوم لا تستطيع دفعا عنها ولا نفعا لها بوجه ولا أمر إلا الله وحده ، فكل امرئ مشغول بما هو فيه ، كما قال : « وَاتَّبَعُوا يَوْمَآ لَا تَحْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » وقال : « يَوْمَ يَعْرِثُ الرَّءُ مِنْ أُخِيهِ . وَأُمُّهُ وَأُبْيِهِ . وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(والأمر يومئذ لله) وحده ، فلا أحد يحصى أحدا ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئا . وقد استأثر الله بالأمر كله ، فبيده تصرفه ، وإليه المرجع والمآب .. ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ، ولا نخزننا يوم القيامة ، إلك لا تخلف الميعاد .

ما فى هذه السورة من مقاصد

- (١) وصف بعض أهوال يوم القيامة .
- (٢) تقصير الإنسان فى مقابلة الإحسان بالشكران .
- (٣) بيان أن أعمال الإنسان موكل بها إكرام كاتبون .
- (٤) بيان أن الناس فى هذا اليوم : إما بررة . نعمون ، وإما فجرة معذبون .

سورة المطففين

آياتها ست وثلاثون ، نزلت بعد سورة العنكبوت ، وهى آخر سورة نزلت بمكة .

ومناسبتها لما قبلها . أنه قال هناك : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » يجعل فى عليين أو فى سجين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) .

شرح المفردات

ويل : أى هلاك عظيم ، والتطفيف : البخس فى الكيل والوزن ؛ وسمى بذلك لأن ما يبخس شىء حقير طفيف ، اكتالوا على الناس : أى اكتالوا من الناس حقوقهم ، يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة ، كالوهم : أى كالوا لهم ، يخسرون : أى ينقصون الكيل والميزان ، يقوم الناس لرب العالمين : أى يقف الناس للعرض على خالقهم ، ويطول بهم الموقف إجلالاً لمظمة ربهم .

المعنى الجملى

فصل سبحانه فى هذه السورة ما أجمله فى سابقها ، فذكر فيها نوعاً من أنواع الفجور وهو التطفيف فى المكيال والميزان ، ثم نوعاً آخر وهو التكذيب بيوم الدين ثم أعقبه بذكر جزأهم على هذا التكذيب وتوبيخهم عليه .

الإيضاح

(ويل للمطففين) أى عذاب وخزى شديد يوم القيامة لمن يطفف في المكيال والميزان .

وقد خص سبحانه المطففين بهذا الوعيد ، من قبل أنه كان فاشيا منتشرا بمكة والمدينة ، فكأما يطففون المكيال ويبخسونه ولا يوفون حق المشتري .

روى أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له كيلان أحدهما كبير والثاني صغير ، فكان إذا أراد أن يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار اشتري بالكيل الكبير ، وإذا باع للناس كال المشتري بالكيل الصغير .

هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع ، واستولى على نفوسهم الجشع - هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد ، وهم الذين توعدهم النبي صلى الله عليه وسلم وتهددهم بقوله : « خمس بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات ، ولا منعوا الزكاة إلا خُسِ عنهم المطر » .

وقد بين سبحانه عمل المطففين الذى استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله :

(الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون : وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى إذا كان لهم عند الناس حق فى شيء من المكيالات لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وأفيا كاملا ، وإذا كان لأحد عندهم شيء وأرادوا أن يؤدوه له أعطوه ناقصا غير واف . واقتصر النظام على الاكتيال حين الاستيفاء ، وذكر الكيل والميزان فيه حين الإخسار ، لأن المطفيف فى الكيل يكون بشيء قليل لا يعبأ به فى الأغلب ، دون التطفيف فى الوزن ، فإن أدنى حيلة فيه يفضى إلى شيء كثير ، ولأن ما يوزن أكثر

قيمة في كثير من الأحوال مما يكال ، فإذا أخبرت الآية بأنهم لا ييقنون على الناس ما هو قليل مبین من حقوقهم ، علم أنهم لا ييقنون عليهم والكثير الذى لا يتسامح فيه إلا نادرا بالطريق الأولى .

وكما يكون التطفيف فى السكيل والميزان يكون فى أشياء أخرى ، فمن استأجر عاملا ووقف أمامه يراقبه ويطلبه بتجويد عمله ، ثم إذا كان هو عاملا أجيرا لم يراقب ربه فى العمل ولم يقم به على الوجه الذى ينبغى أن يقوم به - يكون واقعا تحت طائلة هذا الوعيد ، مستوجبا لأليم العذاب ، مهما يكن عمله ، جلّ أو حقّر ؛ وإذا كان هذا الإنذار لمطففين الراضين بالقليل من السحت ؛ فما ظمك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيل ولا وزن ، بل يسلبونهم ما بأيديهم ، ويغلبونهم على ثمار أعمالهم ، فيحرمونهم التمتع بها ، اعتمادا على قوة الملك أو نفوذ السلطان أو باستعمال الحيل المختلفة .

لا جرم أن هؤلاء لا يحسبون إلا فى عداد الجاحدين المنكرين ليوم الدين ، وإن زعموا بألسنتهم أنهم من المؤمنين الخبيثين .

ثم هوّل فى شأن هذا العمل فقال :

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم) أى إن تطفيف السكيل والميزان واختلاس أموال الناس بهذه الوسيلة - لا يصدر إلا عن شخص لا يظن أنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ، إذ لو ظن ذلك لما طفف السكيل ولا بخس الميزان .

والخلاصة - إنه لا يجسر على فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوم يحاسب الله فيه عباده على أعمالهم ، فما بالك بمن يستيقن ذلك .

ثم وصف هذا اليوم فقال :

(يوم يقوم الناس لرب العالمين) أى هذا اليوم هو اليوم الذى يقف فيه الناس للعرض والحساب ، ويطول بهم الموقف إعظاما لجلاله تعالى .

ولا يخفى ما فى النوصف برب العالمين من الدلالة على عظم الذنب وتفاقم الإثم فى التطفيف ، إذ أن الميزان هو قانون العدل الذى قامت به السموات والأرض .
وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول : اتق الله تعالى وأوف السكيل ، فإن المطمئنين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن ، حتى إن العرق ليلجمهم .
وعن عكرمة أنه قال : أشهد أن كل كيال ووزان فى النار ، فقل له : إن ابنك كيال ، فقال : أشهد إنه فى النار ، وكأنه أراد المبالغة وبيان أن الغالب فيهم التطفيف .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَذْرَاكَ مَسِجِّينٍ؟ (٨)
كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكْذِّبُونَ
بِیَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) .

شرح المفردات

سجّين : اسم للكتاب الذى دوّنت فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقما ، معتد : أى متجاوز منهج الحق ، أثيم : أى يكثر من ارتكاب الآثام : وهى المعاصى ، أساطير الأولين : أى أخبار الأولين أخذها محمد عن بعض السابقين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا يقيم على التطفيف إلا من يفكر ما أوعده الله به من العرض والحساب وعذاب الكفار والمعصاة - أمرهم بالكف عما هم فيه ، وذكر أن الفجار

قد أعد لهم كتاب أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا بها ، فويل للمكذبين بيوم
الجزاء ، وما يكذب به إلا كل من تجاوز حدود الدين وانتهك حرمانه ، وإذا تليت
عليهم آيات القرآن قالوا ما هي إلا أقاصيص الأولين نقلها محمد عن السابقين ، وليست
وحيا يوحى كما يدعى .

الإيضاح

(كلا) أى ازدجروا عما أنتم عليه من التنظيم والغفلة عن الحساب .
ثم عالج هذا بقوله :

(إن كتاب العجار لى سجين) أى كفوا عما أنتم عليه ، فإن الفجار
سيحاسبون على أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتابا أحصى فيه أعمالهم يسمى (سجينا) .
(وما أدراك ما سجين ؟) أى ليس ذلك مما تعلمه أنت ولا قومك .
ثم فسره له فقال :
(كتاب مرقوم) أى كتاب قد جعلت له علامة بها يعرف من رآه أنه
لاخير فيه .

وقصارى ما سلف — إن للشر سجلا دونت فيه أعمال الفجار وهو كتاب
مسطور بين الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ،
كما نقول : إن كتاب حساب قرية كذا فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها
وحساب غيرها من القرى .

فلكل فاجر من الفجار صحيفة ، وهذه الصحائف فى السجل العظيم
المسمى بسجين .

(ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين) أى شدة وعذاب لمن
يكذب بيوم الجزاء ، سواء كان يجحد أخباره أو بعدم المبالاة بما يكون فيه من
عقاب وعذاب .

وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الإصرار على الجرائم ، والمداومة على اقتراف السيئات .

ثم بين أوصاف من يكذب بهذا اليوم فقال :
(وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) أى وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى على الحق ، وعصى عن الإنصاف ، واعتاد ارتكاب الجرائم ، إذ يصعب عليه الإذعان بأخبار الآخرة ، لأنه يأبى النظر فى أدلتها ، وتدبر البينات المرشدة إلى صدقها ، إلى أنه يعمل نفسه بالإنكار ، ويهوّن عليها الأمر بالتغافل أو التعلق بالأمانى من نصرة الأولياء ، أو توسط الشفعاء .

أما من كان ميالاً إلى العدل ، واقفاً عند ما حذّر الله لعباده فى شرائعه وسننه فى نظام الكون ، فأيسر شئ عليه التصديق باليوم الآخر ، وهو أعون له على ما تميل إليه نفسه .

(إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى وإذا قرئ عليه القرآن أنكر كونه منزلاً من عند الله ، وزعم أنه أخبار الأولين ، أخذها محمد من غيره من السابقين .

ومحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلْفُكَ افْتِرَاءٌ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أُنزِلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

وقد يكون المعنى — إنها أباطيل ألقيت على آباءهم الأولين فكذبوها ولم تجز عليهم ، فلسنا أول من يكذب بها حتى تزعمون أن تكذبنها بها يعتبر عجلة منا ، فإننا إنما تأسينا فى تكذبنها بآبائنا الأولين الذين سبقونا .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) .

شرح المفردات

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدا يغشى الذئب كالغيم الرقيق . وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، قال الفراء : كثرت منهم المعاصي والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها ، لمحجوبون : أى مطرودون عن أبواب الكرامة ، لصالوا الجحيم : أى لداخلوا النار وملازموها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم قالوا : إن القرآن أساطير الأولين وليس وحياً من عند الله - أردف ذلك بيان أن الذى جرأهم على ذلك هى أفعالهم القبيحة التى صرنوا عليها ، فعُميت عليهم وجوه الآراء حتى صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة .

ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها ، ويكثرون من ترددها - وهى ، إن كان ما يحدث به محمد صحيحاً فنحن سنكون فى منزلة الكرامة عند ربنا ، فأبان لهم أنهم كاذبون ، فإنهم سيطرودون من رحمته ولا ينافون رضاه ، ثم يؤمر بهم إلى النار فيدخلونها ويصلون سعيها ، ويقال لهم هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون مما أوعدكم به الرسول .

الإيضاح

(كلا) زجر لكل معتد أنهم يقول الزور ويزعج أن القرآن أساطير الأولين .

ثم بين السبب الذى حملهم على ذلك فقال :

(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى ليس الأمر كما يقولون من أنه أساطير الأولين ، بل الذى جرأهم على ذلك هو أفعالهم التى دربوا عليها واعتادوها فصارت سببا لحصول الرين على قلوبهم ، فالتبست عليهم الأمور ولم يدركوا الفرق بين الكذب الفاضح ، والصدق الواضح ، والدليل الأملح .

وبعد أن بين منزلة الفجار والمكذبين بيوم الدين - دحض ما كانوا يقولون من أن لهم الكرامة والمنزلة الرفيعة يوم القيامة فقال :

(كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أى ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون مقرين إلى الله ، فإنكم ستطردون من رحمته ولا تنالون رضاه ، ولا تدركون ما زعمتم من القرب والزلفى عنده كما قال : « وَلَا يُسْكَأُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ » .

ثم ذكر ما يكون لهم فوق ذلك فقال :

(ثم إنهم لصالو الجحيم) أى وبعد أن يجحبوا فى عَرَصات القيامة عن الدنوة من ربهم ، وإدراك أمانهم التى كانوا يطمنونها - يقذف بهم فى النار ويصلون سعيها ويقاسون حرها .

ثم أرشد إلى أنهم حينئذ يبكتون ويوبخون فوق ما بهم من الآلام فقال :

(ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) أى هذا الذى عوقبتم به - هو جزاء ما كنتم تكذبون به من أخبار الرسول الصادق ، كزعمكم أنكم لن تبعثوا ، وأن القرآن أساطير الأولين ، وأن محمدا ساحر أو كذاب ، إلى نحو ذلك من مقولاتكم ؛ ولأن قد تبين لكم حقيقة أمركم ، وعايتم بأنفسكم أن ما كان يقوله نبيكم عمى الحق الذى لا شك فيه .

وما أشد على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكّر وهو يتألم، بأن وسائل نجاته من مصابه كانت في متناول يديه وقد أهملها وأتى بها وراءه ظهرياً .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩)
كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢)
عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)
يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَنِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

عالمين : أى فى مكان عال وقد تقدم أن سجيننا مكان فى نهاية السفلى ، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين وأعمال الخاسرين ، وليس علينا أن نعرف ماهما ؟
أمن أوراق أو أخشب أو مادن أخرى ، والأرائك : هى الأسرة فى الحبال (والحبال واحدة حجلة وهى مثل القبة) وحجلة العروس بيت : أى خيمة تزين بالثياب والأسرة والستور ، ونضرة النعيم : بهجته ورونقه ، ورقيق : أى شراب خالص لاغش فيه ، مختوم : أى ختمت أوانيه وسدت . ختامه مسك : أى ما يختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين ، وأصل التنافس : التشاجر على الشئ والتنازع فيه بأن يجب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، والمراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ، ليلحقوا بالعاملين . والنزاج والنزج : الشئ الذى يعزج بغيره ، والنزج : خلط أحد الشيئين بالآخر ، والتسليم : عين من ماء تجرى من أعلى

إلى أسفل ، وهو أشرف شراب في الجنة ، ويكون صرفا للمقربين ممزوجا لأصحاب
اليمين وسائر أهل الجنة ، والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكركم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال الفجار وحال المطففين ، وبين منزلتهم عند الله يوم
القيامة - أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا برههم وصدقوا رسولهم فيما جاء به
عن خالقهم ، وعملوا الخير في الحياة الدنيا ، فذكر أن الله قد أحصى أعمالهم في كتاب
مرقوم اسمه عليون يشهده المقربون من الملائكة .

وبعد ذلك عدد ما ينالون من الجزاء على البر والإحسان .
وفي ذلك ترغيب في الطاعة ، وحفز لعزائم الحسنيين ، ليزدادوا إحسانا ،
ويدعوا الطرق المشتبهة المستبسة وقيموا على الطريق المستقيم .

الإيضاح

(كلا) أى ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ، ومن أن
كتاب الله أساطير الأولين .

(إن كتاب الأبرار لفي عليين) أى إن كتاب أعمال الأبرار مودع في أعلى
الأمكنة ، بحيث يشهده المقربون من الملائكة ، تشریفاهم وتعظيمًا لشأنهم .

كما أن الغرض من وضع كتاب الفجار في أسفل سافلين - إذلالهم وتحقيق
شأنهم ، وبيان أنه لا يقو به بهم ولا يعنى بأمرهم .

ثم عظم شأن عليين وفخم أمره فقال :

(وما أدراك ما عليون) أى وما أعلمك أى شئ هو ؟ .

ثم فسره وبين المراد منه فقال :

(كتاب مرقوم . يشهده المقربون) أى إن كتابهم فى هذا السجل الكبير الذى يشهده المقربون من الملائكة ، فكما وكل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم ، وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار .

وقد يكون المراد — إنهم ينقلون ما فى تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذى وكوا بحفظه ، ويصير عليهم شهادة لهؤلاء الأبرار .

وبعد أن بين منزلة كتاب الأبرار — أخذ يفصل حال الأبرار فقال :

(إن الأبرار فى نعيم) أى إن البررة لمضيعين لربهم ، الذين يؤمنون بالبعث والحساب ، ويصدقون بما جاء على لسان رسوله — لى لذة ، وخفض عيش ، وراحة بال ، واطمئنان نفس .

ثم ذكر أوصاف هذا النعيم ونظم شأنه فقال :

(على الأرائك ينظرون) أى على الأمرة فى حجالها ينظرون إلى أنواع نعيمهم فى الجنة من الحور العين والولدان وأزواج الأطعمة والأشربة والمراكب الفارهة إلى نحو ذلك .

ثم بين أثر هذا النعيم على أهل الجنة فقال :

(تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أى إنك إذا نظرت إليهم أدركت أنهم أهل نعمة ، لما ترى فى وجوههم من الأمارات الدالة على ذلك ؛ فن ضحك ، إلى هدوء بال ، إلى استبشار كما قال : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . »
(يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك) أى يسقون خمر لا غش فيها ، ولا يصيب شاربها خمر ولا يناله منها أذى كما قال تعالى : « لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ » .

وقد ختمت أوانها بختم من مسك بدل الطين ، تكرىما وصونا لها عن الابتذال على ما جرت به العادة من ختم الإنسان على ما يكرّم ويصان .

وهذا النوع من الخير غير النوع الآخر الذى يجرى فى الأنهار الذى أشار إليه سبحانه بقوله : « وَأَنْهَارٌ مِنْ خَيْرِ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ » .

ثم رغب فى العمل لذلك النعيم فقال :

(وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) أى وفى ذلك النعيم فليتسابق المتسابقون ، وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه .

وفى هذا إيماء إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مش ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا فى النعيم الذى يشوبه السكر وهو سريع الفناء .

(ومزاجه من تسنيم) أى ومزاج هذا الرحيق ينصب عليهم من الأعلى ، وقد سئل ابن عباس عن هذا فقال : هذا مما قال الله : « فَلَا تَغْلَمْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

ثم بين هذا التسنيم فقال :

(عينا يشرب بها المقربون) أى أمدح عينا يشرب منها الأبرار الرحيق مزاجا إذا أرادوا ، وقد وصفهم الله بالمقربين تكريما لهم وزيادة فى مدحهم .

وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه . فبين لهم أنهم فى الآخرة يشربون رحيقا قد وصف بما يجعل النفوس تتشوق إليه ، وأنهم يمزجونه بماء تبيثهم به العين العالية القدر ، إذا شاءوا أن يمزجوه .

وقصارى ماسلف — أنه سبحانه وصف النعيم الذى أعد له للأبرار فى دار كرامته بما تتطلع إليه النفوس ، وبما يشوقها إليه ، ليكون حضا للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من العمل والاستدامة عليه ، وحضا لهم المقصرين ، واستنهاضا لعزائمهم أن يحرصوا على التزوّد منه ليكون لهم مثل ما لأولئك .

إلى ما فيه من تحزين العصاة المصرّين على عصيانهم ، ونبوغ الغاية فى إيلاهم ، فإن العدو يسوءه أن يرى عدوه فى نعمة ، أو يسمع أن النعمة تنتظره .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا
 مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)
 فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ
 يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

شرح المفردات

الغمز : الإشارة بالجنف والحجاب 'ستهزاء وسخرية ، وقد يراد به العيب فيقال
 غمز فلان فلانا إذا عابه وذكره بسوء . ويقال فلان لامغمز فيه : أى ليس فيه ما يعاب
 به ، فكهين : أى معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان ، حافظين :
 أى رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم ، والشويب والإثابة : المجازاة ؛ يقال
 ثوبه وأثابه إذا جازاه كما قال :

سَاجِرُكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مُثَوِّبٌ وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْكَ وَتُحْمَدَىٰ

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه النعيم الذى هياه للذين آمنوا به وبرسوله ، وعملوا بما
 كلفهم به من أعمال البر ، وأرشد إلى ما أعدده للفجار جزاء ما اجتروا من السيئات
 - أخذ يبين ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا ، وما سيقابل به المؤمنون
 الكفار يوم القيامة ، كفاء ما صنعوا معهم فى الحياة الأولى .

روى أن صنديد قریش كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي
 وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأممية بن خلف وأضراهم ، كانوا يؤذون رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويستهزئون بهم ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلماهم .
 وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّا كَمْيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »

وروى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه جاء في نفر من المسلمين فرآه بعض
 هؤلاء الكفار فسخروا منه ومن معه وضحكوا منهم وتغاضوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية
 شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه .

الإيضاح

(إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) أى إن المعتدين الائمة
 الذين ضريت نفوسهم على الشر ، وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق — كانوا
 فى الدنيا يضحكون من الذين آمنوا .

ذاك أنه حين رحم الله العالم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم
 وعرفاؤهم على رأى الدهماء من عبادة الأوثان والأصنام ، وكانت دعوة الحق خافتة
 لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يلقي دعوته من الضعفاء ،
 فيُسِرَّ بها إلى من يرجو الخير فيه ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه .

ومن شأن القوى المعتز بقوته وكثرة ماله وعزة نعره أن يضحك ممن يخالفه
 فى المنزغ ويدعوه إلى غير مايعرف ، كما كان ذلك شأن جماعة من قریش كأبى جهل
 وشيعته ، وأمثالهم كثيرون فى كل زمان ومكان ، متى عت البدع وخفى طربق الحق ،
 وتحكمت الشهوات ، وذهب النافص يستكمل ما نقص منه بتنقيص السكامل . وإذا
 صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم
 بالداعى إليه .

(وإذا مروا بهم يتغامزون) أى وإذا مر المؤمنون بهم يعيبنهم ويذكرونهم
 بالسوء ، ويشيرون إليهم مستهزئين .

(وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) أى وإذا رجعوا إلى ذرى قرابتهم وبنى جلدتهم وأشياهم من أهل الشرك والضلالة — رجعوا معجبين بما فعلوا من العيب على أهل الإيمان ورميهم بالشخف وقلة العقل ، ويقولون : عجبا لهم ، إذ يقولون لا تدعوا إلا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بالطلب إلا إليه ، فأين الأولياء والشفعاء ، فكم ضررنا وكم نفعوا — إلى نحو ذلك مما يتندرون به ويعدونه فكهية فكهية وتلذذون بحكايته .

(وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) أى وإذا رأوا المؤمنين قالوا إن هؤلاء ضالون ، إذ نبذوا ما عليه الكافة ، وذهبوا يعمسون العقائد الموروثة والمناسك التى نقلها الخلف عن السلف ، كابر عن كابر ، وجيلا بعد جيل .

فرد سبحانه على هؤلاء الكفار فقال :

(وما أرسلوا عليهم حافظين) أى إن الله لم يرسل الكفار رقباء على المؤمنين ، ولم يؤتهم سلطة محاسبتهم على أفعالهم ، وتعريف باطلها من صحيحها ، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم ما يعتقدهونه ضلالا بعقولهم الفاسدة ، وإنما كلفهم أن ينظروا شئون أنفسهم ، فيعدلوا منها ما أعوج ، فإذا فعلوا ذلك قاموا بما يجب عليهم فى هذه الحياة . ثم شرع يذكر معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة ، تسلية لهم على ما ينالهم منهم من أذى وتقوية لقلوبهم ، وشدا لعزائهم على التذرع بالصبر فقال :

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) أى لإنهم فى يوم الدين يضحك المؤمنون ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسر به ، وينكشف لهم ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم وخذلان أعدائهم ، فضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجأت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفة عقولهم وفساد أقوالهم .

(على الأرائك ينظرون) إلى ما صنع الله بأعدائهم ، وتنكيله بمن كانوا يفخرون

عليهم ويهزون بهم .

ثم ذكر ما ينظرون إليه ليستيقنوا من حصوله فقال :
 (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) أى إنهم ينظرون ليتحققوا : هل جوزى
 الكفار بما كانوا يفعلون بهم فى الدنيا .
 وإنما سمى الجزاء على العمل ثوابا ، لأنه يُرجع إلى صاحبه نظير ما عمله من
 خير أو شر .

ولله الحمد على إنعامه ، والشكر على إحسانه وإفضاله .

مقاصد هذه السورة

- (١) وعيد المطففين .
- (٢) بيان أن صحائف أعمال الفجار فى أسفل سافلين .
- (٣) الإرشاد إلى أن صحائف أعمال الأبرار فى أعلى عليين .
- (٤) وصف نعيم الأبرار فى ما آكلهم ومشاربهم ومسكنهم .
- (٥) استهزاء الجرمين بالمؤمنين فى الدنيا ونظامهم بهم وحكمهم عليهم بالضلal .
- (٦) تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة .
- (٧) نظر المؤمنين إلى الجرمين وهم يلقون جزاءهم وما أعدّ لهم من النكال .

سورة الانشقاق

هى مكية ، وآياتها خمس وعشرون ، نزلت بعد سورة الانفطار .
ومناسبتها لما قبلها — أنه فى السابعة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر
عرضها يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ
مَدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَدَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُتَاتٍ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ يَمِينًا (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو
تُبُورًا (١١) وَيَصْنَعُ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ
أَنْ لَّنْ يَحْجُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) .

شرح المفردات

انشقت : أى انشقت بالغمام كما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ »
وأذنت لربها : أى استمعت له كما قال :
صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِّرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِّرَتْ شَرًّا عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وحقَّت : أى وحق لها أن تتمثل ذلك أى يحذر ربها أن تكون كذلك ،
قال كثير :

فإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً وحقت لها العتبي لدينا وقلت
مدت : أى بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعاً صافصفاً لا ترى فيها
عوجاً ولا أمثاً ، وأنت مافيهما : أى ألفت مافيهما من الموتى والكنوز ، وتختل :
أى خلّت مما فيها فلم يبق فيها شيء ، كادح : أى جاهد مجده . قال شاعرهم :
ومضت بشاشة كل عيش وبقيمت أكدح للحياة وأنصب
فملاقية : أى فملاق له عقب ذلك ، ينقلب : أى يرجع ، أهله : أى عشيرته
المؤمنين ، وراء ظهره : أى يؤتاه بشماله من وراء ظهره ، والثبور : الهلاك أى ينادى
ويقول : واثبورا أهبل فهنا أوانك ، ويصلى : أى يقاسى ، وسعيراً : أى ناراً
مستعرة ، مسروراً : أى فرحاً ، يحور : أى يرجع قال لبيد :
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
والمراد أنه لن يرجع إلى الله ، بلى : أى بلى يحور ويرجع .

المعنى الجملى

بين سبحانه فى أوئل هذه السورة أهوال يوم القيامة ، فذكر أنه حين انشقاق
السماء واختلال نظام العالم ، وانبساط الأرض بنسف مافيهما من جبال ، وتخليها
عما فى جوفها — يلاقى المرء ربه فيوفيه حسابه ، وينقسم الناس حينئذ فرقتين :
(١) فريق الصالحين البررة ، وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً ويرجعون
مسرورين إلى أهلهم .

(٢) فريق الكفرة والعصاة ، وهؤلاء يؤتون كتبهم وراء ظهورهم ، ثم يصلون
حر النار لأنهم كانوا فرحين بما يمتعون به من اللذات والجري وراء الشهوات ،
إذ كانوا يظنون أن لا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

الإيضاح

(إذا السماء انشقت) لفساد تركيبها واختلال نظامها ، حينما يريد الله خراب هذا العالم يحدث من الأحداث ، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من كوكب آخر ، فيتجاذبان ويتصادمان . فيضطرب نظام العالم العلوى بأسره ، ويحدث من ذلك غمام يظهر فى مواضع متفرقة من هذا الفضاء الواسع .

(وأذنت لربها) أى استمعت وانقادت لتأثير قدرته ، وفعلت فعل المطواع الذى إذا أمر أنصت وأذعن وامثل ما أمر به ، وفى الحديث : « ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن »

(وحقت) أى وحق لها أن تتمثل لأنها مخلوقة من مخلوقاته وهى فى قبضته ، فإن أراد تبديد نظامها فعل ولم يكن لها أن تعصى إرادته .

(وإذا الأرض مدت) أى وإذا اضطربت الأرض ودكت جبالها ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت ما بينها من التماسك ، فليس لها هذا الاندماج المشاهد الآن بل تمدد مد الأديم الكاظمى كما روى عن ابن عباس (والأديم : الجلد ، والمكاظمى : المدبوغ فى عكاز) والمراد أنه لا انشقاق فيها ولا اعوجاج .

(وألقت ما فيها) أى رمت ما فى جوفها من الناس والمعادن ، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها .

وبحو هذا قوله : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقوله : « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » وقوله : « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » .

(وتخلت) أى خلت من جميع ما فى جوفها ، وربما قدفته الحركة العنيفة إلى ما يبعد عن سطحها ، فيخلو منه باطن الأرض وظاهرها ، وهى فى ذلك خاضعة لأوامر ربها ، منقادة لمشيئته .

(وأذنت لربها وحقت) أى واستمعت وأطاعت أوامره ، لأنها فى قبضة القدرة الإلهية تصرّفها فى الغناء ، كما صرّفتها فى الابتداء .

وجواب إذا الذى صدرت به السورة محذوف لإرادة التهويل على المخاطبين ، فكأنه قيل : إذا كان الأمر كذا وكذا مما تقدم ذكره -- ترون ما علمتم من خير أو شر ، فاكذبوا لذلك اليوم ، تفوزوا بالنعيم .

وقصارى ذلك -- وصف أحوال العالم يوم القيامة «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» وأنه يكون على غير حاله التى هو عليها فى هذه الحياة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات ، ويبرز الناس للحساب على ما قدموا فى حياتهم من عمل فيجازيهم على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة السوءى ، وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، ونكمل علم حقيقته ، ومعرفة كنهه إلى الله تعالى الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقية) أى أيها الإنسان ، إنك عامل فى هذه الحياة ومجدّد فى عملك ، ومبالغ فى إدراك الغاية إلى أن تنتهى حياتك ، وإن كنت لا تشعر بجدك ، أو تشعر به وتلهو عنه ، وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة إلى أجلك ، وهناك لقاء الله ، فالموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويجلو لها وجه الحق ، فتعرف من الله ما كانت تذكره ، ويوم البعث يرتفع الالتماس ، ويعرف كل عامل ماجرّ إليه عمله .

والناس حينئذ صنفان :

(١) فأما من أوتى كتابه يمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا) أى فأما من عرض عليه سجلّ أعماله وتناوله يمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيعرف بطاعته ومعاصيه ، ثم يثاب على ما كان منها طاعة ، ويتجاوز له عما كان منها معصية .

وقد روى عن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« اللهم حاسبني حسابا يسيرا ، قلت وما الحساب اليسير؟ قال : يُنظر في كتابه ويتجاوز
عن سيئاته ، فأما من نوقش الحساب فقد هلك » .

ومن حوسب هذا الحساب اليسير رجع إلى أهله المؤمنين مسرورا مبتهجا قائلا :
« هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَّةً » .

(٢) (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا . وَيَصْلَى سَعِيرًا)
أى وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجترأ المعاصى ، فيؤتون كتبهم
بشمالهم من وراء ظهورهم ، ومدَّ اليسار إلى الكتاب دليل الكراهة ، وأظهر
في الدلالة على الكراهة والنفور أن يستدبره ويعرض عنه فيكون من وراء ظهره .
وقصارى ماسلف — إن من عرض عليه كتابه وقدم إليه ليأخذه ، فاندفع إليه
بعزيمة صادقة ، لشعوره بأنه مستودع الصالحات ، وسجل البر والكرامات ، فشأنه
كذا وكذا .

ومن قدَّم إليه كتابه وعرض عليه عمله ، فخرت نفسه وخارت عزيمته ،
فقدَّ إليه يساره أو أعرض عنه فولاه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات ، وسجين
الحجازى فأمره كيت وكيت .

يرشد إلى ذلك ماورد من التفصيل فى سورة الحاقة « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَّةً . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً . فَهُوَ
فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » ودعوة الناس إلى القراءة علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة .

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ شِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً . وَلَمْ أَدْرِ
مَا حِسَابِيَّةً . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةً . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً »
ولا شك أن هذا قول المخدول الكاره لما عرض عليه .

والخلاصة — إن إيتاء الكتاب باليمين ، أو باليسار أو من وراء الظهر تصوير لحال المطلع على أعماله في ذلك اليوم ؛ فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وتناول كتابه بيمينه ، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر ، وتمنى لو لم تكشف له ، وتناولها باليسار أو من وراء الظهر ، وحينئذ يدعو واثبورا ، أى ياهلاك أقبل فإنى لا أريد أن أبقي حيا ، علما منه بأن ذلك داع إلى طول العذاب ، وأنه سيدخل النار ويقاسى سعيرها .

ثم ذكر سبحانه سببين في استحقاقه للعذاب في الآخرة فقال :

(١) (إنه كان في أهله مسرورا) أى لأنه كان في حياته الدنيا فرحا بطرا لا يفكر في أمور الآخرة ، ويقدم على المعاصى ظنا منه أن لذاتها لا توجب الحسرة ، ولا تورث التردى في نار الجحيم ، ومن ثم أبدله الله بهذا النعيم الزائل عذابا لا ينقطع ، وآلاما لا تنفد .

(٢) (إنه ظن أن لن يحور) أى إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ، وأنه لن يبعث الخلق لحسابهم على ما قدموا ، ولو علم أن الله سيدل سروره ، وفرحه حزنا وغما — لأقلع عما هو فيه ، وترك هذا السرور العاجل السريع الفناء ، وطلب من السرور ما يبقى مابقيت الجنة التى لا يفنى نعيمها ، ولا يزول سرور أهلها .

وفي الآية إيماء إلى أن المسخرين لشهواتهم ، الساعين وراء لذاتهم ليسوا بظانين فضلا عن أن يكونوا مستيقنين بأنهم يرجعون إلى ربهم ليحاسبهم ، بل الراجح عندهم أنهم لا يحاسبون ، وأن الله مخلف وعده ، وهذا هو الذى ينسيهم ذكره عند كل جرم يُجرّمونه ، فهم وإن كانوا يزعمون الإيمان بالله وبوعده ووعيده ، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

ثم رد عليه ظنه الخاطى فقال :

(بلى إن ربه كان به بصيرا) أى بلى ليحورن ويرجعن إلى ربه ، وايحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيرا وعلى الشر شرًا ، فإن الذى يخلق الإنسان مستعدًا

لما لا يتناهى من السكول، بما وهبه من العقل، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غاية
غاية سائر الحيوان، بل تقضى حكمته أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يشتر فيها
أعماله، ويوفى فيها كماله.

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ
الْقُرْآنُ لَا يُسْجُدُونَ (٢١) بِلِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥).

شرح المفردات

الشفق: هو الحمرة التي تشاهد في الأفق الغربي بعد الغروب، وأصله رقة الشيء؛
يقال ثوب شفق: أى لا يتماسك لرقته، ومنه أشفق عليه: أى رق له قلبه قال:
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرَم
وسق: أى ضم وجمع؛ يقال وسقه فانسق واستوسق: أى جمعه فاجتمع، وإبل
مستوسقة: أى مجتمعة قال:

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقاتٍ لم يحِذَنْ سائقا
واتسق: أى اجتمع نوره وصار بدرا، لتركبن: أى لتلاقن، والطبق: الحال
المطابقة لغيرها، قال الأقرع بن حابس:

إني امرؤٌ حلبت الدهرَ أشطُرهُ وسنني طبق مفه إلى طبق
والمراد لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض

وهي الموت وما بعده ، لا يسجدون : أى لا يخضعون ولا يستكينون ، يوعون : أى يجمعون فى صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغى ، والبشارة : الإخبار بما يسر ؛ واستعملت فى العذاب تهكماً ، وممنون : أى مقطوع من قولهم من فلان الخبل إذا قطعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الإنسان راجع إلى ربه فلاقيه ومحاسبه ، إما حساباً سيراً إن كان قد عمل الصالحات ، أو حساباً عسيراً إن كان قد اجترح السيئات ، أقسم بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، إن البعث كائن لا محالة ، وإن الناس يلقون شدائد الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار .

ونحو الآية قوله : « بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَتَّبِعَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبُوَنَّ بِمَا عَمِيتُمْ » وتوابعه : « يَوْمًا يُجْعَلُ الْوِلْدَانُ شِيبًا » فن عجيب أمرهم أنهم لا يؤمنون به ، وأعجب منه أنه إذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون له ولا يستكينون ، لأن العناد صدم عن الإيمان ، ومنعهم من الإذعان ، والله أعلم بما تكنه صدورهم ، وسيجازيهم بشديد العذاب ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم ثواب عند ربهم لا ينقطع .

الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا : إن العرب اعتادت أن تأتي بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمراً ظاهراً لا يحتاج إلى التوكيد ، فكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أذكره لكم لأن أمره ظاهر ، وثبوتها غير محتاج إلى الحلف عليه .

ويرى بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لا يكفي القسم لإثباته ، فكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذه الأشياء

على إثبات ما أريد ، لأن إثباته أعظم وأجلّ من أن يقسم عليه بهذه الأمور الهينة ،
والغرض على هذا الوجه تعظيم المقسم عليه وتفضيم شأنه .

(بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا انسق) أى أقسم بهذه الأشياء التى إذا
تدبر الإنسان أمرها ، استدل بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها .

(اتركبنّ طبقاً عن طبق) أى لتلاقنّ أيها الناس أموراً بعد أمور وأحوالاً بعد
أحوال ، إلى أن تصيروا إلى ربكم وهناك الخلود فى جنة أو نار .

ويدخل فى هذه الأحوال جميع الأطوار التى مرت به منذ أن كان نظامه فى بطن
أمه إلى أن صار شخصاً ، وما مرّ به فى حياته الأولى من طفولة وشيخوخة ثم موته
ثم حشره للحساب ، ثم مصيره إلى الجنة أو النار .

والخلاصة — لتركبنّ حالا بعد حال والحال الثانية تطابق الأولى ، أى لتكوننّ
فى حياة أخرى تماثل هذه الحياة التى أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والإدراك ،
والألم واللذة ، وإن خالفت فى بعض شئونها الحياة الأولى .

وبعد أن ذكر الأدلة القاطعة على صحة البعث والحساب أنكر عليهم استبعادهم
له فقال :

(فما لهم لا يؤمنون ؟) أى فأى شيء حدث لهم حتى جحدوا قدرة الله وأنكروا
صحة البعث ، وكل شيء أمامهم ينادى بباهر قدرته ، ويرشد إلى عظيم سخطانه ؟
وقصارى ذلك — إنه لاشبهة لهم يصح أن يستمسكوا بها على إنكار
البعث والحساب .

(وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) أى وماذا حدث لهم حتى صاروا إذا
قرئ عليهم القرآن لا يعترفون بإعجازه ، وبلوغه الغاية التى لا يمكن البشر أن يصلوا
إليها فأمرهم عجب ، فهم أهل اللسان وأرباب البلاغة والبراعة ، وإذا يقتضى أن يعلموا
إعجازه ، ومتى علموه استكانوا وخضعوا له ، وأدركوا صحة نبوة الرسول الذى جاء به ،
ووجبت عليهم طاعته .

ثم بين السبب في عدم إيمانهم به واقعيادهم له فقال :

(بل الذين كفروا يكذبون) أى إن الدلائل الموجبة للإيمان جلية واضحة ، لكنهم قوم معاندون معسّون على التكذيب ، إما لأنهم يحسدون الرسول صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، وإما لخوفهم من قوت المناصب الدينية ، والرياسات التقليدية ، وإما لأنهم يأبون أن يخالفوا ما وجدوا عليه آباءهم من عقائد زائفة ، وأفعال مستهجنة .

(والله أعلم بما يصرون) أى والله سبحانه مطلع على ما فى قلوبهم من أسباب الإصرار على الشرك ودواعى العناد والاستمرار على ما هم عليه .
(فبشرهم بعذاب أليم) جزاء إعراضهم على التكذيب والجحود ، وإصرارهم على سبى العمل ، وقاسد الاعتقاد .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى لسكن الذين آمنوا بالله ورسوله وخضعوا للقرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه ، فأولئك لهم أجر لا ينقطع مدده ، ولا ينقص منه .

وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن المعصية ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

مقاصد السورة

تشتمل هذه السورة على مقصدين :

- (١) أن الإنسان يلاقى نتائج أعماله يوم القيامة : فيأخذ كتابه يمينه أو من وراء ظهره .
- (٢) أن الناس فى الدنيا يتنقلون فى أحوالهم طبة بعد طبة إما فى نعيم مقيم ، وإما فى عذاب أليم .

سورة البروج

هى مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة الشمس .
ومناسبتها لما قبلها :

(١) اشتغالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وخاتمته .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كاضرب والقتل والإلقاء فى حارة القيظ ، وذكر هنا أن هذه شئسنة من تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .
وفى هذا عظة لقريش ، وتثبيت من يعذبون من المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَهِيدٍ مَّشْهُودٍ (٣)
قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)
وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) .

شرح المفردات

البروج : واحدها برج ؛ ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء
الاثنى عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ؛ فبسير القمر فى كل برج منها

يومين وثلاث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوما ثم يستقر ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهرا ، ستة منها في شمال خط الاستواء ، وستة في جنوبه ؛ فالتى في شماله هى : الحَمَل والثور والجوزاء والسَّرَطَان والأسد والسَّنْبُلَة ، والتى في جنوبه هى الميزان والعقرب والقوس والجذى والدلو والحوت ؛ وتقطع الثلاثة الأولى في ثلاثة أشهر ، أولها اليوم العشرون من شهر مارث ، وهذه المدة هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هى فصل الصيف ؛ وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضا ، أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة هى فصل الخريف ؛ وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء ، واليوم الموعود : هو يوم القيامة ، لأن الله قد وعده ، والشاهد والمشهود : جميع ما خلق الله تعالى في هذا العالم ، فإن كل ما خلقه شاهد على جليل قدرته ، وعظيم حكمته .

وفى كل شئ له آية تدل على أنه واحد

وهو مشهود أيضا لكل ذى عينين ، والأخدود : الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود : قوم كافرون ذوو بأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فغاضهم إيمانهم فملاهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا فى الأرض وحشوه بالنار وألقوهم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكياد على جوانب الشق يشهدون الإحراق ، وما يقرأ منهم : أى ما عابوا عليهم ، العزيز : أى الذى لا تغلب قوته ، الحميد : أى الذى يحمد على كل حال .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما فيه غيب وشهود ، وهو السماء ذات البروج ، فإن كواكبها مشهود نورها ، مرئى صورؤها ، معروفة حركاتها فى طلوعها وغروبها ، وكذلك البروج

نشاهدها وفيها غيب لا نعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لا تراها ولا ندرك حقيقتها .

وأقسم بما هو غيب صرّف ، وهو اليوم الموعود وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب .

وأقسم بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد : أى ذو الحس ، والمشهود : وهو ما يقع عليه الحس .

أقسم سبحانه بكل ما سلف إن من قبهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم ، واشتدادهم في إيذائهم ، حتى خدّوا لهم الأخاديد وملئوها بالنيران وقذفهم فيها ولم تأخذهم بهم رافة ، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بهم ، وهم مع ذلك قد صبروا وانتقم الله من أعدائهم ؛ ومن أوقع بهم ، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولئن صبرتم أيها المؤمنون على الأذى ليوفينكم أجركم ، وليأخذن أعداءكم وليُنزلن بهم ما لا قبل لهم به .

وقد حكى الله هذا القصص ، ليكون تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، ووعدا لعباده الصالحين ، وحملهم على الصبر والمجاهدة في سبيله ، ووعيدا للكافرين وأنه سيحلّ بهم مثل ما حل بمن قبلهم : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ - فَلَنْ تُجَدَّ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تُجَدَّ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

الإيضاح

(والسماء ذات البروج) أى قسما بالسماء ذات الكواكب العظيمة التى لم يُستطع لها إحصاء ولا عدّ ، منها ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا فى ألف ألف سنة وخمسة ألف ، مع أن الضوء يسير فى الثانية الواحدة ثلثمائة ألف كيلو ، ويصل فى سيره إلى القمر فى قدر ثانية وثلث الثانية ، ولو جرى حول الكرة

الأرضية لدار حولها في الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مدفع فإن قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة . فما أبعد الكواكب التي يصل ضوءها إلينا بعد مليون سنة ونصف المليون ، وإلى أى حد هي عظيمة بالنسبة إلى شمسنا .

وقد أقسم الله بهذه الكواكب لما فيها من عجب الصنعة ، وباهر الحكمة ، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس في هذه الحياة تدل على أن لها صانعا حكيما مدبرا ، إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لنستدل بذلك على عظيم قدره ، وجليل حكمته .

(واليوم الموعود) وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعد الله به على السنة رسله ، وفيه يتفرد ربنا بالملك والحكم .

(وشاهد ومشهود) أى وبجميع ما خلق الله في هذا الكون مما يشهده الناس ويرونه رأى العين ، فمنهم من يتدبر ويستفيد من النظر إليه ، ومنهم من لا يستفيد من ذلك شيئا .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أقسم بالعوالم كلها ليلفت الناظرين إلى ما فيها من العظم والفخامة ، وليعتبروا بما حضر ، ويبدلوا جهدهم في درك حقيقة ما استتر . (قتل أصحاب الأخدود) أى أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة .

ومن حديث ذلك أنه قد وقع إلى نجران من أرض اليمن رجل ممن كانوا على دين عيسى بن مريم فدعا أهلها إلى دينه وكانوا على اليهودية ، وأعلمهم أن الله بعث عيسى بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فأمن به قوم منهم ، وبلغ ذلك ذا نوحس ملكهم وكان يتمسك باليهودية ، فسار إليهم بجنود من حجير ، فلما أخذهم خيرهم بين اليهودية والإحراق بالنار ، وحفر لهم حفيرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يؤتى

بالرجل منهم فيخيره ، فمن جزع من النار وخاف العذاب ورجع عن دينه ورضى اليهودية تركه ، ومن استمسك بدينه ولم يبال بالعذاب الدنيوى لثقتة بأن الله يحزیه أحسن الجزاء - ألقاه فى النار وكان حولها يشرف على هلاكه .

ثم بين من هم أصحاب الأخدود فقال :

(النار ذات الوقود) أى إن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التى لها من الخطب الكثير ما يشتد به لهيبها ، لاجرم يكون حريقها عظيما ، ولهيبها متطائرا .
(إذ هم عليها قعود) أى قتلوا وامنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم وهم يعذبون بها - ويحرقون فيها كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أى إن أولئك الجبابرة الذين أسروا بإحراق المؤمنين كانوا حضورا عند تعذيبهم ، يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم .

وفى هذا إيماء إلى قسوة قلوبهم ، وتمكن الكفر منهم ، إلى ما فيه من إشارة إلى قوة اضطبار المؤمنين وشدة جلدهم ، ورباطة جأشهم ، واستمسكهم بدينهم .
وقد يكون المعنى - يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يقصر فى التنكيل بالمؤمنين .

(وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أى إن هؤلاء الكفار يعاقبوا المؤمنين إلا على شئ لا يجوز العقاب عليه ، بل ينبغى لكل أحد أن يكون عليه . ويدعو غيره إلى التمسك به ، وهو الإيمان بالله تعالى العزيز الغالب الذى يخشى عقابه ، وتهاب صولته ، المنعم الذى يرجى ثوابه ، وترتقب نعمائه .

ثم أكد استحقاقه للعزة والحمد بقوله :

(الذى له ملك السموات والأرض) أى لأنه مالك الأمر كله فيهما ، فلا مفر لأولئك الظالمين من سلطانه ، وأن ما يلاقيه المؤمنون ليس إلا امتحانا وابتلاء مما يحص الله به أهل طاعته ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

ثم ونجهم على ما صنعوا بالمؤمنين وأوعدهم بأنهم سيلاقون جزاء ما فعلوا فقال :
(والله على كل شيء شهيد) فهو عليم بما يكون من خلقه ومجازيهم عليه .

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) .

شرح المفردات

فتنوا : أى ابتلوا وامتحانوا ، عذاب الحريق : هو عذاب جهنم ذكر تفسيراً
وبياناً له ، الفوز الكبير : أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من
رغائب لا تنفى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصة أصحاب الأخدود وبين ما فعلوه من الإيذاء والتككيل بالمؤمنين
وذيل ذلك بما يدل على أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء
المؤمنين ، وأنه إن أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب فى الدنيا فهو لم يمهلهم ، بل أجل
عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار - ذكر ما أعد للكفار من العذاب الأليم ، جزاء
ما اجتروحت أيديهم من السيئات التى منها إيذاء المؤمنين ، وما أعد المؤمنين من
جميل الثواب ، وعظيم الجزاء .

الإيضاح

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب
الحريق) أى إن الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات بالتعذيب ، ليردوهم عن دينهم ،

وثبتوا على كفرهم وعنادهم ولم يتوبوا حتى أخذهم الموت - أعدّ الله لهم عذاباً في جهنم بالحريق .

وقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه ، حرصاً على ما ألفوا من الباطل ، وتشبيهاً لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين ، على غير بصيرة ، ولا استشارة للعقل السليم ، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين .

أنظر إلى أصحاب الأخدود تجدهم قد عرضوا المؤمنين على النار وأحرقوهم بها ، وإلى كفار قريش ترم قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء ، فعذبوا آل ياسر بفنون من العذاب ، وعذبوا بلالاً بما لا يحصى من ضروب الأذى ، وفعلوا مثل هذا بكثير من أكابر المؤمنين ، حتى لقد آذوا الرسول الأكرم وألقوا به كثيراً من العنت والأذى ، فرموه بالحجارة حتى أدموه ، بل فعلوا معه أكثر من هذا فخرجوا بخيلهم ورجلهم يقاتلونه وأصحابه ، ويتمنون لو يتمكنون منه ليقتلوه ، ولكن الله منعه منهم : « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

وفي قوله : « ثم لم يتوبوا » إيماء إلى أنهم لو تابوا قبل موتهم غفر الله لهم ما قدموا قبل التوبة من ذنب .

وبعد أن ذكر ما أعد لأعدائه من النكال والعذاب الأليم - أرشد إلى ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم ، ليكون ذلك أنكى للأعداء ، وأشد في غيظهم ، وأبعث للأسى والحزن في نفوسهم فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) أى إن الذين أقروا بوحداية الله وعملوا صالح الأعمال ائتماراً بأوامره وكفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه - لهم بسنتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، وهذا هو الظفر الكبير لهم ، كفاء ما قدموا من إيمان وطاعة لربهم .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ
الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) .

شرح المفردات

البطش : الأخذ بالنعف والشدة ، يبدى ويعيد : أى هو الذى يبدأ الخلق
ثم يقضيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى ، ليجارىهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ،
الغفور : أى الذى يغفر ويستتر ذنوب عباده بمغفرته ، الودود : أى الذى يحب أوليائه
ويتودد إليهم بالغفو عن صغير ذنوبهم ، ذو العرش : أى صاحب الملك والسلطان
والقدرة النافذة ، المجيد : أى السامى القدر المتناهى فى الجود والكرم ، تقول
العرب : « فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعقار » : أى تناهيا فى الاحتراق
حتى يقتبس منهما .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ، ووصف ما أعد لهم من الثواب كفاء أعمالهم - أردف ذلك كله بما يدل
على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة تأكيد لما سبق من الوعيد والوعد .
فالملك لا يعظم سلطانه وهيبته فى النفوس إلا بأمرين :

- (١) الجود الشامل والإنعام الكامل ، وبذا يرجى خيره .
- (٢) الجيوش الجارية والأساطيل العظيمة التى توقع بأعدائه وتشكل بهم ،
وبذلك يهاب جانبه ، وإليهما معا أشار بقوله فيما سلف : « الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وهنا
زاد الأمر إيضاحا بقوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » الآية .

الإيضاح

(إن بطش ربك لشديد) أى إن انتقامه من الجبارة والظلمة ، وأخذه إياهم بالمعقوبة - هو الغاية فى الشدة ، والتهية فى الأذى والألم .

وفى هذا إرهاب لقريش ومن معهم ، وتعزية لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن معه .

وقد زاد سبحانه أمر قدرته تأكيداً فقال :

(إنه هو يبدى ويعيد) أى إنه يخلق الخلق ابتداء ، ثم يعيدهم بعد أن صيرهم تراباً ، وإذا كان قادراً على البدء والإعادة فهو قادر على شديد البطش بهم ، لأنهم تحت قبضته ، وخاضعون لسلطانه

فكانه سبحانه يقول : إن مرجعكم إلى ربكم ، فإذا لم يعقبكم فى هذه الحياة على ما تعملون مع أوليائه فلا تظنوا أن ذلك بهمال منه أو تقصير فى شأنهم ، بل آخر ذلك اليوم ترجعون إليه ، وهو اليوم الذى سيكون فيه البطش والانتقام منكم .

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال :

(١) (وهو الغفور) لمن يرجع إليه بالتوبة ، فيتجاوز عن سيئاته .

(٢) (الودود) لمن خلصت نفسه بالحبة له .

(٣) (ذو العرش) أى ذو الملك والعظمة ، والسلطان والقدرة النافذة ، والأمر

الذى لا يرد .

(٤) (الحيد) أى العظيم الكرم والفضل .

(٥) (فعل لما يريد) أى لا يريد شيئاً إلا فعله وفق إرادته ، فإذا أراد هلاك

الجاحدين المعاندين ونصر أهل الحق الصادقين لم يعجزه ذلك ، وأين هم ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم وأشد قوة ؟

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان ؛ والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم ، فرعون : هو طاغية مصر ، ثمود : قبيلة بائنة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا ، محيط : أى هم فى قبضته وحوزته كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك ، مجيد : أى شريف ، محفوظ : أى مصون من التحريف ، والتغيير والتبديل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أصحاب الأخدود وبين حالهم ، ووصف ما كان من إيذائهم للمؤمنين — أردف ذلك ببيان أن حال الكفار فى كل عصر ، وشأنهم مع كل نبيّ وشيعته جارٍ على هذا النهج ، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويعادونهم ، ولم يرسل الله نبيا إلا لاقى من قومه مثل ما لاقى هؤلاء من أقوامهم .

والغرض من هذا كله تسلية النبي وصحبه ، وشد عزائمهم على التدرّع بالصبر ، وأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الجنود : فرعون ، وثمود .

الإيضاح

(هل أتاك حديث الجنود) أى هل بلغك ما صدر من أولئك الجنود من التماذى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والتكال .

والمعنى — إنه قد أتاك خبرهم وعرفت ما فعلوا ، وما جازاهم ربهم به ، فذكر قومك بأيام الله ، وأنذرهم أنه سيصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم من أهل الضلال .
ثم بين من هم أولئك الجنود فقال :

(فرعون وثمود) وحديث هذين مشهور متعارف بينهم ، فقد كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع كريم الله موسى من العناد والإصرار على الكفر ، وما كان من عاقبة أمره وأن الله أغرقه في اليم هو وقومه ، وأذاقه الوبال في الآخرة والأولى .

كما كانوا يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام وأنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية ، فدمر بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية ، وهم يمرّون على ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم .

وخلاصة ذلك — إن الكفار في كل عصر متشابهون ، وأن حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل ، فهم في عنادهم واستكبارهم سواسية كأسنان المشط ، فقومك أيها الرسول ليسوا ببدع في الأمر ، فقد سبقتهم أمم قبلهم وحلّ بهم من النكال ما سيحل بقومك إن لم يؤمنوا ، « فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » .
وقد أشار إلى أن هذه شئسنتهم في كل عصر ومصر فقال :

(بل الذين كفروا في تكذيب) أي إن الكفار في كل عصر غارقون في شهوة التكذيب حتى لم يدع ذلك لعقلهم مجالاً للنظر ، ولا متسعاً للتدبر ، ولا يزالون في غمرة حتى يؤخذوا على غرّة .

ثم سلى رسوله من وجه آخر فقال :

(والله من ورائهم محيط) أي إنه سبحانه مقتدر عليهم وهم في قبضته لا يجدون مهرباً ، ولا يستطيعون الفرار ، إذا أرادوا .

فلا تجزع من تكذيبهم واستمرارهم على العناد ، فلن يفوتوني إذا أردت الانتقام منهم .

ثم رد على تماديهم في تكذيب القرآن وادعاءهم أنه أساطير الأولين فقال :
 (بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ) أي إن هذا الذي كذبوا به كتاب شريف
 متفرد في النظم والمعنى ، محفوظ من التحريف ، مصون من التغيير والتبديل .
 واللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله به ، وأنه أودعه كتابه ، ولكن لم يعرفنا
 حقيقته ، فعلمنا أن نؤمن به ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك ، لم يأت به خبر
 من المعصوم صلوات الله عليه وسلامه .

مقاصد هذه السورة

- (١) إظهار عظمة الله وجبيل صفاته .
- (٢) إنه يبید الأمم الطاغية في كل حين ، ولا سيما الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات .

سورة الطارق

هى مكية ، وآياتها سبع عشرة ، نزلت بعد سورة البلد .
مناسبتها لما قبلها :

- (١) أنه ابتداء هذه بالخلف بالسوء كاسورة قبلها .
(٢) أنه ذكر فى السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه
القول الفصل ، وفيه رد على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ؟ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)
بِ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) .

شرح المفردات

نسباء : كل ما علاك فأظلك ، الطارق : هو الذى يجيئك ليلا ، النجم الثاقب :
هو الذى يتقب ضوءه الظلام كأن الظلام جند أسود والنجم يشقبه ، حافظ : أى
رقيب يراقبها فى أطوار وجودها ، وهو الله تعالى .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه فى مستهل هذه السورة بالسوء ونجومها الثاقبة - إن النفوس لم تترك
سدى ولم ترسل مهمة ، بل قد تكفل بها من يحفظها ويحصى أعمالها وهو الله سبحانه ،
وفى هذا وعيد للكافرين وتسمية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فكأنه يقول
لهم : لا تحزنوا لإيذاء قومكم لكم ، ولا يضق صدوركم لأعمالهم ، ولا تظن أنا مهمهم
ونتركهم سدى ، بل سنجازيهم على أعمالهم بما يستحقون ، لأننا نحصى عليهم أعمالهم

ونحاسبهم عليها ، يوم يعرضون علينا « فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » والعَدُّ إنما يكون للحساب والجزاء .

الإيضاح

(والسما) أكثر في القرآن الحلف بالسما وبالشمس والقمر وبالليل ، لأن في أحوالها وأشكالها وسيرها ومطامعها ومغاريبها من عجائب وغرائب - دلائل لمن يتدبر ويفكر بأن لها خالقا مدبرا يقوم بشئونها ويحصى أمرها ، لا يشركه سواه في هذا الإبداع والصنع .

(والطارق) أى الكوكب البادى ليلا .

(وما أدراك ما الطارق ؟) يقولون : وما أدراك ما كذا أى وأى شئ يعلمك حقيقته ؟ ، وهو أسلوب من كلامهم يراد به التفخيم والتعظيم ، كأنه في نخامة أمره لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه .

ثم فسر هذا الطارق بقوله :

(النجم الثاقب) أى لا أقسم بكل طارق من الكواكب ، بل أقسم بطارق معين هو النجم المضى الذى يثقب الظلام وتهتدى به في ظلمات البر والبحر ، وتقف به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الإنسان في معاشه ، وهو الثريا عند جبهة العلماء ، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب لأن له ضوءا ثاقبا لا محالة .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إن كل نفس لما عليها حافظ) أى أحلف بالسما والنجم الثاقب إن للنفوس رقيبا يحفظها ويدبر شئونها في جميع أطوار وجودها حتى ينتهى أجلها ، وذلك الحافظ والرقيب هو ربها المدبر لشئونها ، المصروف لأموارها في معاشها ومعادها .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ
بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)
فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) .

شرح المفردات

دافق : أى منصبّ بدفع وسيلان وسرعة ، والصلب : الظهر ، والترائب :
عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وقال الحسن وروى
عن قتادة : يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما
وهو الموافق لما أثبتته العلم حديثاً كما سيأتى ، ورجعه : أى إعادته ، تبلى : أى تختبر
وتمتحن ؛ والمراد تظهر ، والسرائر : مايسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وما خفى من
الأعمال ، واحدها سريرة ، قال الأحوص :

سَدِيقُهَا فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحِشَا سريرةٌ وديّ يومَ تبلى السرائرُ

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الإنسان لم يترك سدى ، ولم يخلق عبثاً نهبه إلى الدليل
الواضح على صحة معاده ، وأنه لا بد أن يرجع إلى ربه ليجازيه على ما عمل ، فذكره
بنفسه ، ولفت نظره إلى كيفية خلقه ومنشئه ، وأنه خلق من الماء الدافق الذى
لا تصوير فيه ، ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء وغيرها ،
ثم أنشأه خلقاً كاملاً مملواً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بالخلافة
فى الأرض .

فالذى خلقه على هذه الأوضاع قادر أن يعيده إلى الحياة فى يوم تنكشف فيه
المستورات ، وتبين الخفايا ، فيكون إبداءها زيناً فى وجوه بعض الناس ، وشيناً

في وجوه بعض آخرين ، وليس للمرء حينئذ قوة يدفع بها عن نفسه ما يحل به من العذاب ، ولا ناصر يعينه على الخلاص من الآلام .

الإيضاح

(فليَنظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟) أى فليَنظُرْ بعقده ، وبميتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه ، وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد لم تَشْمَ رائحة الحياة قط فهو على إعادته أقدر فليعمل بما به يُسَرُّ حين الإعادة .

ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) أى خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لسلك من الرجل والمرأة ، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في رحم المرأة .

والخلاصة — إن الولد يتكوّن من منى مدفوق من الرجل ، فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى إلا بالآلة المعظمة (الميكروسكوب) ، ولا تزال تجرى حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة وهي البويضة ، ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكوّنتا جرثومة الجنين .

وقد استفتيت في نظرية الحمل وكيفية تكوين الجنين النطاسى البارع عبد الحميد العرابى بك وكيل مستشفى الملك سابقا ، فأجابنى حفظه الله بما يأتى :

كيفية حصول الحمل ونمو الجنين في الرحم

والله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » وقال أيضا : « وَنُفِثَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » .

اعلم أخى وقتك الله أن فى هاتين الآيتين وما شا كلهما من الآيات سرّاً من أسرار التنزيل ووجها من وجوه إعجازه ، إذ فيهما معرفة حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرناً .

بيان هذا : أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وتراثيه هي عظام صدره ، ويكاد معناها يقتصر على حافة الجدار الصدرى السفلى .

وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا فى منشأ خُصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التى حيرت الألباب ، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتى كل منهم من علم ، وإن كان بعيداً عن الفهم الصحيح والرأى السديد .

ذلك أنه فى الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين فى الرحم ينشأ فيه ما يسمى (جسم وولف وقناة) على كل جانب من جانبي العمود الفقري ، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى وبعض الجهاز البولى ، ومن جزء آخر تنشأ الخُصية فى الرجل والمبيض فى المرأة .

فكل من الخُصية والمبيض فى بدء تكوينا هما يحاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب ، أى ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع .

ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أن الخُصية والمبيض يعتمدان فى نموها على الشريان الذى يمدّها بالدم ، وهو يتفرع من الشريان الأورطى فى مكان يقابل مستوى الكلى الذى يقع بين الصلب والترائب ، ويعتمدان على الأعصاب التى تمتد كلا منهما وتتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدرى العاشر ، وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادى عشر ، وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها فى الجسم فيما بين الصلب والترائب .

فإذا كانت الخُصية والمبيض فى نشأتها وفى إمدادها بالدم الشرياني وفى ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا فى ذلك كله على مكان فى الجسم يقع بين الصلب

والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم ، وجاء به رب العالمين ، ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول ذلك الكتاب .

هذا ، وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف قهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصّفن ، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم .

وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه ، فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصّفن ، فتحتاج إلى عملية جراحية حتى تصل إلى وضعها في الموضع الطبيعي .

هذا ، والإنسان يبدأ أحياته جنيناً ، والجنين يتكوّن من تلقيح بويضة تخرج من المبيض مندقة نحو بوق الرحم بالحيوان المنوى الذي تفرزه خُصية الرجل ، ويكون التلقيح في الغالب في داخل أحد البوقين أو فيهما معا ، ثم تسير البويضة في طريقها إلى الرحم حتى تستقر في قرار مكنين إلى أجل مسمى .

هذا إذا صادفها أحد الحيوانات المنوية ، أما إذا أخطأها التلقيح فتكون ضمن الإفرازات الرحمية التي تطرد في خارج الجسم .

ومما يلاحظ أن إفراز البويضات عند المرأة هو عملية فسيولوجية شهرية لاعلاقة لها بالاجتماع الجنسي ، غير أن هذا الاجتماع ضرورى لعملية التلقيح بالحيوان المنوى الذى يسبح في ماء الرجل .

ومما سبق تعلم أن الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة ؛ أما ماء الرجل فيتكون من الحيوانات المنوية وسوائل أخرى تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات المنوية ، وهذه السوائل كلها جمعت مباءة ومستقرا للحيوان المنوى الذى بدونه لا يتم التلقيح .

وهكذا الحال في البويضات التي يفرزها مبيض المرأة ، فإنها بعد أن تكون في المبيض على شكل حويصلة صغيرة تسمى حويصلة (جراف) تنمو وتبلغ أشدها في نحو شهر حتى تقترب من المبيض ثم تنفجر كما تنفجر الفقاعة وتندفع منها البويضات مع السائل الذي خرج من الفقاعة إلى البوق حيث يقابلها حيوان منوى يقوم بعملية التلقيح — وكلا المائين ماء الرجل وماء المرأة دافق ، أى ينصبّ مندفعاً ، وهذا هو الحاصل فعلاً .

ومن هذا يتبين بوضوح أن الإنسان خلق ونشأ من الماء الدافق (ماء الرجل وأُمّ ما به الحيوان النوى ؛ وماء المرأة وأُمّ ما فيه البويضة) الذى ينصبّ مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض ، ومنشؤهما وغذاؤهما وأعصابهما كلها بين الصلب والترائب . وقد ثبت في علم الأجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير عتقة ذات خلايا عدّة ، ثم تصير العتقة مضغة ذات خلايا أكثر عدداً ، ثم تصير المضغة جنيناً صغيراً وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة في أول الأمر ، فإذا تمّ نموها كونت جسم الإنسان .

وإذا هدى الفكر إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان ، سهل أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث في اليوم الآخر ، لأن خلق الإنسان من أجزاء منتشرة متفرقة في الكون ؛ فالماء متولد من الأطعمة التي يتناولها الإنسان ، فجعلها الله ، ثم جمع الأبوين ، ثم جمع ماءهما في مكان واحد ، ثم خلق منه الولد ، وليس في إعادته مثل ذلك ، فهي أهون ، ومن ثم قال :

(إنه على رجه لقادر) أى إن الذى قدر على خلق الإنسان ابتداء من هذه المادة — قادر أن يردّه حياً بعد أن يموت .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وأصرح منهما قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ثم بين وقت الرجوع فقال :

(يوم تبلى السرائر) أى هو قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة فى اليوم الذى تنكشف فيه السرائر ، وتتضح الضمائر ، ويتميز الطيب من الخبيث ، فلا يبقى فى سريرة سرّ ، بل تنقلب كل خفية إلى الجهر ، ولا يكون جدال ولا حجاج ، ولا يبقى لذوى الأعمال إلا انتظار الجزاء على ما قدموا ، فإما حلول فى نعم ، وإما مصير إلى عذاب أليم .

(فما له من قوة ولا ناصر) أى فلا تكون لأحد قوة على الإفلات مما قدر له جزاء عمله إن كان مسيئاً ، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم أن يقع عليه .
والخلاصة — إن القوة التى بها يدافع الإنسان عن نفسه ، إما من ذاته وقد نفاها بقوله : « فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ » وإما من غيره وقد نفاها بقوله : « وَلَا نَاصِرٍ » .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْمِلْهُمْ رُويْدًا (١٧) .

شرح المفردات

الرجع : إعادة الشئ إلى حال أو مكان كان فيه أولاً ، والمراد به المطر ، وسمى بذلك لكونه يعاد إلى الأرض من السماء ، والصدع : الشق الناشئ من تفرق بعض أجزاء الأرض وانفصال بعضها من بعض بالنبات ، فصل : أى يفصل بين الحق والباطل ، ويقطع الجدل والمرء ، يكيّدون كيّداً : أى يعملون للمكايد فى إبطال أمره ، وإطفاء نوره ، وأكيد كيّداً : أى أقابلهم بكيدى فى إعلاء أمره ، وانتشار نوره ، رويداً : أى قريباً .

المعنى الجملى

بعد أن بين قدرته تعالى على إعادة الإنسان بعد الموت ، ولقت النظر إلى التدبر في برهان هذه القدرة — شرع يثبت صحة رسالة رسوله الكريم إلى الناس ، وصحة ما يأتينهم به من عند الله ، وأتم ذلك القرآن الكريم الذى كانوا يقولون عنه : إنه أساطير الأولين ، فأقسم بالسماء التى تفيض بأمثها ، والأرض التى تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنبأتها ، إنه أقول حق لا ريب فيه .

ثم بين أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التى هم عليها — قوم ما كرون لا يريدون بك إلا السوء ، وسيأتينهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فلا يحزنك ماترى منهم ، ولا تستبسط حلول النكال بهم ، بل أمهلهم قليلا وسترى ماسيحل بهم .

ولا يخفى ما فى هذا من وعيد شديد بأن ماسيصيبهم قريب ، سواء أكان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت ، ووعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل داع إلى الحق بأنهم سيبلغون من النجاح ما يستحقه عملهم ، وأن المناوئين لهم هم الخاسرون .

الإيضاح

(والسماء ذات الرجع) أى قسما بالسماء ذات المطر ، وهو أنفع شئ ينتظره الحاطبون من السماء ، إذ يبدل جذبهم خصباً ، ويعيد موات أرضهم حياً ، ويصير به لهمب صخراتهم هواء عليلًا .

(والأرض ذات الصدع) أى والأرض التى تتصدع بالنبات والشجر والثمار مما به حياتهم وحياة أنعامهم ، وهم فى بلاد قفراء جدباء .

ونظير هذا قوله : « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » الآية .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إنه أقول فصل . وما هو بالهزل) أى قسما بالسماء والأرض إن هذا القول الذى

جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول حق لا مجال للريب فيه ، وهو جِدٌّ لا هزل فيه ؛ فمن حقه أن يهتدى به الفؤاد ، وتخص له رقاب العتاة .

أخرج الترمذى والدارمى عن على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ فيه الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تلتقه الجن لما سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن هدى به هدى إلى صراط مستقيم .

ثم بين ما يدبرونه للمؤمنين وما تحويه صدورهم من غلٍ لهم فقال :

(إنهم يكيدون كيدا) أى إنهم يكررون بالنس بدعوتهم إلى مخالفة القرآن بإلقاء الشبهات كقولهم : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » . قولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » أو بالظن فيه بكون الرسول ساحرا أو مجنونا أو شاعرا ، أو بتبليغهم قتله ، كما جاء فى قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

بعدئذ ذكر ما قابلهم ربهم به وما جازاهم عليه كفاء عملهم فقال :

(وأكيد كيدا) أى وأقابل كيدهم بنصر الرسول وإعلاء دينه ، وجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقد سمى مجازاتهم كيدا منه ، للتجانس فى اللفظ كما قال : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » . وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحدنا علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ثم أمر رسوله أن يتأني عليهم ، ليرى أخذه تعالى لهم فقال :
 (فهل الكافرين) أى سر فى دعوتك ولا تستعجل عذابهم ، فإننا سنمهلهم
 ليزدادوا إثماً ، حتى إذا أخذناهم لم يبق لهم من راحم .
 ثم أكد طلب الإيمان وأقته بوقت قريب فقال :
 (أمهلهم رويداً) أى إنا سنمهلهم قليلاً ، وسترى ما يحل بهم من العذاب
 والنكال .

وفى هذا بعث للطمانينة إلى قلوب المؤمنين الذين كانوا يحشون صولة الكفار
 ويحذرون اعتداءاتهم التى لاحد لها ، وتخويف لهم من عاقبة إصرارهم على ما هم فيه
 من الكفر والمشاقة لله ورسوله وللمؤمنين .
 ونحو الآية قوله . « كُنْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُمُ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » .
 وصل ربنا على محمد وآله ، وقنا عذاب الجحيم .

مقاصد السورة

- (١) إن كل نفس عليها حافظ .
- (٢) إقامة الأدلة على أن الله قادر على بعث الخلق كرة أخرى .
- (٣) إن القرآن منزل من عند الله وأن محمداً رسول الله .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالانتظار حتى يحل العقاب بالكافرين .

سورة الأعلى

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة التكويد .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق
النبات بقوله : « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . وذكر هنا خلق الإنسان في قوله :
« خَلَقَ فَسَوَّى » . وخلق النبات في قوله : « أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى »
وقصة النبات هنا أوضح وببسط أكثر ، وخلق الإنسان هناك أكثر تفصيلاً .
أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير « أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى -
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ) وإن وافق يوم الجمعة قرأها جميعاً » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ
فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

شرح المفردات

التسبيح : التنزيه ، خلق : أى خلق الكائنات ، فسوى : أى فسواها ووضع
خلقها على نظام كامل ، لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، قدر : أى قدر لكل حى
ما يصلحه مدة بقائه ، هدى : أى هداه وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له ، والمرعى :
كل ما تخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع الختلفة ، والغثاء : ما يقذف به
السيل إلى جانب الوادى من الخشيش والنبات ، والأحوى : الذى يضرب لونه إلى
السواد . قال ذوالرمة :

لَمَيَّاهُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَنْبٌ

المعنى الجملى

أمر سبحانه رسوله أن ينزه اسمه عن كل ما لا يليق به ، واسم الله ما يعرف به ، والله إنما يعرف بصفاته من نحو كونه علماً قادراً حكماً ، وهذا الاسم هو الذى يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام ، وهو المراد بالوجه فى قوله : « وَيَبْسُقُ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وهو المذكور فى قوله : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » أى علمه رسوم الأشياء وما تعرف به .

فإنه يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أى تنزيهه عن أن نصفه بما لا يليق به من شبه الخبورات ، أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكاً أو ولداً له ، فلا تتجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق الكائنات وهو الذى أوجدها وسواها ، وأنه هو الذى أخرج المرعى ثم جعله جافاً حتى لعظه السيل بجانب الوادى .

الإيضاح

(سبىح اسم ربك الأعلى) أى نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولا تطلق اسمه على غيره زاعماً أنه يشاركه فى صفاته .

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى فقال :

(١) (الذى خلق فسوَّى) أى الذى خلق الكائنات جميعاً فسوى خلقها وجعلها منسقة محكمة ولم يأت بها متفاوتة غير ملتزمة ، دلالة على أنها صادرة عن عالم حكيم مدبّر أحسن تديرها ، فأحكم أسرها .

(٢) (والذى قدّر فهدى) أى الذى قدر كل واحد منها على ما يستحقه ، ويكون به استقرار شأنه ، فقدر السموات وما فيها من الكواكب ، وقدر الأرض وما فيها من المعادن ، وما يظهر على وجهها من النبات ، وما يعيش عليها من الحيوان .

ثم هدى كل دابة إلى استعمال ما يصلحها ، وما هو أَمْسٌ بِحاجتها ، بما خلق فيها من الميول والإلهامات ، لتحصيل ما لها من مقاصد وغايات .

(٣) (والذى أخرج المرعى) أى والذى أنبت النباتات جميعه ، لترعاه الدواب والنعم ، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحية .
(فجعله غشاءً أحوى) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشياً بالياً كالغشاء يميل لونه إلى السواد ، فهو القادر على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله ، لا الأصنام التى عبدها الكفرة الفجرة .

وقصارى ماسلف — إنا مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه القادر العالم الحكيم الذى شهدت بصفاته آثاره فى خلقه ، وألا ندخل فى هذه الصفات ما لا يليق به ، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء ، أو وصفوه بما به يشبه خلقه .

وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الامم دون تسبيح الذات ، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهدنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن نتوجه إليها عقولنا إلا بما نلاحظ من هذه الصفات بما يدل عليها .

سَنَقُورُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)
وَلَيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) .

شرح المفردات

سنقرئك : أى نجعلك قارئاً للقرآن ، فلا تنسى : أى فلا تنساه بل تحفظه ،
واليسرى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بتسبيح اسمه ، وعلم أمته المأمورة بأمر الله له ، كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذى تسبحه على نحو ما ذكرنا ، ولا يكفل ذلك إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، فكان هذا مدعاة إلى شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على حفظه ، ومن ثم وعده بأنه سيقرئه من كتابه ما فيه تنزيهه ، وتبيين ما أوجب أن يعرف من صفاته ، وأحكام شرائعه ، كما وعده بأن ما يقربه إياه لا ينساه .

الإيضاح

(سنقرئك فلا تنسى) أى سننزل عليك كتابا تقرؤه ، ولا تنسى منه شيئا بعد نزوله عليك .

وقد كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن ينساه ، فوعد بأنه لا ينساه .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » وقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » .

وخلاصة ذلك — إنا سنشرح صدرك ، ونقوى ذاكرتك ، حتى تحفظه بسماعة مرة واحدة ، ثم لا تنساه بعدها أبدا .

ولما كان هذا الوعد على سبيل التأييد يوم أن قدرته تعالى لاتسع تغييره جاء بالاستثناء فقال :

(إلا ما شاء الله) أى فإن أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك .

قال الفرّاء : إنه ما شاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا ، إلا أن القصد من هذا الاستثناء بيان أنه لو أراد أن يصيره ناسيا لقدر على ذلك كما جاء فى قوله : « وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » .

وإنا لنقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك .

وقصارى هذا — إن فائدة هذا الاستثناء بيان أنه تعالى قادر على أن يفسيه ، وأن عدم النسيان فضل من الله وإحسان لامن قوته .

ثم أكد هذا الوعد مع الاستثناء فقال :

(إنه يعلم الجهر وما يخفى) أى إن الذى وعدك بأنه سيقربك ، وأنه سيجعلك حافظا لما تقرأ فلا تنساه — عالم بالجهر والسر ، فلا يفوته شيء مما فى نفسك ، وهو مالك قلبك وعقلك ، وخافى سررك وجهرك ، ففى مقدوره أن يحفظ عليك ما وهبك وإن كان من خفيات روحك ، ولو شاء لسببه ولن تستطيع دفعه ، لأنه ليس فى قدرتك أن تخفى عنه شيئا .

ولما كان فى الوعد بالإفراء الوعد بتشريع الأحكام ، وفيها ما يصعب على المخاطبين احتماله — أردف ذلك الوعد بما يزيده حلاوة فى النفوس فقال :

(ونيسرك لليسرى) أى ونوفقتك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ورحم الله البوصيرى حيث يقول :

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْنَى الْعَقُولُ بِهِ حَرَصًا عَلَيْنَا فَلَمْ تَرْتَبْ وَلَمْ نَهْمِ

وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل ، وليس الفعل هو الميسر للإنسان ، من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة ، والإرادة النافذة لا يجاده ، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التى توصل إليه ، كما جاء فى الحديث : « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » .

فَذَكِّرْهُ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَمِّدْ كَرْمَ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبْهَا

الْأَشَقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا

وَلَا يَحْيَا (١٣)

شرح المفردات

التذكر: أن يتنبه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه ، ومن يخشى الله صنفان : مدعن معترف بالله وبيعه للعباد للثواب والمعقاب ، ومتردد في ذلك ، الأشقى : هو المماند المصّر على الجحد والإنكار ، المتمكن من نفسه الكفر ، يصلى النار أى يذوق حرها ، والنار الكبرى هى أسفل دركات الجحيم ، لا يموت أى فيستريح ، ولا يحيا أى حياة طيبة فيسعد كما أشار إلى ذلك شاعرهم فقال :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عنها ولا تحيا حياة لها طعم

المعنى الجملى

بعد أن وعد سبحانه رسوله بذلك الفضل العظيم وهو حفظ القرآن وعدم نسيانه — أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم — وتذبيهم من غفلاتهم ، وتوجيههم إلى ما فيه الخير لهم ، وبين أن الذكرى لا تنجع إلا في القلوب الخاشعة التى تخشى الله وتخاف عقابه : أما القلوب الجاحدة المعاندة فلا تجدى فيها الذكرى شيئاً ، فهوّن على نفسك ، ولا يحزّنك جحدهم وعنادهم كما أشار إلى ذلك في آية أخرى فقال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم ذكر أن أولئك الجاحدة العصاة يكونون في قعر جهنم لاهم يموتون ولا يسعدون بحياة طيبة .

الإيضاح

(فذكر إن نفعت الذكرى) أى فذكر الناس بما أوحينا به إليك ، واهدم إلى ما فيه من بيان الأحكام الدينية ، فإن أصرّ المعاندون على عنادهم ولم يزدحم

وعظك إلتاماديا في الجحود والإنكار « فَلَا تَذْهَبْ أَنْفُسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »
حرصا على إيمانهم ، وحرنا على بقائهم على كفرهم ، وادعُ من تعلم أنه يجيبك
ولا يجيبك ولا يؤذك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(سيد كر من يخشى) أى إنما يذتفع بتذكيرك من يخشى الله ويخاف عقابه ،
لأنه هو الذى يتأمل فى كل ماتذكره له ، فيقبين له وجه الصواب ، ويظهر له سبيل
الحق الذى يجب المعمول عليه .

وفى التعبير بقوله (سيد كر) إيماء إلى أن ماجاء به الرسول بنغ حداً من
الوضوح لا يحتاج معه إلا إلى التذكير فحسبُ ، وإنما الذى يحول بينهم وبين
اتباعه واقتفاء آثاره — تقليد الآباء والأجداد فكأنهم عرفوه واستيقنوا صحته ، ثم
زال هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آبائهم من قبل :

ثم أشار إلى عدم جدواها بالنظر للمعاندين الجاحدين فقال :
(و يتجنّبها الأشقى . الذى بصلى النار الكبرى) أى ويتعد عن هذه التذكرة
المعاندين المصّر على الجحود عنادا واستكبارا ، وهو الذى يذوق حر النار الكبرى
فى دركات جهنم كما قال : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » إذ
لا يليق بحكمة الحكيم المتعالى أن يسوى بين من اجترأ عليه وتهاون بأمره وارتكب
أشنع الذنوب ، ومن كان نقيّ الصحيفة ميمون النقيبة ، مطيعا لأمره ، مؤديا
فرائضه ، منتهيا عن الفحشاء والمنكر .

وقصارى ماسلف — إن الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم
أقسام ثلاثة :

(١) عارف صحتها ، موقن بصدقها ، لا يدور بخلدّه تردّد ولا شكّ ، وهذا
هو المؤمن الكامل الذى يخشى ربه .

(٢) متردد متوقف إلى أن يقوم لديه البرهان ، فإذا هو سمنح له بادر إلى
التصديق بها ، وهذا أدنى من سابقه .

(٣) شقيّ معاند لا يلين قلبه للذكرى ، ولا تنال الدعوة من نفسه قبولا ، وهو شر الأقسام الثلاثة ، وأبعدها من الخير .

ثم بين عاقبة هذا الأشتى ومآل أمره فقال :

(ثم لا يموت فيها ولا يحيا) أى ومن شقى هذا الشقاء ، ولقى هذا العذاب بتلك النار - يخلد فيها ، ولا يقف عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية ، فلا هو يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة فيسعد بها .

ونحو الآية قوله : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .
والعرب تقول لمن هو مبتلى بمرض يقعده : لاهو حتى فيرجى ، ولا ميت فينسى .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَتَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) .

شرح المفردات

أفْلَحَ : أى فاز ونجا من العقاب ، وتزكى : أى تطهر من دنس الرذائل ؛ ورأسها جحد الحق وقسوة القلب ، وذكر اسم ربه : أى ذكر فى قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال ، فصلّى : أى فحش وخضعت نفسه لأوامر بارئه ، تؤثرون : أى تفضلون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر فى الدلائل التى تدل على وجود الله ووحدانيته وإرسال الرسل وعلى البعث والحساب - أتبعه بالوعد لمن زكى نفسه

وطهرها من أدران الشرك والتقليد للكباء والأجداد - بالفوز بالفلاح والظفر بالسعادة في دنياه وآخرته .

ثم ذكر أن من طبيعة النفوس حب العاجية ، وتفضيلها على الآجلة ، ولو فكروا قليلا لاستبان لهم أن الخير كل الخير في تفضيل الآنية على الأولى ؛
ثم أرشد إلى أن أسس الدعوة الدينية في كل الأديان واحدة ، فما في القرآن هو ما في صحف إبراهيم وموسى .

الإيضاح

(قد أفلح من تزي) أى قد أدرك الفلاح ، وظفر بالبُعْية من طهر نفسه ونقاها من أوضار السكر ، وأزال عنها أدران الشرك والآثام .

ومن هذا تعلم أن تركية النفس إنما تكون بالإيمان بالله ونفى الشركاء ، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم مع صالح العمل .

(وذكر اسم ربه صلى) أى وأحضر في قلبه صفات ربه من الجلال والكمال فخفض لجبروته وقهره ، فإن المرء متى تذكر ربه العظيم وجل قلبه ، وخاف من سطوته وامتلأت نفسه خشية منه ، ورهبة لجلاله كما قال في آية أخرى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » .

ثم رد سبحانه على قوم ممن قست قلوبهم ، ولم يأخذوا من العبادات إلا بصورها وظنوا أن ذلك هو غاية ما يطالب الله عباده بقوله :

(بل تؤثرن الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى) أى أتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حسن العمل ، لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه لكنتم تفضلون الآخرة على الدنيا ، كما يرشد إلى ذلك العقل ، ويهdy إليه الشرع ؛ فتتاع الآخرة دائماً ونعيمها لا يزول ، ولا تنغيص فيه ولا منة ، ومتاع الدنيا متاع زائل تشوبه الأكدار ، وتحوط به الآلام ؛ فمن استعجل هذا النعيم ، واستحب زينة الدنيا

لا يكون مصدقا بالآخرة ونعيمها ، أو يكون إيمانه إيمانا لا يجاوز طرف لسانه ، ولا يصل إلى قلبه ، فلا يجازى عليه الجزاء الذى وُعد به المؤمنون .

ثم بين أن الأصول العامة التى جاءت فى هذه الشريعة هى بعينها التى جاءت فى جميع الشرائع السماوية فقال :

(إن هذا فى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) أى إن ما أوحى به إلى نبيه من أمر ونهى ووعد ووعيد هو بعينه ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، فدين الله واحد ، وإنما تختلف صورته ، وتتعدد مظاهره ، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو موسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت إلا بما جاء فى صحفهم ، وإنما هو مذكر أو محى لما مات من شرائعهم .

ومحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَكَنَزِيرٌ لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » وقوله جل شأنه : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » .

وقصارى ذلك — أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعيا إلى وجهها الصحيح الذى أفسده كثر الغداة ومر العشى ، كما طمس معالمه اتباع الأهواء ، واقتفاء سنن الآباء والأجداد .

اللهم وفقنا لسلوك دينك الحق ، واهدنا إلى صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

سورة الغاشية

هي مكية ، وآياتها ست وعشرون ، نزلت بعد سورة الذاريات .
ومناسبتها لما قبلها - أنه أشير في السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار
إجمالا ، وبسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ
نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ
إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) .

شرح المفردات

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها ، خاشعة :
أى ذليلة : عاملة : أى وقع منها عمل فى الدنيا ، ناصبة : أى تعب من قولهم نصب
فلان بالكسر : أى تعب ، تصلى من قولهم صلى النار (بالكسر) أى قامى حرها ،
حامية : أى متناهية فى الحر من قولهم حميت النار إذا اشتد حرها ، والعين : ينبوع
الماء ، والآنية الشديدة الحر ، والضريع : شجر ذو شوك لا يثبط بالأرض ، فإذا كان
رطباً سمي بالشبرق ، قال أبو ذؤيب الهذلى :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وصار ضريعاً بان عنه النحائص

الإيضاح

(هل أتاك حديث الغاشية) أى هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه ،
وإننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه ، وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التي من حقها أن تتناقلها الرواة ، ويحفظها الوعاة .

ثم فصل شأن أهل الموقف في ذلك اليوم ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة النجرة . وفريق المؤمنين البررة ، وقد أشار إلى الأولين بقوله :

(١) (وجوه يومئذ خاشعة) أى وجوه يومئذ يظهر عليها الخزي والهوان مما ترى وتشاهد من الهول .

ومحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُرْسَلُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وقوله : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلَالِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » .

والخشوع والدل وإن كان في الحقيقة لأرباب الوجوه ، نسب إلى الوجوه لما كان أثره يظهر عليها .

ثم وصف الوجوه بصفات أخرى فقال :

(عملة ناصبة) أى إن هؤلاء الكفار كانوا في حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون في أعمالهم ، لكن لم يتقبلها ربهم ، لأنهم لم يقدموا عليها الإيمان بالله ورسوله ، وهو الدعامة الأولى في قبول العمل عنده ، ولأنهم لم يقصدوا بها وجهه تعالى ، ولأنهم كانوا يجتهدون في مشاققة الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا .

والخلاصة — إن هؤلاء الكفار وقع منهم في الدنيا عمل ، وأصابهم فيه تعب ونصب ، لكنهم لم يستفيدوا منه شيئا ، فأثار الخيبة وحبط العمل بادية على وجوههم .

ثم ذكر جزاءها في هذا اليوم فقال :

(تصلى نارا حامية) أى هذه الوجوه تقاسى حر النار وتعذب بها ، لأن أعمالها

في الدنيا كانت خاسرة ، غلبها الشر ، وجانبها الخير ، وهذه النار الحامية لانعرف
كنها ، ولكن علينا أن نؤمن بها ، وبأن حلفاء الباطل يصلونها .

(تسقى من عين آنية) أى إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا
ما يطفى غلَّتْهم ، جىء لهم بماء من ينبوع ينبع من الحرارة غايتها ، فهو لا يطفى لها ،
ولا ينقع غلَّة .

وبعد أن ذكر شرايهم أردفه بوصف طعامهم فقال :

(ليس لهم طعام إلا من ضريع) أى إنهم إذا أحسوا بالجوع وطلبوا الطعام
أتى لهم بالضريع وهو ذلك المرعى السوء الذى لاتعقد عليه السائمة شحاً ولا لحماً ،
وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها ، والمراد بهذا كله أنه يؤتى لهم بردىء الطعام .
ثم وصف هذا الضريع بأنه لا يحدى ولا يفيد فقال :

(لا يسمن ولا يفتى من جوع) أى إن هذا الطعام لا يدفع جوعاً ، ولا يفيد
سمناً ، فليس له فائدة الطعام التى لأجلها يؤكل في الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام
بالضريع تشبيهاً له به ، وإلا فذلك العالم ليس فيه نمو أبدان ولا تحلل مواد على النحو
الذى يكون في الدنيا ، بل هو عالم خلود وبقاء ، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام
آلام شقاء ، فكل ما في ذلك العالم إنما يقع بينه وبين ما في عالمنا نوع مشابهة ،
لا اتفاق ولا مجانسة .

وقد جاء في سورة الحاقة في طعام الكافرين : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ »
وفي سورة الواقعة : « مُّمَّ إِنَّكُمْ أَهْلُ الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ
مِنْ زَقُومٍ » وفي سورة الدخان : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ » .

فهذا كله يدل على أن طعام النار شئ يوافق النشأة الآخرة ، عبر عنه بعبارات
مختلفة ، ليصور في أذهاننا بشاعته وخبثه ، لتنفّر منه نفوسنا ، وتطلب كل وسيلة
للفرار منه ، فتبتعد عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الخاسرة .

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣)
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَّائِي مَمْثُوتَةٌ (١٦)

شرح المفردات

ناعمة : أى ذات بهجة وحسن ، عالية : أى فى المكان ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، واللاغية : اللغو والكذب والبهتان ، عين جارية : أى ينبوع ماء جار ، والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض ، والأكواب : واحدها كوب وهو ما لا عروة له من الكيزان ، موضوعة : أى معدة ومهيأة للشراب ، والنمارق : واحدها نمرقة (بضم النون وكسر ها) وهى الوسادة قال :

كهولٌ وشُبَّانٌ حِسانٌ وجوهمٌ على سُرُرٍ مصفوفةٍ ونمارقٍ
والزرابي : واحدها زربى (بكسر الزاى) وزربية وهو البساط ؛ وأصل الزرابى أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة ، ويقال أزرب النبات إذا صار كذلك ، سموأبها البسط لشبهها به ، وممثلة : أى مفرقة فى المجالس بحيث يرى فى كل مجلس شئ منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء .

الإيضاح

بعد أن وفى الكفرة الفجرة حقهم من الوصف - وصف أهل الإخلاص والصدق ، لتقر أعينهم بما سيلقون من فضله فقال :

(وجوه يومئذ ناعمة) أى ووجوه يومئذ ذات نضرة وبهجة كما قال : « تعرّف

فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ» ولا تكون كذلك إلا إذا كانت منعمة فرحة بما لاقت جزاء نعيمها في الدنيا ورضى الله عنها ومن ثم قال :

(لنعيمها راضية) أى إنهم جميعا يسعون في العمل لله حين رأوا ثمرته وعاقبته الحسنى ، كالرجل يعمل العمل فيجزي عليه الجليل ، ويظهر له منه عاقبة حميدة ، فيقول ما أحسن ما عملت ، ولقد وفقت إلى الصواب فيما فعلت .

وبعد أن وصف أهل الثواب وصف ديارهم بسبعة أوصاف فقال :

(١) (فى جنّة عالية) أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض .

وقد يكون المراد منه العلوّ فى الدرجة ، لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض ؛ فالنعيم الذى يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أعلى منزلة وأرفع قدرا مما يتمتع به الذين اتبعوهم بإحسان .

(ب) (لا تسمع فيها لاغية) أى إنها منزهة عن اللغو ، إذ أنها منزل جيران الله وأحبائه ، وقد نالوها بالجد والعمل لا باللغو ، ومنازل أهل الشرف فى الدنيا تكون مبرأة من اللغو والكذب والبهتان ، فكيف بأرفع المجالس فى جوار رب العالمين ، ومالك قلوب الخلق أجمعين .

(ح) (فيها عين جارية) أى فى تلك الجنة ينبوع ماء جار ، والمياه الجارية من ينباع تكون صافية ، وفى منظرها مسرة للنفوس ، وقرّة للعيون ، وقد افتخر بمثلها فرعون فقال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِثْرَ هَذِهِ الْأَنْهَارِ تُجْرِي مِنْ تَحْتِي » .

(د) (فيها سرر مرفوعة) أى مرفوعة عالية إذا جلس عليها المؤمن رأى جميع ما أعطاه الله من النعيم ورأى من فى الجنة وفى ذلك من التشريف والتكريم ما لا يخفى فيه .

(هـ) (وأكواب موضوعة) على حافات العيون كما أرادوا الشرب وجدوها .
 (و) (ونمارق مصفوفة) أى ووسائد مصفوف بعضها إلى جوانب بعض ،
 فإن شاءوا جلسوا عليها ، وإن أرادوا استندوا إليها ، وإن أحبوا أن يجلسوا على
 بعضها ويستندوا إلى بعض فعملوا .

(ز) (وزرابى مبثوثة) أى وبسط مبسوطة فى المجالس ، بحيث يرى فى كل
 مجلس من مجالسهم منها شىء ، كما يرى فى بيوت المترفين وذوى الثراء فى الدنيا .

وقد ذكر سبحانه كل ماسلف تصويرا لترف أهل الجنة تصويرا يقربه من
 عقولهم ، ويستطيعون به إدراكه وفهمه ، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر
 ويعلو فوق متناول الإدراك ؛ فالأشياء التى عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التى
 فى هذه الحياة بأسمائها ، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها ، كما أثر عن
 ابن عباس أنه قال : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
 رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
 سُطِحَتْ (٢٠) .

شرح المفردات

الإبل : واحدها بعير ولا واحد لها من لفظها كنساء وقوم ، ورفع السماء :
 إمساك ما فوقنا من شمس وأقمار ونجوم ، ونصب الجبال : إقامتها أعلاما
 للساكنين ، وملجأ للحائرين ، وسطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها
 والشىء فى مناكبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مجيء يوم القيامة ، وبين أن الناس حينئذ صنفان أشقياء وسعداء ؛ وأن الأشقياء يكونون في غاية الذل والهوان ، وأن السعداء يكونون يومئذ مستبشرين بادية على وجوههم علام السرة — أعقب هذا بإقامة الحجة على الجاحدين المنكرين لذلك ، وتوجيه أنظارهم إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت أبصارهم من سماء تُظِلُّ ، وأرض تَقِلُّ ، وإبل ينتفعون بها في حِلِّهم وترحالهم ، ويأكلون من لحومها وألبانها ويلبسون من أوبرها ؛ وجبال تهديهم في تلك القياقي والقفار .

أخرج عبد بن حميد في آخرين عن قتادة قال : لما نعت الله تعالى ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة ، فأُنزل الله تعالى هذه الآيات .

الإيضاح

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) أى أينكر هؤلاء المشركون ما ذكرنا من أمر البعث وما يتصل به من سعادة وشقاء ، ويستبعدون وقوعه ، ولا يتدبرون في الإبل التى هى نُصَبُ أعينهم ، ويستعملونها في كل حين ؟ ولو أنهم تدبروا في خلقها لرأوا خلقاً بديعاً لا يشاكل خلق أكثر الحيوان ، فلها من عظم الجثة ، وشدة القوة ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش ما لا يشاركها فيه حيوان آخر — إلى أنها تحتمل المشاق ، وتنهض بالأوفار ، وتقطع شاسع المسافات ، حتى لقبوها : سفينة الصحراء . قال شاعرهم :

ما فَرَّقَ الأُلَا فَبَعَدَ الله إلا الإبلُ

وما غَرَابُ البَيْسِن إلا ناقةٌ أو جمل

إلى أنها تنقاد للصغير والكبير وتحمل أذاهما . قال العباس بن مرداس :

وتضر به الوليدة بالهرأوى فلا غَيْرَ لديه ولا نكير

وتكتفى فى المرعى بما تيسر لها من الشوك والشجر ، إلى أنها أعجب ما عندهم
وهم واقفون على أحوالها ، عالمون بطباعها .

وجاء الكلام بطريق الاستفهام ، إنكاراً عليهم ، وتوبيخاً لهم على جحد
أمر البعث .

(وإلى السماء كيف رفعت) أى ألا يشاهدون السماء وقد رفعت رفعا سحيق
المدى بغير عمد ؟ .

(وإلى الجبال كيف نصبت) أى وإلى الجبال كيف وضعت وضعا ثابتا
لامتدّان فيه ولا اضطراب ، فيتسنى ارتقاؤها فى كل حين ، وتجعل أمانة
للسالكين فى تلك الغيايى والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها فى سقى النبات ،
ورىّ الحيوان .

(وإلى الأرض كيف سطحت) ومهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها ،
واتفاعم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن .

وقصارى ماسلف — إنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه
أنظارهم من هذه الأشياء وفكروا فيها ، لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم ،
ولا تحفظ إلا بحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه المخلوقات وسواها ،
وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة — قادر على أن يرجع الناس فى يوم يوفى فيه
كل عامل جزاء عمله ، وأن ينشئ النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها ،
فلا ينبغي أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيام سببا فى جحده وإنكاره .

وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر ، لأن الناظر منهم يفكر فى أقرب الأشياء
إليه ، فهو يرى بعينه الذى يمتطيه ، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأى السماء ، ثم إذا
التفت يمينه أو يسره رأى ماحواله من الجبال ؛ فإذا مدّ ناظره أمامه أو تحته رأى
الأرض ، فالعربى يرى ذلك كل يوم ، ومن ثمّ أمره الله بالتدبر فيها .

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ
تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

شرح المفردات

فذكر : أى عظ قومك وابعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ،
بمسيطر : أى بمسلط يجبرهم على ما تريد ، إياهم : أى رجوعهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دليل قدرته تعالى على بعث الأجساد ، ولقت أنظار
الجاحدين إلى مظاهر قهره وغلبته لهذا العالم ، ثم وبخهم على إنكارهم وتماديهم
فى باطلهم ، على وضوح الحجة وظهور البرهان، أردف ذلك أمره صلى الله عليه وسلم
أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهاها مما لا يبقى معه مجال للشك والتردد .

الإيضاح

(فذكر) بآياتى ، وعظهم بحججى ، وبلغهم رسالاتى ، وحذرهم أن يتركوا
ذلك : ثم بعدئذ لاتذهب نفسك عليهم حسرات إن لم يؤمنوا .
ثم علل الأمر بالتذكير فقال :

(إنما أنت مذكر) أى إنما بعثت للتذكير فحسب ؛ وليس من الواجب عليك
أن يؤمنوا ؛ فما عليك إلا التبشير والتحذير ، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه
الفطرة ؛ وإن أعرضوا فقد تحكمت فيهم الغفلات ، وتغلبت عليهم الشهوات ؛
واستولت على عقولهم الأهواء والجهالات .

ثم أكد الإنذار وقرره بقوله :

(لست عليهم بمسيطر) أى لست عليهم بمسلط تجبرهم على ما تريد ، وتمتعدهم أحوالهم ، وتكتب أعمالهم ، فلم تُؤتَ قوة الإكراه على الإيمان ، والإجاء إلى ما تدعوهم إليه كما قال : « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » وقال : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

(إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر) أى إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على مافى نفوسهم ، فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم ؛ فمن تول منهم وأعرض عن الذكرى ، وجحد الحق المعروف عليه ؛ فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ؛ وقد يصم إلى ذلك عذاباً فى الدنيا من قتل أوسى الذرية أو غنيمة للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم . ثم أكد تعذيب الله لمن تولى وكفر فقال :

(إن إلینا إیابهم . ثم إن علينا حسابهم) أى لأمفرّ المعرضین ، ولا خلاص لهم من الویل الذى أوعدوا به ؛ فینهم راجعون إلینا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما کسبت أیدیهم .

وفى هذا تسلية لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذيبهم إياه ، وإصرارهم على معاندته . وصلى الله على محمد وآله البررة الکرام .

مقاصد هذه السورة

تضمنت هذه السورة ثلاثة مقاصد :

- (١) وصف أهل الجنة ووصف أهل النار .
- (٢) ذكر عجائب الصنعة الإلهية .
- (٣) أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتذكير بما أرسل إليه من الشرائع .

سورة الفجر

هى مكية ، وآياتها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الليل .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذكر فى تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وذكر فى هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .

(٢) أن القسم الذى فى أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) .

الإيضاح

(والفجر) الفجر هو الوقت الذى ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع كإنتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق ، وهو كقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » وقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » .

(وليالٍ عشر) هى عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، فىكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتى يسطع النهار ، ولا يزال الضوء منتشرا إلى الليل الذى بعده .

وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الليل
يقالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبته ، وهذه الليالى العشر غير متمينة
فى كل شهر ، فإن ضوء الهلال قد يظهر حتى تغلبه الظلمة فى أول ليلة من الشهر ،
وقد يكون ضئيلا يغيب ضوءه فى الشفق فلا يعد شيئا .

والخلاصة — إن الليالى العشر تارة تبتدى من أول ليلة ، وأخرى من
الليلة الثانية .

(والشفع والوتر) أى الزوج والفرد من هذه الليالى ؛ فهو سبحانه أقسم بالليالى
جملة ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد .

وبعد أن أقسم بضروب من الضياء أقسم بالليل مرادا منه الظلمة فقال :

(والليل إذا يسر) أى والليل إذا يمضى ويذهب ، وهو كقوله : « وَاللَّيْلِ
إِذَا أَذْبَرَ » وقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » .

ونعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرها بحسب
الأزمنة والفصول — مما لا يجحدها إلا مكابر ، لاجرم أقسم ربنا بهما تنبيها إلى أن
تتابعهما بتدبير مدبر حكيم ، عالم بما فى ذلك من المصلحة لعباده .

أنظر إلى ما فى إقبال الصباح من عيم النفع ، فإنك لترى أنه يفرج كربة الليل
وينبه إلى استقبال العمل ، وكذلك تدرك ما فى الليالى المقمرة من فائدة ، فهى
تستميل النفس إلى الفئلة ، وتيسر للناس النجعة ، وبخاصة فى أيام الحر الشديد
فى بلاد كبلاد العرب .

وكذا نعرف ما فى الظلام من منفعة ، فإن فيه تهدأ النفوس ، وتسكن الخواطر
وتستقر الجنوب فى مضاجعها ، لتستريح من عناء العمل ، وتستعين بالنوم على إعادة

القوى ، وتخفى الناس من مطاردة اللصوص ، والله در المثني حيث يقول :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تُخبر أن المانوية تكذب

ثم قرر نخامة الأشياء التي أقسم بها قبلُ ، وكونها أهلا لأن تعظم فقال :
 (هل في ذلك قسم لذي حجر) الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) العقل ،
 ويقولون : فلان ذو حجر إذا كان قاهرا لنفسه ، ضابطا لها ، مضيقا عليها .
 والمراد أن من كان ذا لب وعقل يفطن إلى أن في القسم بهذه الخلوقات المشتعلة
 على باهر الحكمة ، وعجيب الصنعة ، الدالة على وحدانية صانعها - مقنعا أيما مقنع ،
 وكفاية أعظم كفاية .

وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه وتقريره ، كما تقول لمن
 يحاجك في أمر ثم تقيم له الحجة الناصعة التي تثبت ما تدعى : هل فيما ذكرت لك
 كفاية ، ومرادك أني قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها ، فليست تستطيع جحد
 ما قلت بعد هذا .

وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله بعد : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
 بِعَادٍ » الآية ، ويقدر بنحو قوله إن ناصية المكذبين بيدي ، ولئن أهملتهم فلن
 أهملهم ، ولأخذنهم أخذ الأمم قبلهم ، وقد ترك لتسترسل نفس القارئ في تأمل
 ما مضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما ، فيتمكن المعنى لديه فضل تمكن .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
 مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ
 ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢)
 فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٣٢) .

شرح المفردات

عاد : جيل من العرب البائدة يقولون إنه من ولد عوص بن إرم بن سام بن
 نوح عليه السلام ، ويلقب أيضا بإرم ، وذات العماد : أي سكان الخيام ، وكانت
 منازلهم بالرمال والأحفاف إلى حضرموت .

وتمود : قبيلة من العرب البائدة كذلك وهى من ولد كاتر بن إرم بن سام ،
ومنازلهم بالحجر بين الشام والحجاز ، جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه ، بالواد :
أى الوادى الذى كانوا يسكنون فيه ، وفرعون : هو حاكم مصر الذى كان فى عهد
موسى عليه السلام ، والآوتاد : المباني العظيمة الثابتة ، والطغيان : تجاوز القدر
فى الظلم والعتو ، وصب : أى أفرغ وألقى ، وسوط عذاب : أى أنواعا من العقوبات
التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم . والمرصاد : هو المكان الذى يقوم فيه الرصد ،
والرصد من يرصد الأمور : أى يترقبها ليقف على ما فيها من الخير والشر ، ويطلق
أيضا على الحارس الذى يحرس ما يخشى عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على مخالفة
أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله وتلجوا
فى طغيانهم فأوقع بهم شديد العذاب وأخذهم أخذ العزيز الجبار ، ليكون فى ذلك
زجر لهؤلاء المكذبين ، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه ، وتطمين
لقلوبهم بأن أعداءهم سيلقون ما يستحقون من الجزاء .

الإيضاح

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العباد . التي لم يخلق مثلها فى البلاد ؟) أى
ألم تعلم أيها الإنسان ، كيف أهلك ربك عادا الأولى الذين كانوا أشد الناس أجساما
وأطولهم قامة ، وأرفعهم مكانة ، والذين لم يخلق فى البلاد كلها مدينة كمدنتهم .
(وتمود الذين جابوا الصخر بالواد) أى وتمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه
وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال فى آية أخرى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
يُؤْتُونَ فَارِهِنَّ » .

وفي هذا دليل على ما أنعم الله به عليهم من القوة والعقل وحسن التدبير .

(وفرعون ذى الأوتاد) أى وفرعون ذى المباني العظيمة التى شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر فى قديم الأزمان كالأهرام وغيرها .

وما أجل التعبير عما تركه المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإن شكل هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدئ البناء عريضا وينتهى بأدق مما بدأ .

ثم وصف من سبق ذكرهم بأقبح الأوصاف فقال :

(الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد) أى هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم فى هضم حقوق الناس ، واغتروا بعظيم قدرتهم ، فكانوا سببا فى إفساد البلاد .

ذاك أن من اغتر بنفسه ، وتهاون بحقوق غيره واعتدى عليها ، وأخذ ما ليس له ، ولم يعط الذى عليه - يكون قد فكك شمل الجماعة وأفسد فى البلاد ، فيختل نظام العمران ، ويقف دولا ب التعامل ، ويوجس كل امرئ خيفة من بنى جلدته ، ولا شك أن أما هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار ، ومن ثم ذكر عاقبة أمرها فقال :

(فصب عليهم ربك سوط عذاب) أى فأنزل الله تعالى بهم ألوانا من البلاء ، وشديد العذاب .

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب ، وما صبّه عليهم من ضروب الهلاك - بالسوط ، من قبل أن السوط يضرب به فى العقوبات ، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط فى أوامر دينه . ثم ذكر العلة فى تعذيبه لهم فقال :

(إن ربك لبالمرصاد) أى إن شأن ربك ألا يفوته من شئون عباده نعيم

ولا قطمير ، ولا يهمل أمة تعدّت في أعمالها حدود شرائعه القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرّط فيما رُصد له .

وقد أجل الله في هذه الآيات ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله في غير موضع من كتابه الكريم ، فقال في سورة الحاقة : « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَمْهُمُ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » وقال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَسِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً » .

والحكمة في تكرار القصص في القرآن الكريم ، وفي ذكر بعضها على طريق الإشارة في بعض المواضع ، وباتنصيل في بعض آخر - أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة على قدرته تعالى ، وتوحده في ملكه ، وقهره لعباده حيناً ، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر ، وإظهار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ؛ ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لا يكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطيب خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو ليس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الإشارة - إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى - كافية جدّاً الكفاية لمن فكر وتدبر .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦).

شرح المفردات

ابتلاه : أى اختبره ببسط الرزق وإقتارده ، فأكرمه : أى صيره مكرماً يرفل
فى بحبوبة النعم ، قدر عليه رزقه : أى صيره فقيراً مقتراً عليه فى الرزق ، تقول
قدرت عليه الشئ : أى ضيقته عليه ، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه كما قال :
« وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه لا يفوته من شأن عباده شئ ، وأنه يأخذ كل مذنب
بذنبه - أردف ذلك ذكر شأن من شئون الإنسان ، و بين أنه لا يهتم إلا بأمر
الدنيا وشهواتها ، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق ظن أنه قد اصطفاه ورفع
على من سواه وجتبه منازل العقوبة ، فيذهب مع هواء ويفعل ما يشتهى ، ولا يبالي
أكان ما يصنع خيراً أم شراً ، فيطغى ويفسد فى الأرض ، وإذا ضيق عليه الرزق
(وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص أو لتظهر قوة صبره ، فإن الفقر لا يزيد
ذوى العزائم إلا شكراً) يقول ربى قد أهاننى ، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه
لم يكن له عناية بعمله ، فكيف يؤاخذ به بما يصدر منه من شر ، أو يكافئه على
ما يصنع من خير ، فلا شكره يكافأ بإحسان ، ولا كفره يحازى بعقوبة ، فينطلق
يكسب عيشه بأى وسيلة عنت له ، ولا تحجزه شريعة ، ولا يقف أمام قانون ،
ويسلك سبيل الجبارين ، ويبخس الحقوق ، ويفسد نظم المجتمع ، ولا تزال أحوال
الناس هكذا كما وصف الله ؛ فأرباب السلطان يظنون أنهم فى أمن من عقاب ربهم
ولا يذكرونه إلا بالأسنتهم ، ولا يعرف له سلطان على قلوبهم ، والفقراء الأذلاء
صغرت نفوسهم عند أنفسهم ، لا يباليون ماذا يفعلون ؟ .

الإيضاح

(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن) أى إن الإنسان إذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق - زعم أن هذا الذى هو فيه من السعة - إكرام من الله له ، وخبيل إليه الوهم أن الله لا يؤاخذ على ما يفعل ، فيطنى ويفسد فى الأرض .

(وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) أى وإن رأى أن رزقه لا يأتيه إلا بقدر ظن أن ذلك إهانة من الله له وإذلال لنفسه .

والإنسان فى الحالين مغطى مرئى أشنع وجوه الغفلة ، لأن إسباغ النعمة فى الدنيا على أحد لا يدل على أنه مستحق لذلك ، ولو دل على هذا لما رأيت عاصيا موسعا عليه فى الرزق ، ولا شاهدت كافرا ينعم بصنوف النعم .

واعلم من حكمة الله فى بسط الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعض آخر - أن وجدان المال سبب للانغماس فى الشهوات ، وأنه قاطع عن الاتصال بالله ، وأن فقدان وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة .

انظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يدعو به ربه من قوله : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » تدرك سر ذلك .

إلى أن من يتمتعهم الله بإسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم على عباده ورفعهم فوق سائر خلقه ، ثم لا يزال بهم شيطان الغواية حتى يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب ، ويسيروا فى طريق شهواتهم المهلكة إلى أبعد غاية ، لا يرجعون إلى ربهم ، ولا يدركون أن ماعنده خير وأبقى .

كَلَّا بَلْ لَأُنْكِرِ مُؤَنَ الْيَتِيمِ (١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ
الْمُسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا
جَمًّا (٢٠) .

شرح المفردات

ولا تحاضون : أى لا يأمر بعضكم بعضا ، والثرث : الميراث ، لمّا : أى شديدا ،
جَمًّا : أى كثيرا قال :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأنى عبدٍ لك لا أَلَمَّا

المعنى الجملى

بعد أن بين خطأ الإنسان فيما يعتقد إذا بُسط له الرزق أو قُتر عليه — أردف
ذلك زجرهم عما يرتكبون من المنكرات ، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يُعْمِه
الطغيان ، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان ، وكانوا على الحال التى يرتقى إليها
الإنسان — لشعرت نفوسهم بما عسى يقع فيه اليتيم من بؤس ، فعنوا بإكرامه
فإن الذى يفقد أباه معرض لفساد طبيعته إذا أهملت تربيته، ولم يهتم بما فيه العناية به
ورفع منزلته ، ولو كانوا على ما تحدثهم به أنفسهم من الصلاح لوجدوا الشفقة تحرك
قلوبهم إلى التعاون على طعام المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله،
إلى أنهم يأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منهم ، ويشتدون فى أكله حتى
يحرموا صاحب الحق حقه . ويزداد حبهم للمال إلى غير غاية .

وصفوة القول — إن شرهم فى المال ، وقرّمهم إلى الذات ، وانصرفهم إلى
التنقع بها ، ثم قسوة قلوبهم إلى ألا يألموا إلى ما تجر إليه الاستهانة بشئون اليتامى من
فساد أخلاقهم ، وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم إلى معاشريهم ، فينتشر

الداء في جسم الأمة — دليل على أن ما يزعمون من اعتقادهم بأنه يأمرهم وينهاهم ، وأن لهم ديناً يعظمهم ، زعم باطل ، وإذا غشوا أنفسهم وادَّعَوْا أنهم يتذكرون الزواجر ، ويراعون الأوامر ، فذلك مقال تكذبه الفعال .

الإيضاح

(كلا) أى لم أبتل الإنسان بالغنى لكرامته عندى ، ولم أبتله بالفقر لهوانه على ، فالكرامة والإهانة لا يدوران مع المال سعة وقلة ، فقد أوسع على الكافر لا لكرامته ، وأضيق على المؤمن لا لهوانه ، وإنما أكرم المرء بطاعته ، وأهينه بمعصيته ، وقد أوسع على المرء بالمال لأختبره أيشكر أم يكفر ؟ وأضيق عليه لأختبره أيصبر أم يضجر ؟

ثم انتقل وترق من ذمهم بقبيح الأقوال إلى النعي عليهم بقبيح الأفعال فقال :

(بل لا تكرمون اليتيم) أى بل لكم أفعال وأحوال شر من أقوالكم تدل على تهالككم على المال ، فقد يكرمكم الله بالمال الكثير فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم وبره والإحسان إليه ، وقد جاء في الحديث الحث على ذلك ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحب البيوت بيت فيه يتيم مُكْرَم » وورد أيضا : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والى تلى الإبهام . قال مقاتل : أنزلت الآية في قدامة بن مظعون وكان يتيمًا في حجر أمية ابن خلف .

(ولا تحاضون على طعام المسكين) أى ولا يحث بعضهم بعضا على إطعامه وإصلاح شأنه ، وإذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضهم بعضا باطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم في أنكم قوم صالحون .

وإنما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالإطعام ، فيقول ولم تطعموا

المسكين — ليبين أن أفراد الأمة متكافون ، وأنه يجب أن يوصى بعضهم بعضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التزام كلٌّ بفعل ما يأمُر به أو ينهى عنه .
ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم ، وخلوّ قلوبهم من الرحمة بالمسكين لم يكونا زهدا في لذائذ الحياة وتخلّصا من متاعها ، وعكوفنا على شئون أنفسهم ، بل جاء من محبتهم المال فقال :

(وَأَكْلُونِ الثَّرَاثَ أَكْلًا مَثًا) أى إنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم أكلا شديداً ، فتحولون بينه وبين من يستحقه ، وتجمعون بين نصيبكم منه ونصيب غيركم .
(وتحبون المال حبا جما) أى وتميلون إلى جمع المال ميلا شديداً ، ميرانا كان أو غيره .

وخلاصة ذلك — أأنتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة ، لانصرفتم عما يترك الموتى ميراثا لأيتامهم ، ولكنكم تشاركونهم فيه ، وتأخذون شيئا لا كسب لكم فيه ، ولا مدخل لكم فى تحصيله وجمعه ، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة لما حَبَرْتِ نفوسكم على المال تأخذونه من حيث وجدتموه ، من حلال أو من حرام .
فهذه أدلة ترشد إلى أنكم لستم على ما ادعيت من صلاح وإصلاح ، وأنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ؟ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ (٢٦) .

شرح المفردات

الدكّ : حط المرتفع بالسط والتسوية ؛ ومنه اندكّ سقام البعير إذا انغرس في ظهره ، دكا دكا : أى دكا بعد دك : أى كرّر عليها الدك وتتابع حتى صارت كالصخرة للمساء ، صفا صفا : أى صفا بعد صفا بحسب منازلهم ومراتبهم في الفضل ، وجيء يومئذ بجهنم : أى كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، وأنى له الذكرى ؟ أى ومن أين له فائدة التذكّر وقد فات الأوان ، والوثاق : الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم أقوالهم وادعاءهم أن الغنى إكرام لهم ، وأن الفقر إهانة لهم ، ونعى عليهم أفعالهم من حرصهم على الدنيا واستفراغ الجهد في تحصيلها ، وتكالبهم على جمعها من حلال وحرام - أردفه بيان أن ما يزعمونه من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلأها بحسب المال والميل إلى الشهوات - زعم للاحقيقة له ، وإعما يتذكرون ربهم في ذلك اليوم العظيم حين يشهدون الهول ، ويعوّزهم الحول ، ويظهر لهم مكانهم من النكال والوبال ، ولكن هذه الذكرى قد فات أوانها ، وانتهى إبانها ، فإن الدار دار جزاء لا دار أعمال ، فلا يبقى فيها لأولئك الخاسرين إلا الحسرة والندامة ، وقول قائمهم : « لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » ويكون لهم من العذاب ما لا يقدر قدره ، ومن الإهانة ما يجيل عن التشبيه وتمثيل .

الايضاح

(كلا) زجر لهم وإنكار لأقوالهم وأفعالهم ؛ أى لا ينبغي أن يكون هذا شأنهم في الحرص على الدنيا من حيث نتهياً لهم سواء كانت من حلال أو حرام ، وكأنهم يتوهمون أن لاحتساب ولا جزاء ، وسيأتى يوم يندمون فيه أشد الندم ،

ولكن لاتنفعهم الندامة ، ويتمنون لو كانوا أفنوا حياتهم في التقرب إلى ربهم
بصالح الأعمال .

ثم بين ذلك اليوم ووصفه بأوصاف ثلاثة فقال :

(١) (إذا دكت الأرض دكا دكاً) أى إذا دكت الأرض دكا بعد دك ،
وتتابع عليها ذلك حتى صارت كالصخرة للمساء ، وذهب كل ماعلى وجهها من جبال
وأبنية وقصور .

(٢) (وجاء ربك والملك صفا صفا) أى وتجلت لأهل الموقف السطوة
الإلهية ، كما تتجلى أئمة الملوك للأعین إذا جاء الملك في جيوشه وموأكبه ، والله
المثل الأعلى .

(٣) (وجيء يومئذ بجهنم) أى وكشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت
غائبة عنهم .

ونحو الآية قوله : « وَبُرِّرَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى » أى أظهرت حتى رآها
الخلق وعانقوها ، وليس المراد أنها نقلت من مكانها إلى مكان آخر .
(يومئذ يتذكر الإنسان) أى حينئذ تذهب الغفلة ، ويتذكر المرء ما كان
قد فرط فيه ، وعرف أن ما كان فيه كان ضلالا ، وأنه كان يجب أن يكون على
حال خير مما كان عليها .

ثم بين أن هذه الذكرى لافائدة منها فقال :

(وأتى له الذكرى) أى ومن أين لهذه الذكرى فائدة ، أو ترجع إليه بعائدة ؛
وقد فات الأوان ، وحُمَّ القضاء .

والخلاصة — إنه إذا حدثت هذه الأحداث انكشفت عن الإنسان الحُجُب ،
ووضح له ما كان عليه ، وذهبت عنه الغفلة ، وإذا ذاك يتنى أن يعود ليعمل صالحا ،
ولكن أنى له ذلك ؟

ثم بين تذكره بقوله :

(يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) أى يتنى أن يكون قد عمل صالحا ينفعه
في حياته الآخروية التى هى الحياة الحقيقية .

ثم بين مآله وعاقبة أمره فقال :

(فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) أى فيومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل ذلك العذاب الذى يصيب ذلك الإنسان الذى أبطره الغنى فجحد نعمة الله عليه ، أو أفسده الفقر حتى عثا فى الأرض فسادا ، ولا يوثق أحد من الخلائق وثاقا مثل هذا الوثاق الذى يوثقه ذلك الإنسان .
ولا يخفى ما فى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكّر ، ووجدان يشعر .

يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتِي (٣٠) .

شرح المفردات

المطمئنة : من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، إلى ربك : أى إلى نوايه وموقف كرامته ، فى عبادى : أى فى زمرة عبادى المكرمين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الإنسان الذى خُلّي وطبعه ، فاستولى عليه جشعه وحرصه على رغباته وشهواته ، حتى خرجت عن سلطان الحكمة والعقل ، ثم ذكر عاقبة أمره فى الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الإنسان الذى ارتقى عن ذلك الطبع وسمت نفسه إلى مراتب الكمال ، فاطمأن إلى معرفة خالقه ، واستعلى برغائبه إلى المطامح الروحية ، ورغب عن اللذات الجسمانية ، فكان فى الغنى شاكرا لا يتناول إلا حقه ، وفى الفقر صابرا لا يمد يده إلى ما لغيره ، وبين أنه فى ذلك اليوم يكون بجوار ربّه راضيا بعمله فى الدنيا ، مرضيا عنده ، يدخله فى زمرة الصالحين المكرمين من عباده .

الإيضاح

(يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) أى يَأْتِيهَا النَّفْسُ الَّتِي قَدْ اسْتَيْقِنَتْ الْحَقَّ ، فَلَا يَخْالِجُهَا شَكٌّ ، وَوَقَفَتْ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرْعِ ، فَلَا تَزْعُزِعُهَا الشَّهَوَاتُ ، وَلَا تَضْطَرِبُ بِهَا الرِّغْبَاتُ .

(ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً) أى ارْجِعْ إِلَى مَحَلِّ الْكَرَامَةِ بِجِوَارِ رَبِّكَ ، رَاضِيَةً عَمَّا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا ، مُرْضِيَا عَنْكَ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطَةً لَافِي الْغَنَى وَلَا فِي الْفَقْرِ ، وَلَمْ تَتَجَاوِزْ حُدُودَ الشَّرْعِ فَيَأْخُذْ بِكَ مِنْ حَقِّ وَمَا عَلَيْكَ مِنْ وَاجِبٍ .

ثُمَّ ذَكَرَ جَمِيلَ عَاقِبَتِهَا فَقَالَ :

(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) أى فَادْخُلِي فِي زَمْرَةِ عِبَادِي الْمُسْكِرِينَ ، وَانْتَظِمِي فِي سُلُوكِهِمْ ، وَكُونِي فِي جَمْلَتِهِمْ ، فَالْنَفُوسُ الْقُدْسِيَّةُ كَالْمُرَايَا الْمُتَقَابِلَةِ ، يَشْرُقُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَكَأَنَّهُمَا تَرْتَبِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِالْأَلَامِ وَتَزِينُ بِالْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، حَتَّى إِذَا فَارَقَتِ الْأَبْدَانُ جَعَلَتْ فِي أَمَّا كُنْ مُتَقَابِلَةً ، بَيْنَهَا صَفَاءٌ وَمُودَةٌ ، وَحَسَنُ صَلَةٍ وَمَحَبَّةٌ .

(وَادْخُلِي جَنَّتِي) فَتَمَتَّعِي فِيهَا بِمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ .

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ النَّفُوسِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، الرَّاغِبَةِ إِلَى الرِّضْيَةِ ، وَأَدْخِلْنَا فِي جَنَّتِكَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

مقاصد هذه السورة

تَشْتَمِلُ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى مَقَاصِدَ سِتَّةٍ :

- (١) الْقِسْمُ عَلَى أَنْ عَذَابَ الْكَافِرِينَ لَا يَحِيصُ مِنْهُ .
- (٢) ضَرْبُ الْمَثَلِ بِالْأَمْرِ بِالْبَائِدَةِ كَمَا دُونَهُ .

(٣) كثرة النعم على عبد ليست دليلا على إكرام الله له ، ولا البلاء دليلا على إهانته وخذلانه .

(٤) وصف يوم القيامة وما فيه من أهوال .

(٥) تمنى الأشقياء العودة إلى الدنيا .

(٦) كرامة النفوس الراضية المرضية ، وما تلقاه من النعيم بجوار ربها .

سورة البلد

هى مكية ، وآياتها عشرون ، نزلت بعد سورة ق .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذم فى الأولى من أحب المال وأكل الثراث ولم يحضّ على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم المسغبة .

(٢) ذكر هناك حال النفس مطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) .

شرح المفردات

البلد: مكة ، حلّ: أى حالّ مقيم فيه ، ووالد وما ولد: أى وأب وأبْن وأبْنُ وأبْنُ من الإنسان والحيوان والنبات ، والكبد: المشقة والتعب ، قال لبيد يري أخاه أربداً: يا عين هل رأيت أربداً إذ قُمنا وقام الخصوم فى كبد

الإيضاح

(لا أقسم بهذا البلد) تقدم أن قلنا إن مثل هذا التعبير قسم مؤكد في كلام العرب ، وقد أقسم ربنا بمكة التي شرفها فجعلها حرماً آمناً ، وجعل فيها البيت الحرام مثابة للناس يرجعون إليه ويعاودون زيارته كلما دعاهم إليه الشوق ، وجعل فيه الكعبة قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه إليها في الصلوات التي تكرر كل يوم فقال : « وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

(وأنت حل بهذا البلد) أى وأنت مقيم بهذا البلد حال فيه ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب شرف مكة وعظمتها كونه صلى الله عليه وسلم مقياً فيه ، ولا شك أن الأمكنة تشرف بشرف ساكنيها ، والنازلين بها .

وأتى بهذه الجملة ليفيد أن مكة جليلة القدر في كل حال حتى في الحال التي لم يراع أهلها في معاملتك تلك الحرمة التي خصها الله بها .

وفي هذا إيقاظ وتنبيه لهم من غفلتهم ، وتقريع على حط منزلة بلدهم .

(ووالد وما ولد) أى وكل والد وكل مولود من الإنسان وغيره .

وفي القسم بهذا لفت لأنظارنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانیه كل من الوالد والمولود في إبداء النشء ، وتبليغ الناشئ وإبلاغه حده من النمو المقدّر له .

انظر إلى البذرة في أطوار نموها ، كم تعاني من اختلاف الأجواء ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد لأن تلد بذرة أو بذوراً أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها .

وأمر الإنسان والحيوان في ذلك أعجب وأعظم ، والتمتع والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ نوعه ، واستبقاء جمال الكون بوجوده أشد وأكبر .

ثم ذكر الحلو ف عليه فقال :

(لقد خلقنا الإنسان فى كبد) أى إنه تعالى جعل حياة الإنسان سلسلة متصلة الجهاد ، مبتدئة بالمشقة ، منتهية بها ؛ فهو لا يزال يقاسى من ضروبها ما يقاسى منذ نشأته فى بطن أمه إلى أن يصير رجلا ، وكلما كبر ازدادت أتعابه وآلامه ، فهو يحتاج إلى تحصيل أرزاقه وتربية أولاده ، وإلى مقارعة الخطوب والنوازل ، ومصاربة النفس على الطاعة والخضوع للواحد المعبود ، ثم بعد هذا كله يمرض ويموت ، ويلاقى فى قبره وفى آخرته من المشاق والتعاب ، ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه .

والسر فى التنبيه إلى أن الإنسان قد خلق فى عناء — الرغبة فى تسليته رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحضه على عمل الخير والمثابرة عليه ، وألا يعبأ بما يلاقه من الشدائد والمشاق ، وأن ذلك لا يخلو منه إنسان .

إلى ما فيه من تنبيه المغرورين الذين يشعرون بالقوة فى أنفسهم ، ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران ؛ وكأنه يقول لهم : لاتتمادوا فى غروركم ، ولا تستمروا على صلفكم وكبريائكم ، فإن الإنسان لا يخلو من العناء فى تصريف شؤنه وشئون ذويه ، ومهما عظمت منزلته ، وقويت شكيمته ؛ فهو لا يستطيع الخلاص من مشاق الحياة .

وقد جمع سبحانه بين البلد الممظم والوالد والولد ، ليشير إلى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد مولوداً عظيماً يكون إكليلاً لمجد النوع الإنسانى وشرفه ، وهو دين الإسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وأن العناء الذى يلاقه إنما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغ الغاية فى سبيل نموه ؛ إلى ما فيه من الوعد بإتمام نوره ولو كره الكافرون .

أَيَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا
لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠).

شرح المفردات

أَيَحْسَبُ : أى أَيْظَن ، أَهْلَكْتُ : أى أَنْفَقْتُ ، أَلْبَدًا : أى كَثِيرًا ، وَالنَّجْدُ :
الطريق المرتفعة ؛ والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا ينبغي للمفتونين بقوة أبدانهم ، المغرورين بوسع جاههم ،
أن يتبادوا فى صلفهم وكبريائهم — شرع يوجههم على الاغترار بقوتهم الزائلة ؛
ويذكرهم بما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة الحسية والعقلية .

روى أن قوله : « أَيَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ » نزل فى أبى الأشد
أسيد بن كلدة الجُمَحِي ، وكان مغتراً بقوته البدنية ؛ وأن قوله : « يَقُولُ أَهْلَكْتُ
مَالًا لُبَدًا » نزل فى الحرث بن نوفل وكان يقول : أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا فى الكفارات
منذ أطعت محمداً .

وسواء أكانت هذه الآيات نزلت فى هؤلاء أم فى غيرهم فإن معناها عام
كما علمت .

الإيضاح

(أَيَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟) أى أَيْظَن ذلك المغترّ بقوته ، المفتون بما
أنعمنا به عليه — أنه مهما عظمت حاله ، وقوى سلطانه ، يبلغ منزلة لا يقدر عليه فيها

أحد؟ ما أجعله إذا ظن ذلك ، فان في الوجود قوة فوق جميع القوى هي المهيمنة على كل قوة ، والمسيطرة على كل قدرة ، وهي القوة التي أبدعته ، والقدرة التي أنشأته .

ثم ذكر صنفًا آخر من الأغنياء البخلاء المرائين فقال :

(يقول أهلكت مالا لبدأ) أى إنهم إذا طلب إليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر قالوا : إننا ننفق الكثير من أموالنا في المفاخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمه ماعدّه الله مكرمه ، والبرّ ما اعتبره الله برا ، فليس من البر إنفاقهم لمال في مشاقه الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال في الصدّه عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

(أيحسب أن لم يره أحد) أى أظن ذلك المغتر بماله ، المدعى أنه أنفقه في سبيل الخير — أن الله لم يطع على أفعاله ؛ ولم يعلم مادعاه إلى الإنفاق ؟ إنه لا ينبغي له أن يظن ذلك ، فإن الباري له مطلع على قرارة نفسه ، عالم بحديثات قلبه ، لا يعزب عنه شئ في الأرض ولا في السماء ، عليم بأنه لم ينفق شيئاً من ماله في سبيل الخير المشروع والبر الحمود ، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة ، أو لمشاقه الله ورسوله ، أوفى وجوه أخرى يظنها خيراً وهي خسران وضلال مبين .

و بعد أن أنكر على هؤلاء اغترارهم بقوتهم وكثرة أموالهم — شرع يذكر آثار قدرته الغالبة ، ليبين لهم أن هناك قوة لها من الآثار ما هم يشاهدون فقال :

(ألم نجعل له عينين) فهو إذا أبصر شيئاً فأنما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين ، فهذه النعمة التي يعتز بها إنما هي من عملنا .

(ولساناً وشفقتين) فإذا أبان عما في نفسه ، فأنما يبين بما وهبنا له من لدنا من تلك الجارحة التي يتكلم بها ، فإذا غرّه حديثه ، أو قوة حجته ، فليس فضل ذلك راجعاً إليه ، وإنما الفضل لمن وهبه ذلك .

(وهديناه النجدين) أى وأودعنا فى فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر ، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنهبا ، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير ؛ وأرشدناه إلى مافى الشر من هنوات وعيوب ، ثم أقدرناه على أن يسلك أى الطريقين شاء ، بعد أن آتيناها قوة التمييز ، والقدرة على الاختيار والترجيح ، ليسلك الطريق التى أراد منها .

فليكن نجد الخير أحب إلى أحدكم من نجد الشر ؛ فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر فى آيات الله ، والتدبر فى دلائله ، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوى بصاحبه إلى طريق الردى ، ويوقعه فى المهالك .

وإنما سماها الله نجدين ، للإشارة إلى أنهما امتحان كطريقين عالين يراها ذوو الأبصار ، وإلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها .

وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير ، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية ، وتوصل إلى الغاية .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكَّ رَقَبَةً (١٣)
أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا
ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا
بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِنَا
هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠) .

شرح المفردات

اقتحم الشيء : دخل فيه بشدة ، والمقبة : الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها ؛ والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له فعل الشر من شياطين الإنس والجن ، وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه ، والمسغبة : الجوع ، يقال سغب الرجل يسغب إذا جاع ، والمقربة : القرابة في النسب ، تقول فلان من ذوى قرابتي ومن أهل مقربتي إذا كان قريبك نسبا ، والمتربة : العقر ؛ تقول ترب الرجل إذا افتقر ، وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب ، تواصلوا بالصبر : أى نصح بعضهم بعضا به ، والميمنة : طريق النجاة والسعادة ، والمشامة : طريق الشقاء ، مؤصدة : أى مطبقة عليهم من آصدت الباب ، أى أغلقته ، قال :
تحنّ إلى أجيال مكة ناقتى ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

المعنى الجملى

بعد أن وضح سبحانه هؤلاء المرانين الذين ينفقون أموالهم طلبا للشهرة ، وحباً في حسن الأحدوة ، وأنبهم على افتخارهم بما صنعوا مع خلق بواطنهم من حسن النية ، وبين لهم أن أفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر ، والنفع والضرر هو منه سبحانه ، وهو القادر على سلبه منهم — أردفه ببيان أنه كان عليهم أن يشكروا تلك النعم ، ويختاروا طريق الخير ، ويرجعوا سبيل السعادة ، فيفيضوا على الناس بشئ مما أفاض به عليهم ؛ وأفضل ذلك أن يعينوا على تحرير الأرقاء من البشر ، أو يواسوا الأيتام من أقاربهم حين الموت وعزة الطعام ، أو يطعموا المساكين الذين لا وسيلة لهم إلى كسب ما يقيمون به أودهم لضيقهم وعجزهم ؛ ثم هم مع ذلك يكونون صحيحى الإيمان ، صبورين على أذى الناس ، وعلى ما يصيبهم من المكروه في سبيل لدعوة إلى الحق ، رحاء بعباده ، مواسين لهم حين الشدائد .

هذه هي الطريق التي كان من حق العقل أن يرشد إليها ؛ لكن الإنسان قد خدعه غروره فلم يقتحم هذه العقبة ، ولم يسلك هذه السبيل القويم ، ولم يسرفيا يرشد إليه العقل السليم .

الإيضاح

(فلا اقتحم العقبة) أى فهلا جاهد النفس والشيطان وعمل أعمال البر ؛ وقد ضرب الله العقبة مثلاً لهذا الجهاد ، لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس عالم الأشباح إلى عالم الأنوار والأرواح ، وبينه وبين ذلك عقبات من ورائها عقبات ، وسبيل الوصول إلى غايته هذه هي فعل الخيرات .

ثم فخم شأن العقبة وعظم أمرها فقال :

(وما أدراك ما العقبة) أى وأى شئ أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ .

ثم أرشد إلى أن اقتحامها يكون بفعل صنوف من الخير منها :

(١) (فك رقبة) أى عتق الرقبة أو الإعانة عليها ؛ وقد ورد في الكتاب الكريم والسنة الترغيب في العتق والحث عليه .

روى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : عتق النسيمة وفك الرقبة ، قال يا رسول الله أوليس واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها » .

والكلام بتقدير مضاف : أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ، فك رقبة ، لأن فك الرقبة ليس هو العقبة نفسها ، وإنما هو اقتحامها لأنه سبب موصل إلى مجاوزة العقبة والوصول إلى عالم الأنوار .

(٢) (أو إطعام في يوم ذى مسغبة . يتيما ذامقربة) أى أو إطعام يتيم من أقاربه في أيام الجوع والعوز .

وفي هذا جمع بين حقين : حق اليتيم وحق القرابة .

(٣) (أو مسكيناً ذا متربة) أى أو إطعام المسكين الذى لا وسيلة له إلى كسب المال لضعفه وعجزه .

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) أى ثم كان مع اقتحامه العقبة من صادقى الإيمان الذين يصبرون على الأذى وما يصيبهم من المكاره فى سبيل الدفاع عن الحق ، ويرحمون عباد الله ويواسونهم ويساعدونهم حين البأساء .

وبما اشترط الإيمان مع فعل هذه المبرات ، لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها ، إذ لا ينفع مع الكفر برّ .
ثم بين مآل فاعلى هذه المبرات فقال :

(أولئك هم أصحاب الميمنة) أى أولئك الذين اقتحموا العقبة ففكوا الرقاب ، وأطعموا المساكين ، وواسوا ذوى القربى فى يوم المسغبة هم السعداء الممتعون بجنات النعيم ، وهم الذين عناهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » .

ثم ذكر مقابل هؤلاء وهم الذين صدوا عن سبيل الله ، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول فقال :

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) أى والذين جحدوا آياتنا السكونية وآياتنا السمعية التى جاءت على ألسنة الرسل كالقرآن وغيره من الكتب السماوية هم أصحاب المشأمة ، أى أهل الشمال الذين وصفهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ . مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سُمْوٍمٍ وَحَجِيمٍ . وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ
أُنْذِرْنا مِتْنا وَكُنَّا تُرَاجًا وَعِظَامًا أَفِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوْ آباءُنا الْأَوَّلُونَ » .

(عليهم نار مؤصدة) أى عليهم نار تطبق عليهم فلا يستطيعون الفكك منها
ولا الخلاص من عذابها . نجانا الله منها بمنه وكرمه ، وجعلنا من أصحاب الميمنة .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على خمسة مقاصد :

- (١) ما ابتلى به الإنسان في الدنيا من النصب والتعب .
- (٢) اغترار الإنسان بقوته .
- (٣) نكران النعم التي أنعم الله بها عليه من العيين واللسان والعقل والفكر .
- (٤) سبل النجاة الموصلة إلى السعادة .
- (٥) كفران الآيات سبيل الشقاء .

سورة الشمس

هى مكية ، وآياتها خمس عشرة ، نزلت بعد سورة القدر .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أصحاب اليمين وأصحاب المشأمة ، وأعاد ذكر الفريقين فى هذه السورة بقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(٢) ختم السورة السابقة بشئ من أحوال الكفار فى الآخرة ، وختم هذه بشئ من أحوالهم فى الدنيا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣)
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦)
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) .

شرح المفردات

نحى الشمس : ضوءها ، تلاها : أى تبعها ؛ يقال تلا فلان فلاناً يتلوه إذا تبعه ، وجلالها : أى كشف الشمس وأتم وضوحها ، يغشاه : أى يزيل ضوءها ويحجبه ، والسما : كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذى فوقك وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها ، بناها : أى رفعها ، وجعل كل

كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة تحيط بك، وطحا الأرض : بسطها وجعلها فراشا ، سوّاها : أى ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة ، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها ، ألهمها : عرّفها ومكّنها ، والنجوم : ما يكون سببا فى الخسران والهلكة ، والتقوى : إيمان ما يحفظ النفس من سوء العقبة ، أفلح : أى أصاب الفلاح ؛ وهو إدراك المطلوب ، وزكاها : أى طهرها من أدناس الذنوب ، وخاب : أى خسر ، ودسّاها : أى أنقصها وأخفاها بالذنوب والمعاصي قال :

ودسستُ عمرا فى التراب فأصبحت ————— لآله منه أرامل ضيعا

الإيضاح

(والشمس وضحاها) أقسم سبحانه بالشمس نفسها غابت أو ظهرت ، لأنها خلق عظيم يدل على قدرة مبدعها ، وأقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة فى كل حى ، فلولاها ما أبصرت حيا ولا رأيت ناميا ، ولولاها ما وجد الضياء ولا انتشر النور ، وإذا أرسات خيوطها الذهبية على مكان فر منه السقم ، وولت جيوش الأمراض هاربة ، لأنها تفتك بها فتكاً ذريعا .

(والقمر إذا تلاها) أى والقمر إذا تلا الشمس فى التالى إلى البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت امتلائه أو قربه من الامتلاء حين يضىء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر .

وهذا قسم بالضوء فى طور آخر ، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

وقد يكون المراد — بتلاها أى تبعها فى كل وقت ، لأن نوره مستمد من نور الشمس فهو لذلك يتبعها ، وقد قال بهذا القراء قديما وأثبتته علماء انكشاف حديثا .

(والنهار إذا جلاها) أى والنهار إذا جلى الشمس وأظهرها وأتمم وضوحها ، إذ كلما كان النهار أجلى ظهورا كانت الشمس أكمل وضوحا .

وأقسم بهذه المخلوقات ، للإشارة إلى تعظيم أمر الضوء وإعظام أمر النعمة فيه ، وفيه نعت لأذهانتنا إلى أنه آية من آيات ربنا الكبرى ، ونعمة من نعمه العظمى .
وفى قوله . جلالها بيان للحال التى يكشف فيها النهار تلك الحكمة البالغة ، والآية الباهرة .

و بعد أن أقسم بالضياء فى أطوار مختلفة أقسم بالليل فى حال واحدة فقال :
(والليل إذا يغشاها) أى والليل إذا يغشى الشمس فيزيل ضوءها فى الليالى الحالكه التى لا أثر لضوء الشمس فيها ، لامباشرة كما فى النهار ، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها ، وهى قليلة فبها ايلة أو ليلتان أو بعض ليال فى الشهر .
وفى هذا إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم فيذهب ضوءه ، ويحيل نور العالم ظلاما فهو على جليل نفعه وعظيم فائدته ، لا يتخذ إلهاً لأن الإله لا يحول ولا يزول ، ولا يعتره تغير ولا أفول .

وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليهه وعبادته .
و بعد أن ذكر الأوصاف الدالة على عظمة هذه الأجرام — أردفه ذكر صفات تدل على حدوثها فقال :

(والسماء وما بناها) أى والسماء ومن قَدَّرها على النحو الذى اقتضته مشيئته وحكمته .

وفى ذكر البنين إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة ، وأن لها صانعا حكيمًا قد أحكم وضعها وأجاد تقديرها ، فإنه شد هذه السكواك بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها حتى يتناسك .

ولما كان الخطاب موجها إلى قوم لا يعرفون الله بجليل صفاته ، وكان القصد منه أن ينظروا فى هذا السكون نظرة من يطلب للأثر مؤثراً ، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى — عبر عن نفسه بلفظ (ما) التى هى الغاية فى الإبهام .

(والأرض وما طحاها) أى والأرض والذى بسطها ومهدا للسكنى ، وجعل
الناس ينتفعون بما على ظهرها من نبات وحيوان ، وبما فى باطنها من مختلف المعادن .
ونحو الآية قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » .

وقصارى ماسلف — إنه بعد أن أقسم سبحانه بالضياء والظلمة ، أقسم بالسما
وما فيها من الكواكب وبالذى بناها وجعلها مصدرا للضياء ، وبالأرض والذى
جعلها لنا فراشا ومصدرا للظلمة ، فإنها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس
عن بعضها الآخر فيظهر فيه الظلام .

ثم أقسم بعد هذا بالنفس الإنسانية لما لها من شرف فى هذا الوجود فقال :
(ونفس وما سواها) أى قسما بالنفس ومن سواها وركب فيها قواها الباطنة
والظاهرة ، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها ، وألف لها الجسم الذى تستخدمه من
أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى .

ثم بين أثر هذه التسوية فقال :

(فألهما فجورها وتقواها) أى فألهم كل نفس الفجور والتقوى وعرفها حالها ،
بحيث تميز الرشد من الغي ، ويتبين لها الهدى من الضلال ، وجعل ذلك معروفا
لأولى البصائر .

وبعد أن ذكر أنه ألهم النفوس معرفة الخير والشر ذكر ما تلقاه جزاء على كل
منهما فقال :

(قد أفلح من زكاها) أى قدر مج وفاز من زكى نفسه ونمّاها حتى بلغت
غاية ما هى مستعدة له من السكّال العقلى والعملى ، حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها
ولن حولها .

(وقد خاب من دساها) أى وخسر نفسه وأوقعها فى التهلكة من نقصها حقها
بفعل المعاصى ومجانبة البر والقربات ، فإن من سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى

الشهوة فقد فعل ما تفعل البهائم ، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التى اختص بها الإنسان ، واندرج فى عداد الحيوان .

ولاشك أنه لاختية أعظم ، ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذى يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله .

والخوف عليه الذى افتتحت به السورة - محذوف للعلم به من نظائره ، وكأنه قيل : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ... » لينزلنّ بالمكذبين منكم مثل ما نزل بشمود إذ كذبت نبيها فأصابها العذاب ، ودليل ذلك قوله بعد : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » الآيات ، فإنها ترشد إلى أن الله يعاقب من يكذب رسله ، نحو ما سبق فى سورة البروج .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذَّبْحُهُمْ فِسْوَاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) .

شرح المفردات

الطغوى والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، انبعث : أى قام بعقر الناقة ، أشقاهها : أى أشقى ثمود وهو قدار بن سالف ، رسول الله : هو صالح عليه السلام ، ناقة الله : أى احذروا التعرض لناقة الله ، وسقياها : أى شربها الذى اختصها به فى يومها ، فعقروها : أى فحروها ، فدمدم : أى فأطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدم عليه القير : أى أطبقه عليه ، فسواها : أى فسوى القبيلة فى العقوبة فلم يفت منها أحد ، عقباها : أى عاقبة الدمة وتبعها .

المعنى الجملى

جرت عادة القرآن أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسالهم وما قابلوهم به من التكذيب والإيذاء ، ثم يذكر ما جرت به سنته سبحانه من الإيقاع بالمكذابين ، وأخذهم بنبلهم وبما عملوا مع أنبيائهم ، ليكون في ذلك سلوة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يلق إلا ما لقي إخوانه الأنبياء ، ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوا ، وليكون في ذلك تخويف لأولئك المكذابين الذين يعاندون رسول الله ويلحفون في تكذيبه ، بأنهم إذا استمروا على ذلك حاق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة ونالوا من الجزاء مثل ما نالوا .

الايضاح

(كذبت ثمود بطغواها) أى كذبت ثمود نبيها صالحا بسبب طغيانها وبغيها .
ثم بين أمانة ذلك التكذيب فقال :

(إذ انبعث أشقاها) أى كان انطلاق الأذى لعمر الناقة والقوم راضون عنه علامة ظاهرة على تكذيبهم لنبيهم الذى جعلها دليل نبوته ، وبرهاننا على صدق رسالته ، وأوعدهم إذا هم تعرضوا لها ، وسكوت قومه على ما يفعل دليل رضاهم عن فعله ، فكانوا مكذبين مثله .

ثم ذكر ما وعدهم به الرسول على فعلهم فقال :

(فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها) أى فقال لهم صالح : احذروا ناقة الله التى جعلها آية نبوتى ، واحذروا شرابها الذى اختصت به فى يومها ، فلا تؤذوها ولا تتعدوا عليها فى شرابها ولا فى يوم شرابها ، وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شراب يوم ، ولهم ولمواشيهم شراب يوم ، فكانوا يجحدون فى أنفسهم حرجا لذلك ويتضررون منه ، فهموا بقتلها فحذرهم أن يفعلوا ذلك ،

وخوفهم عذاب الله وعقابه الذى ينزله بهم إن هم أقدموا على هذا الفعل ، لكنهم كذبه ولم يستمعوا النصيحة كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فكذبوه فعقروها) أى إنهم لم يتورعوا عن تكذيبه ، ولم يحجموا عن عقور الذاقة ، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب .

وذئ تقدم أن قلنا : إنهم لما رضوا بهذا الفعل نسب إليهم جميعا ، وكأنهم صنعوه معاً .

ثم بين عقوبة عملهم وذكر ما يستحقونه من الجزاء فقال :

(فندم عليهم ربهم بذنبهم) أى فأطبق عليهم العذاب ، وأهلكهم هلاك استئصال ولم يبق منهم دياراً ولا ناصب نار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فسواها) أى فسوى القبيلة فى العقوبة ولم يفلت منها أحد ، بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأشاهم : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ » .

وقد يكون المعنى — جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تُثر ، ودور مساكنها على ساكنيها .

(ولا يخاف عقباها) أى إن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم ، لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق ، وليس هو بالضعيف حتى يذله منهم مكروه ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

والمراد أنه بالغ فى عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية ، فإن من يخاف العاقبة لا يبالغ فى الفعل ، أما الذى لا يخاف العاقبة ولا تبعه العمل فإنه يبالغ فيه ليصل إلى ما يريد .

وقد علمت أن القصص مسوق لتسلية رسوله بأنه سينزل بالمكذبين به مثل ما أنزل بشمود ، ولقد صدق الله وعده ، فأهلك من أهلك من أهل مكة فى وقعة

بدر بأيدي المؤمنين ، ثم لم يزل يحل بهم الحزى والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب ، ولو سارت الدعوة إلى الإسلام سيرتها في عهد الصحابة لما بقي في الأرض مكذب ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

مقاصد هذه السورة

اشتمات هذه السورة على مقصدين :

- (١) الإقسام بالخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز ، وأن من أغواها ونقصها حقها بجهالة وفسوقه فقد خاب .
- (٢) ذكر ثمود مثلاً لمن دس نفسه فاستحق عقاب الله الذي هو له أهل .

سورة الليل

هي مكية ، وآياتها إحدى وعشرون ، نزلت بعد سورة الأعلى .
ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم ، وخيبة المدسّين لها .
وهنا ذكر ما يحصل به الملاح وما تحصل فيه الخيبة ، فهي كالتفصيل لاسبقها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) .

شرح المفردات

يغشى : أى يغطى كل شئ فيؤاريه بظلامه ، تجلى : أى ظهر وانكشف بظهوره
كل شئ ، وما خلق : أى والذي خلق ، وشتى : واحدا شتيت ، وهو المتباعد بعضه
من بعض .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما أقسم بأن سعى البشر مختلف ، فأقسم :
(١) بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مستقره ، ويسكن عن الاضطراب
إذ يغشاه النوم الذى فيه راحة لبدنه وجسمه .
(٢) بالنهار الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وفيه تغدو الطير من أوكارها
وتخرج الهوام من أجحارها .
(٣) بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى ويميّز بين الجنسين مع أن المادة

التي تكوننا منها واحدة ، والحل الذي تكوننا فيه واحد ، وفي ذلك دليل على تمام العلم وعظيم القدرة كما قال : « يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّا تَابِعُوا وَايَّاهُ لَمَّا يَشَاءُ اللَّهُ كُورَ . أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا نَأْتِيهِمْ مِنْ يَشَاءُ عَقِيًّا إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

الإيضاح

(والليل إذا يغشى) أى قسما بالليل حين يغشى الأشياء ويوارىها فى ظلامه ، ويكون فيه مستراح للناس من أعمالهم ، بما يشملهم من النوم والهدوء .

(والنهار إذا تجلى) بزوال ظلمة الليل ، فيتحرك الإنسان والحيوان ، طلبا لمعاشهما ، وبهذا يظهر وجه المصلحة فى اختلافهما ، إذ لو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش على الناس ، ولو كان كله نهارا لبطلت المصلحة ، فكان فى تعاقبهما آية بالغة يستدل بها على علم الصانع وحكمته ، اقرأ إن شئت قوله : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » .

(وما خلق الذكر والأنثى) أى قسما بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى من ماء واحد .

وفى هذا دليل على أنه عليم جد العلم بدقائق المادة وما فيها ، إذ لا عقل أن يكون هذا التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعورها بما تفعل ، فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة فيهما ، فحدث هذا التخالف فى الجنين دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، حكيم فيما يصنع ويضع .

وقصارى ما سلف — إن بعض الماء يكون تارة سببا للحمل ، وأخرى يكون غير مستعدٍ للتلقيح ، والأول يكون من بعضه الذكران ، ومن بعضه الإناث . سبحانه ما أعظم قدرته ، وأجل حكمته ، لا إله إلا هو الفعال لما يريد .

ثم ذكر الخلو ف عليه فقال :

(إن سعيكم لشتى) أى إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة متفرقة ، بعضها ضلال وعماية ، وبعضها هدى ونور ، وبعضها يستحق النعيم ، وبعضها يستحق العذاب الأليم كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقال : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) .

شرح المفردات

أعطى : أى بذل ماله ، واتقى : أى ابتعد عن الشر وإيصال الأذى إلى الناس ،
بالحسنى : أى بالخصلة الحسنى التى هى أفضل من غيرها ، لليسرى : أى للخصلة التى
تؤدى إلى يسر وراحة بتمتعته بالنعيم ، استغنى أى عدّ نفسه غنيا عما عند الناس بما
لديه من مال ، فلا يجد فى قلبه راحة اضعفائهم ببذل المال والمعونة لهم ، بالحسنى :
أى بالفضيلة وبأنها ركن من أركان الاجتماع ، للعسرى : أى بالخصلة التى تؤديه إلى
العسر ، ويقال تردى فلان من الجبل إذا هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله .

المعنى الجملى

بعد أن أشار إلى اختلاف أعمال الناس فى أنواعها وصفاتها ، والجزاء الذى يعود
على فاعلها ... أخذ يفصل هذا الاختلاف ، ويبين عاقبة كل عمل منها .

الإيضاح

(فأما من أعطى واتقى) أى فأما من أعطى المال وأنفقه فى وجوه الخير ، سواء كان واجبا عليه أم لا كأصدقات والنوافل كفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم ، وابتعد عن كل ما لا ينبغي ، فحى نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وخاف من إيصال الأذى إلى الناس .

(وصدق بالحسنى) أى وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ، ونحو ذلك مما هو مركز فى طبيعة الإنسان ، وهو مصدر الصالحات وأفعال البر والخير . ولا يكون تصديقا حقا ، ولا ينظر الله إليه إلا إذا صدر عنه الأثر الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال ، واتباع مفاسد الأعمال .

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقا بفضل الخير على الشر ؛ ولكن هذا التصديق يكون سرايا فى النفس ، خياله الوهم ، لأنه لا يصدر عنه ما يليق به من الأثر ، فتراه قاسى القلب ، بعيدا عن الحق ، بخيلا فى الخير ، مسرفا فى الشر .

ثم ذكر جزاءه على ذلك فقال :

(فسنيسره لليسرى) أى فسنهيئه لأيسر الخطتين وأسهلها فى أصل الفطرة ، وهو تكميل النفس إلى أن تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها ؛ فالإنسان إنما يمتاز عن غيره من الحيوان بالتفكير فى الأعمال ووزنها بنتائجها .

فإذا حصل ذلك وظهرت آثاره فيها سهل الله له ما هو مسوق إليه بأصل فطرته . وفاعل الخير للخير يجد أريحىة فى نفسه ، ويذوق لذة لاتعدها لذة ، فتزيد فيه رغبته ، وتشتد لفعله عزيمته ؛ وهذا هو التيسير الإلهى الذى يوفى الله له الصالحين من عباده .

(وأما من بخل واستغنى) أى وأما من أمسك ماله أو أنفقه فى شهواته ، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه ، وخدعته ثروته وجاهه . فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد ولا يحس

بأنه واحد من الناس يصيبه ما أصابهم من سوء .
 (وكذب بالحسنى) أى وكذب بأن الله يخلف على المنفقين فى سبيله ، فبخل
 بماله ولم ينفق إلا فيما يلذ له ويمتعه فى حاضره ولا يبالى بما عدا ذلك .
 ويدخل فى المكذبين بالحسنى أولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم .
 ولا يظهر أثرها فى أعمالهم .

(فسنيسره للعسرى) أى ومن مرتت نفسه على الشر وتعودت الخبث ، فسهل
 الله له الخطة العسرى ، وهى الخطة التى يحط بها قدر نفسه ، وينزل بها إلى حضيض
 الآثام ويقوسها فى أحوال الخطيئة .

(وما يقنى عنه ماله إذا تردى) أى وإذا يسرناه للعسرى فأى شئ يقنى عنه
 ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة .
 ولم يصحب منه شيئا إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره كما قال : « وَلَقَدْ
 جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ
 نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)
 وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
 مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ
 يَرْضَى (٢١) .

شرح المفردات

تلظى : أصله تتلظى ، أى تتوقد وتتهب ، يقال : تلظت النار تلظيا بمعنى
 التهبب التهابا ومنه سميت النار لظى ، يصلها : أى يحترق بها ، كذب : أى كذب
 (١٢)

الرسول فيما جاء به عن ربه ، وتولى : أى أعرض عن طاعة ربه ، وسيجنبها : أى يبعد عنها ويصير منها على جانب ، والآتى : المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الشديد التحرز منهما ، يتزكى : أى يتطهر ، تُجرى : أى تجازى وتكافأ ، ابتغاء وجه ربه : أى طالب مثوبته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن سعى الخلائق مختلف فى نفسه وعاقبته ، وأرشد إلى أن الحسن فى عمله يوفقه الله إلى أعمال البر ، وأن المسىء فيه يسهل له الخذلان — أردفه أنه قد أعذر إلى عباده بتقديم البيان الذى تنكشف معه أعمال الخير والشر جميعا ، ووضح السبيل أمام كل سالك ، فإن شاء سلك سبيل الخير فسلم وسعد ، وإن أراد ذهب فى طريق الشر فتردى فى الهاوية .

روى أن الآيات نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه . وقد كان من أمره أن بلال ابن رباح عليه الرضوان ، وكان مولى لعبد الله بن جُدعان — جاء إلى الأصنام وسلح عليها ، فشكا كفار مكة إلى مولاه فوهبه لهم ، ووهب لهم مائة من الإبل ينحرونها لألهتهم فجعلوا يعذبونه ويخرجونه إلى الرمضاء ، وكان يقول وهم يعذبونه : أَحَدٌ أَحَدٌ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يعذب فيقول له : ينبئك أحد أحد ، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه بما يلقى بلال فى الله ، فعمل أبو بكر رطلا من ذهب وابتاعه من المشركين وأعتقه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل قوله : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » الآيات .

الإيضاح

(إن علينا للهدى) أى إنا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له السكّمة من أفرادهم ، وهم الأنبياء وشرعنا لهم الأحكام ،

و بينا لهم العقائد تعلية وإرشادا ، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين : سبيل الخير والفلاح ، والسبيل المموج فيتردى في الهاوية .

وقصارى ذلك — إن الإنسان خلق نوعا ممتازا عن سائر الحيوان بما أوتيته من العقل ، وبما وضع له من الشرائع التي تهديه إلى سبيل الرشاد .

ثم زاد الأمر توكيدا فأبان عظيم قدرته فقال :

(وإن لنا الآخرة والأولى) أى وإنا لنحن المالكون لكل مافى الدنيا وكل مافى الآخرة ، فهب ماشاء لمن تريد ، ولا يضيرنا أن يترك بعض عبادنا الاهتداء بهدينا الذى بيناه لهم ، ولا يزيد فى ملكنا اهتداء من اهتدى منهم ، لأن نفع ذلك وضره عائد إليهم ، فمن اهتدى فإمّا يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإمّا بضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وإذا كان ملك الحيّتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما ، لأن المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه .

ثم بين سبيل الهداية الذى أوجبه على نفسه فقال :

(فأندرتكم نارا نلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى) أى لرحمتنا بكم وعلما الكامل بمصالحكم أسدينا إليكم الهدى ، فأندرتكم نارا تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض عن اتباع شرائعه ، وانصرف عن وجهة الحق ولم يعد إليها تائباً نادماً .

(وسيجنبها الأتقى) أى وسيمبعد عنها المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصي ، الشديد التحرز منهما بحيث لا يخطرهما له ببال .

ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه فقال :

(الذى يؤتى ماله بتركى) أى إن الأتقى هو الذى ينفق أمواله فى وجوه البر ، طالبا بذلك طهارة نفسه وقرّبها من ربه . لا مريدا بذلك رياء ولا سمعة ولا طالبا مديح الناس له ، فإن ذلك ضرب من انفاق الذى يعطل معه العمل ، ولا يكون

لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهد لها ، فألله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه .

وقد أكد هذا بقوله :

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى) أى إنه لا يقصد بإشفاقه المال مكافأة أحد على نعمة كان قد أسلفها ، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه .

ثم أكد مرة ثانية فقال :

(إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أى لكنه يفعل ذلك قاصدا رضا ربه طالبا مشوبته وحده ، تقول : فعلت كذا أبتغى وجه فلان ، أى لم يحملنى على الفعل إلا إجلاله وقصد مرضاته ، وخيفة الوقوع فيما يغضبه .

ثم وعد ذلك الأتقى بالرضا عنه فقال :

(ولسوف يرضى) أى ولسوف يرضيه ربه فى الآخرة بشوابه وعظيم جزائه .
وفى قوله : (ولسوف) إيماء إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد منزلة الرضا الإلهى .
وقصارى ماسلف : إن الناس أصناف :

(١) الأبرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما يجعلهم يتعدون عن الفواحش مظهر منها وما بطن .

(٢) الذين يلون هؤلاء ، وهم من تغلبهم الشهوة أحيانا فيقعون فى الذنب ، ثم يشوب إليهم رشدهم فيتوبون ويندمون ، وهذان القسمان يدخلان فى (الأتقى) .

(٣) من يخلط بين الخير والشر فيعتقد وحدانية الله ويقترب بعض السيئات ، ويصر عليها ولا يتوب منها ، فهذا الإصرار منه دليل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد .

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » والمراد أن صورة الوعيد تذهب عن

ذهن المخالف وتوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه في النفس وتقلب عليها .

(٤) الكافرون الجاحدون بالله وبرسله وبما أنزل عليهم ، وهذان القسمان يشملهما (الأشقي) وقد أعدت النار لكل منهما ، إلا أن الفاسقين لا يخلدون فيها ، ويدخلها الكافرون وهم فيها خالدون .

اللهم أبعدنا عن هذه النار التي تتلظى ، وأدخلنا فسيح جناتك .

مقاصد هذه السورة

(١) بيان أن الناس في الدنيا فريقان :

(١) فريق يهيمه الله للخصلة اليسرى ، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاص على من أنفقوا .

(٢) فريق يهيمه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا بالشهوات ، وأنكروا ما وعد الله به من ثواب الجنة .

(ب) الجزاء في الآخرة لكل منهما وجعله إما جنة ونعما ، وإما نارا وعذابا ألما .

سورة الضحى

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة الفجر .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر فى السابقة « وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى » ولما كان سيد
الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ذلك سبحانه بذكر نعمه عز وجل عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُمْطِرُكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) .

شرح المفردات

الضحى : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ،
وسجى : أى سكن ؛ والمراد سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة ، ما ودعك
ربك : أى ما تركك ، وما قلى : أى وما قلاك وما أبغضك ، والقلى : شدة
النكره والبغض .

المعنى الجملى

أجمع الرواة على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فترة فى نزول الوحي على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حزن لذلك حزناً شديداً حتى غدا مراراً إلى الجبال
ليتردى من شواقتها ، وأنه ما كان يمنع إلا تمثل الملك له وإخباره إياه أنه
رسول الله حقاً .

وإنما حزن لهذه الفترة خيفة أن يكون ذلك من غضب أوقلى من ربه له ،
بعد أن ذاق حلاوة الاتصال به ، وشاهد من جمال الأنس بالوحي ما يثير لواعج

شوقه إلى التزوّد منه ، وقد كان يعلم أنه بشر ، لا فضل له على غيره إلا بهذا القرب الذى يعلو به على من عداه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على تكميل نفسه وإعدادها لتحمل ما هى بسبيله من أعباء الرسالة .

لاجرم يكون حزنه لهذه الفترة شديدا ، وأن يتوجس منه خيفة ، ولا عجب أن يدعو ذلك إلى التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهتم بتنفيذه .

ومن ثم نزلت هذه السورة حاملة له أجمل البشرى ، ملقبة فى نفسه الطمأنينة ، معدّدة ما أنعم الله به عليه ، وكأنه تعالى يقول لرسوله : إن من أنعم عليك بكذا وكذا لم يكن ليتركك ولا ينسأك بعد أن هياك لحمل أمانته ، وأعدك للاضطلاع بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحي عنك ، ولا يكن فى صدرك حرج منها ، فما ذلك إلا لتثبيت قلبك ، وتقوية نفسك على احتمال مشاقها .

الإيضاح

(والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى) أقسم سبحانه لرسوله بآيتين عظيمتين من آياته فى الكون ضحى النهار وصدرة ، والليل وظلامه — إنه ماتركك وما أبغضك كما يقال لك وما تتوهم فى نفسك .

ثم ذكر له ما يثلج صدره ، وما فيه كمال الطمأنينة والبشرى فقال :

(وللاخرة خير لك من الأولى) أى وإن أحوالك فى مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها ، وأن كل يوم سترداد عزّا إلى عزّ ، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله ، وسأمنحك كل آن جلالا فوق جلالات ، ورفعة فوق رفعتك ؛ وكأنه يقول له لا تظن أنى كرهتك أو تركتك ، بل أنت عندى اليوم أشد تمكينا وأقرب اتصالا .

ولقد صدق الله وعده ؛ فما رال يسمو بنبهه ، ويرفع درجته يوما بعد يوم حتى بلغ الغاية التى لم يبلغها أحد قبله ، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه ،

وجعل محبته من محبة الله ، واتباعه والافتداء به سبباً للفوز العظيم بنعيمه ، وجعله وأُمته شهداء على الناس جميعاً ، ونشر دينه ، وبلغ دعوته إلى أطراف المعمورة ؛ فأى فضل فوق ذلك الفضل ؟ وأى نعمة أضفى من هذه النعمة ؟ وأى إكرام فوق هذا الإكرام ؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم زاده فى البشرى فقال :

(ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى ولسوف يظهر ربك عليك نعمه ، ويوالى عليك منته ، ومنها توارد الوحي عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وسيظهر دينك على الأديان كلها ، وتعلمو كلمتك ويرتفع شأنك على شؤون الناس جميعاً .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

شرح المفردات

ضالا فهدى : أى غافلا عن الشرائع فهذاك إلى مناهجها ، عائلا : أى فقيراً ، فلا تقهر : أى فلا تستذل ، فلا تنهر : أى فلا تزجر ، فحدث : أى فأد الشكر لمولها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر رضاه عن رسوله ، ووعد له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ، ويثلج قلبه — أردف ذلك بيان أن هذا ليس عجباً منه جل شأنه ، فقد أنعم عليه بالنعمة الجليلة قبل أن يصير رسولا ؛ فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته ،

ثم نهاه عن أمرين : قهر اليتيم وزجر السائل ، لما لهما من أكبر الأثر في التعاطف والتعاون في المجتمع ، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوى الحاجة ، ثم أمره بشكره على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كل منها في موضعها وأداء حقها .

الإيضاح

(ألم يحذك يتيماً فأوى) أى ألم تكن يتيماً لأب لك يُعنى بتربيتك ، ويقوم بشئونك ، ويهتم بتنشئتك ؛ فما زال بحميك ويتعهدك برعايته ، ويحبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنسانى .

وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً ، إذ توفي أبوه وهو فى بطن أمه ، فلما ولد عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب ، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفي والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ فى سن الثامنة ، فكفله عمه أبوطالب بوصية من عبد المطلب ، فكان به حفيئاً ، شديد العناية بأمره ، وما زال يتعهد به حتى كبر وترعرع . حتى أرسله الله رسولا ، فقام يؤازره وينصره ، ويدفع عنه أذى قريش حتى مات ، فاستطاعت قريش أن تنال منه ، وتجراً عليه سفهاؤهم ، وسلطوا عليه علمانهم ، حتى اضطروه إلى الهجرة .

ولو تدبر المنصف فى رعاية الله له ، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته ، لوجد من ذلك العجب ، فلقد كان اليتيم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق ، لقلة من يخفل باليتيم ويحرص عليه ، وكان فى خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية فى إضلاله لو أنه سار سيرتهم ، لكن عناية الله كانت ترعاه ، وتمنعه السير على نهجهم ، فكان الوفى الذى لا يمين ، والأمين الذى لا يخون ، والصادق الذى لا يكذب ، والطاهر الذى لم يدنس برجس الجاهلية .

(ووجدك ضالاً فهدى) أى ووجدك حائراً مضطرباً فى أمرك ، مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم ؛ فعبادتهم باطلة ، ومعتقداتهم فاسدة ، وكان

يفكر في دين اليهودية ، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه ، إذ بدلوا دينهم ، وخالفوا ما كان عليه رسولهم ، فيبدو عليه الإعراض عنه ، ثم يفكر في دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود ، فيرجع عن التفكير فيه ، وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع .

وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه في العرب أنفسهم من سخف في العقائد ، وضعف في البصائر ، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم ، وشؤمها في أحوالهم ، بفرق الكلمة ، وتغانيهم في سفك الدماء ، والإشراف على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم ، وتحكمهم فيهم ؛ فالحبشة والفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر . فما العمل في تقويم عقائدهم ، وتخليصهم من تحكم العادات فيهم ؟ وأى الطرق ينبغي أن يسلك في إيقاظهم من سباتهم ؟

وقصارى ذلك ، إنه كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل ، وبدلوا دين أبيهم إبراهيم ، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيراً من حالهم . سكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه ، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح السبل كما قال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

(ووجدك عائلاً فأغنى) أى إنك كنت فقيراً لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقة وجارية ، فأغناك بما أجراه لك من الرمح في التجارة ، وبما وهبته لك جديحة من مالها .

وخلاصة ما تقدم — إن من آواك في يملك ، وهذاك من ضلالك ، وأغناك من فقرك ، لا يتركك في مستقبل أمرك .

وبعد أن بين نعمه السابقة طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها فقال :

(فأما اليتيم فلا تقهر) أى لا تقهر اليتيم ولا تستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ،
وهذب به بمكارم الأخلاق ، ليكون عضوا نافعا في جماعتك ، لا جُرثومة فساد يتعدى
أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك .

ومن ذاق مرارة الضيق في نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها في غيره ، وقد كان
صلى الله عليه وسلم يقيم ، فباعد الله عنه ذل اليتيم فأواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل
يتيم شكرا لله على نعمته .

(وأما السائل فلا تنهر) أى وأما المستجدى فلا تزجره ، ولكن تفضل عليه
بشيء أو رده ردًا جميلا ، وقد يكون المراد من (السائل) المسترشد ، وهو أيضا
يُطلب الرفق به و بيمان ما تشكل عليه من الأمر .

(وأما بنعمة ربك فحدث) أى أوسع في البذل على الفقراء بمالك ، وأفض من
نعمه الأخرى على طالبها ، ويس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة في حديثها ، فإن
ذلك ليس من كرم الأخلاق في شيء .

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتنموا ما لهم ، لتقوم لهم الحجة في قبض أيديهم
عن البذل ، ولا تجدهم إلا شاكين من القُل ؛ أما الكرماء فلا يزالون يظهرون
بالبذل مما آتاهم الله من فضله ، ويجهزون الخدم لما أفاض عليهم من رزقه .

وقد استفاضت الأحاديث بأنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الإتيان على
الفقراء ، عظيم الرأفة بهم . واسع الإحسان إليهم ، وكان يتصدق بكل ما يدخل
في ملكه ويبييت طويلا .

اللهم صل على محمد عبدك ، ورسولك الذى أرحيت إليه وأرضيته ، وشرحت
صدره ، واجعلنا من الذين يقتفون آثاره ، ويتبعون سنته .

مقاصد السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد :

- (١) أن الله ما قلا رسوله ولا تركه .
- (٢) وعد رسوله بأنه سيكون في مستأنف أمره خيرا من ماضيه .
- (٣) تذكيره بنعمه عليه فيما مضى وأنه سيواليها عليه .
- (٤) طلب الشكر منه على هذه النعم .

سورة الشرح

هي مكية ، وآيها ثمان ، نزلت بعد سورة الضحى .

وهي شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة ، وكانا يقرأنهما في الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما بالبسملة ، ولكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنَّا وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) .

شرح المفردات

الشرح : البسط والتوسعة ، والعرب تطلق عظم الصدر وتريد به القوة وعظيم المنة ، والمسرة وانبساط النفس ، ويفخرون بذلك في مدائحهم ، من قبل أن سعة

الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضرا لا يضيق ذرعا بأمر ، والوزر : الحمل الثقيل ، وأنقض : أى أثقل ، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض ، أى صوت خفى .

الإيضاح

(ألم نشرح لك صدرك) أى إنا شرحنا لك صدرك ، فأخرجناك من الخيرة التى كنت تضيق بها ذرعا ، بما كنت تلاقى من عناد قومك واستكبارهم عن اتباع الحق ، وكنت تتلمس الطريق لهدايتهم ، فهديت إلى الوسيلة التى تنقذهم بها من الشهلكة ، وتجنبهم الردى الذى كانوا مشرفين عليه .

وقصارى ذلك — إنا أذهبنا عن نفسك جميع الهموم حتى لا تتقلق ولا تضجر ، وجعلناك راضى النفس ، مطمئن الخاطر ، واثقا من تأييد الله ونصره ، عالما كل العلم أن الذى أرسلك لا يخذلك ، ولا يمين عليك عدوا .

(ووضعنا عندك وزرك . الذى أنقض ظهرك) أى حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلا ، ونفسك به مطمئنة راضية ، ولو قوبلت بالإساءة من أرسلت إليهم ، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم ، فالعبء مهما ثقل عليه يخففه ما يحيش بقلبه من العطف عليهم ، والحدب على راحتهم ، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقامى فى سبيل حياتهم وتلذذتهم .

(ورفعنا لك ذكرك) أى وجعلناك على الشأن . رفيع المنزلة ، عظيم القدر ، وأى منزلة أرفع من النبوة التى منحكمها الله ؟ وأى ذكر أنبه من أن يكون لك فى كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمثلون أوامرك ، ويحتنبون نواهيك ، ويرون طاعتك مغنا ، ومعصيتك مغرما .

وهل من فخر بعد ذكرك فى كلمة الإيمان مع العلى الرحمن ؟ وأى ذكر أرفع

من ذكر من فرض الله على الناس الإفراز بنبوته ، وجعل الاعتراف برسالاته بعد بلوغ دعوته ، شرطا في دخول جنته .

هذا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أتخذ أمما كثيرة من رِقِّ الأوهام ، وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل والإرادة ، والإصابة في معرفة الحق ، ومعرفة من يقصد بالعبادة ، فالتحدث كلمتهم في الاعتقاد بإله واحد بعد أن كانوا متفرقين طرائق قديدا ، عباد أصنام وأوثان ، وشموس وأقمار ، لا يجدون إلى الهدى سبيلا ، ولا للوصول إلى الحق طريقا ؛ فأزاح عنهم تلك الغمّة ، وأتار لهم طريق الهدى والرشاد.

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

شرح المفردات

العسر : الفقر والضعف وجهالة الصديق وفوة العدو وإنكار الجميل ، فرغت : أتم من عمل ، فانصب : أى اتعب .

المعنى الجملى

بعد أن أبان بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر بعد استحكام الكرب ، وضيق الأمر — ذكر أن ذلك قد وقع على ما جرت به سنته في خلقه ، من إحداث اليسر بعد العسر ، وأكد هذا بإعادة القضية نفسها مؤكدة لقصد تقريرها في النفوس وتمكينها في القلوب .

الإيضاح

(فإن مع العسر يسرا) أى فإن مع الضيق فرجا ، ومع قلة الوسائل إلى إدراك المطلوب مخرجاً إذا تدرّع المرء بالصبر وتوكل على ربه ، ولقد كان هذا حال النبي

صلى الله عليه وسلم فإنه قد ضاق به الأمر في بادئ أمره قبل النبوة وبعدها إذ تألب عليه قومه . لكن ذلك لم يُثنيه عن عزمه ، ولم يقل من حذّه ، بل صبر على مكروهم ، وألقى بنفسه في غمرات الدعوة متوكلا على ربه ، محتسبا نفسه عنده ، راضيا بكل ما يجد في هذا السبيل من أذى ، ولم تزل هذه حاله حتى قبض الله له أنصاراً أشربت قلوبهم حبه ، وملئت نفوسهم بالرغبة الصادقة في الدفاع عنه وعن دينه ، ورأوا أن لحياته لهم إلا بهدم أركان الشرك والوثنية ، فاشتروا ما عند الله من جزيل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأزواجهم ، ثم كان منهم من قوَّض دعائم الأكاسرة ، وأباد جيوش الأباطرة والقيصرة .

وقصارى ذلك — إنه مهما اشتد العسر ، وكانت النفس حريصة على الخروج منه ، طالبة كشف شدته ، مستعملة أجهل وسائل الفكر والنظر في الخلاص منه ، معتصمة بالتوكل على ربها ، فإنها ولا ريب ستخرج ظافرة مهما أقيم أمامها من عقبات ، واعترضها من بلايا ومحن .

وفي هذا عبرة لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيبدل حاله من الفقر إلى الغنى . ومن قلة الأعداء إلى كثرة الإخوان ، ومن عداوة قومه إلى محبتهم ، إلى أشباه ذلك . ثم أعاد الأسلوب للتوكيد فقال :

(إن مع العسر يسرا) إذا احتملت ذلك العزيمة الصادقة ، وعملت بكل ما أوتيت من قوة على التخلص منه ، وقابلت ما يقع من عسر بالصبر والأخذ بأسباب تفريجه ولم تستبطى الفرج ، فيدعوها ذلك إلى التواني وفطور العزيمة .

وبعد أن بين نعمه على رسوله ووعدته بتفريج كرب — طلب منه أن يقوم بشكر هذه النعم بالانقطاع لصالح العمل والاتكال عليه دون من عداه فقال :

(فإذا فرغت فانصب) أى فإذا فرغت من عمل فأتعب في مزاولة عمل آخر . فإنك ستجد في المذاكرة لذة تقرُّ بها عينك ويشج لها صدرك .

وفي هذا حث له عليه الصلاة والسلام على المواظبة على العمل واستدامته .
 (وإلى ربك فارغب) أى ولا ترغب فى ثواب أعمالك وتشيرها ، إلا إلى ربك
 وحده ، فإنه هو الحقيق بالتوجه إليه والضرعة له ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته
 وسلامه على سيد المرسلين .

مقاصد السورة

تشتمل هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد :

- (١) تعداد ما أنعم به على رسوله من النعم .
- (٢) وعده له بإزالة ما نزل به من الشدائد والحن .
- (٣) أمره بالمداومة على الأعمال الصالحة .
- (٤) التوكل عليه وحده ، والرغبة فيما عنده .

سورة التين

هى مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة البروج .
ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر فى السورة السابقة حال أكمل خلق الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر هنا حال النوع الإنسانى وما ينتهى إليه أمره ، وما أعد سبحانه لمن آمن برسوله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥)
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ
بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) .

شرح المفردات

المراد بالتين كما قال الأستاذ الإمام هنا : عهد الإنسان الأول الذى كان يستظل فيه بورك التين حينما كان يسكن الجنة ؛ والمراد بالزيتون : عهد نوح عليه السلام وذريته حينما أرسل الطير فحمل إليه ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وعلم أن الطوفان انحسر عن الأرض ، وطور سينين : الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عنده ، والبلد الأمين : مكة التى كرمها الله بالسكبة ، والتقويم : جمل الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه فى التأليف والتعديل ؛ يقال قومه تقويمًا ، واستقام الشيء وتقويمه : إذا جاء وفق التقويم ، وممنون : أى مقطوع ، والذيين : الجزاء بعد البعث .

الإيضاح

(والتين) أى قسما بعصر آدم أبى البشر الأول ، وهو العهد الذى طفق فيه آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة .

(والزيتون) أى وقسما بعصر الزيتون عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان ، ونجى نوحا فى سفينته ، وبعد لأى ماجاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هذا الشجر فاستبشر ، وعلم أن غضب الله قد سكوت وأذن للأرض أن تبتلع ماءها لتعمر ويسكنها الناس ، ثم أرسى السفينة ونزل هو وأولاده وعمرروا الأرض .

وقصارى ذلك — إن التين والزيتون يذكرا ن بهذين العصرين عصر آدم أبى البشر الأول ، وعصر نوح أبى البشر الثانى .

(وطور سينين) وهو تذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى وقومه ، وما كان بعد ذلك من إنزال التوراة عليه ، وظهور نور التوحيد بعد أن تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وما زال الأنبياء بعده يدعون أقوامهم إلى التمسك بهذه الشريعة ، ثم عرضت لها البدع ، فجاء عيسى مختصا لها مما أصابها ، ثم أصاب قومه ما أصاب الأمم قبلهم من الاختلاف فى الدين ، حتى من الله على الناس بعهد النور المحمدى ، وإليه الإشارة بقوله :

(وهذا البلد الأمين) الذى شرفه الله بميلاد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكرمه بالبيت الحرام .

وخلاصة ماسلف — إن الله أقسم بهذه العهود الأربعة التى كان لها أثر بارز فى تاريخ البشر ، وفيها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور .

ثم ذكر مخلوف عليه فقال :

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) أى لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة ، فجعلناه مديد القامة ، حسن البرّة ، يتناول ما يريد بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه ؛ إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف ، واستنباط الحيل التي بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات ، وله من الحول والطول ما يمتد إلى كل شيء .

لكن قد غفل عما ميّز به ، وظنّ نفسه كسائر المخلوقات ، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل ، ولا ترضى عنه الفطرة ، وانطلق يتزوّد من متاع الدنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأعرض عن النظر فيما ينفعه في معاده ، وما يرضى به ربه ، وما يوصله إلى النعيم المقيم ، « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ثم رددناه أسفل سافلين) أى إنه استشرى فيه الفساد ، وأمعن في سبيل الضلالة ، ونسى فطرته وعاد إلى حيوانيته ، وتردّى في هاوية الشرور والآثام إلا من عصمه الله فظلوا على فطرتهم التي فطرهم عليها ، وهم من عتاهم سبحانه بقوله :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) أى إلا الذين أشربت قلوبهم عقيدة الإيمان ، وعرفوا أن لهذا الكون موجدا دبر أمره ، ووضع خلقه شرائع يسرون على نهجها ، وأيقنوا أن للشر جزاء وللخير مثله .

وهؤلاء سيهطون أجر صالح أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية ، وهم أتباع الأنبياء ومن هداهم الله إلى الحق من كل أمة .

ثم وبخ المشركين على التكذيب بالجزء بعد ظهور الدليل عليه فقال :

(فما يكذبك بعد بالدين ؟) أى فأتى سبب يملك أيها الإنسان على التكذيب

بالجزاء على أعمالك بعد أن تظاهرت لديك الأدلة على ذلك ، فإن الذى خلقك من
نطفة ثم سيرك بشراً سوياً — قادر على أن يبعثك ويحاسبك فى نشأة أخرى ،
ومن شاهد ذلك وتدبره وأعمل فيه فكره ثم بقى على عناده ، فقد طمس على بصيرته
وضل سواء السبيل .

ثم زاد ماسلف توكيداً فقال :

(أليس الله بأحكم الحاكمين) صنعاً وتديراً ، ومن ثم وضع الجزاء لهذا النوع
الإنسانى ، ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها له بأصل فطرته ، ثم انحدر
منها إلى المنازل السفلى بجهله وسوء تدييره ، ولهذا أرسل له الرسل مبشرين
ومنذرين ، وأنزل معهم الشرائع ليبينوها له ويدعوه إليها رحمة به .
سبحانك ، ما أعذلك وأحكمك ، وأنت اللطيف الخبير ، وإليك
المرجع والمصير .

سورة العلق

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، وهي أول ما نزل من القرآن .
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذكر
هنا خلق الإنسان من علق ، إلى أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح
والبيان لما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) .

تَقْدِمة تاريخية

جاء في صحيح الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي غار حراء
(حراء جبل بمكة) يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ،
حتى يجاء الوحي وهو في الغار إذ جاءه الملك فقال له : اقرأ ، قال ما أنا بقارىء ، قال :
فأخذه ثانية فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال : اقرأ ، قال ما أنا بقارىء . قال :
فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق
الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان
ما لم يعلم .

قال الرواة : فرجع ترجف بواده حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ،
فزملوه حتى ذهب عنه الروع ؛ فأخبر خديجة الخبر ، ثم قال : قد خشيت على نفسي ،
فقال له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق
الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة) وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ماترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على عيسى ، ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أومحرجي هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرا ، ثم لم ينشأ أن تؤنى ، رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

ومن ذلك تعلم أن صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن الكريم ، وأول رحمة رحم الله بها عباده ، وأول خطاب وجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما بقية السورة فهو متأخر النزول ، نزل بعد شيوع بعثته صلى الله عليه وسلم وبعد أن دعا قريشا إلى الإيمان به ، وآمن به قوم منهم ، وكان جمهورهم يتحرشون بمن آمن به ويؤذونهم ، ويحاولون ردّهم عن تصديقه ، والإيمان بما جاء به من عند ربه .

الإيضاح

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) أى صر قارئاً بقدرة الله الذى خلقك وإرادته بعد أن لم تكن كذلك ، فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، وقد جاء الأمر الإلهى بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً ، وسيُنزل عليه كتاباً يقرؤه وإن كان لا يكتبه .

وقصارى ذلك — إن الذى خلق الكائنات وأوجدھا ، قادر أن يوجد فيك القراءة ، وإن لم يسبق لك تعلمھا .

ثم بين كيفية الخلق فقال :

(خلق الإنسان من علق) العلق : الدم الجامد ، أى إن الذى خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق ، وآتاه القدرة على التسلط على كل شئ مما فى هذا العالم الأرضى ، وجعله يسوده بعلمه ، ويسخره لخدمته ، قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبي صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة .

والخلاصة — إن من كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقاً يسود المخلوقات الأرضية جميعها ، قادر أن يجعل محمداً صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يتعلم القراءة والكتابة .

(اقرأ) أى افعل ما أمرت به من القراءة .

وكرر الأمر لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة ؛ وتكرار الأمر الإلهى يقوم مقام تكرار المقروء ، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، تدبر قوله تعالى : « سَنَقْرِيكَ فَلَا تَنسَى » .

ثم أراح العذر الذى بينه صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ ، أى إني أعمى لا أقرأ ولا أكتب فقال :

(وربك الأكرم) أى وربك أكرم لكل من يرتجى منه الإعطاء ، فيسير عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة من بحار كرمه .

ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة فقال :

(الذى علم بالقلم) أى الذى جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بُعد الشقة ، كما أفهمهم بوساطة اللسان ؛ والقلم آلة جامدة لا حياة فيها وليس من شأنها الإفهام ، فمن جعل من الجماد لئيت الصامت آلة للفهم والبيان . أنيصعب عليه أن يجعل منك قارئاً مميّناً ، وتالياً معلماً ، وأنت إنسان كامل ؟

وقد وصف سبحانه نفسه بأنه خلق الإنسان من علق ، وأنه علمه بالقلم ، ليبين أحوال هذا الإنسان ، وأنه خلق من أحقر الأشياء ، وبلغ في كماله الإنساني أن صار عالماً بحقائق الأشياء ، فكأنه قيل : تدبر أيها الإنسان تجد أنك قد انتقلت من أدنى المراتب وأخسها ، إلى أعلى الدرجات وأرفعها ، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شيء خلقه .

ثم زاد الأمر بيانا بتمام نعمه فقال :

(علم الإنسان ما لم يعلم) أى إن من صدر أمره بأن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم قارئاً ، هو الذى علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم ، ويمتاز به عن غيره من الحيوان ، وكان فى بدء أمره لا يعلم شيئاً ، فهل من عجب أن يعلمك القراءة ، ويعلمك كثيراً من العلوم سواها ، ونفسك مستعدة لقبول ذلك .

وفى الآية دليل على فضل القراءة والكتابة والعلم .

ولعمرك لولا القلم ما حفظت العلوم ، ولا أحصيت الجيوش ، ولضاعت الديانات ، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل ، وعلومهم ومخترعاتهم وقوانينهم ، ولما سُجِّل تاريخ السابقين : المسيئين منهم والحسنين ، ولا كان علمهم نبراساً يهتدى به الخلف ، ويبقى عليه مابه ترقى الأمم ، وتتقدم المخترعات .

كما أن فيها دليلاً على أن الله خلق الإنسان الحى الناطق مما لا حياة فيه ولا نطق ، ولا شكل ولا صورة ، وعلمه أفضل العلوم وهى الكتابة ، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئاً ، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان !

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣)

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا إِنَّ لَمْ يَنْتَهَ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)
 نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلَمِيدَغُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ (١٨)
 كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) .

شرح المفردات

المراد بالإنسان : أى فرد من هذا النوع ، يطفى : أى يتكبر ويتمرد ، استغنى :
 أى صار ذا مال وأعوان يغنى بهما ، والرجعى والمرجع والرجوع : المصير والعودة ،
 أرايت : أى أخبرنى ؛ والمراد من الاستخبار إنكار الحال المستخبر عنها وتقييمها على
 نحو ما جاء فى قوله تعالى : «أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ الْمَدِينِ؟» والسفع : الجذب بشدة ،
 والناصية : شعر الجبهة ؛ والمراد بذلك القهر والإذلال بأشد أنواع العذاب ، والنادى :
 المكان الذى يجتمع فيه القوم ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله قال زهير :

وفيهـم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم وأنديـةٌ يفتابها القول والفعل

والزبانية : واحد هم زِبْنِيَّة (بكسر فسكون) وزِبْنَى (بالكسر) ؛ والمراد بهم
 الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى مطلع السورة دلائل التوحيد ظاهرة ، ومظاهر القدرة
 الباهرة ، وعلامات الحكمة ودقة الصنع ؛ وكان ذلك كله بحيث يتعد من العاقل
 ألا يلتفت إليه ، أتبعه جل شأنه ببيان السبب الحقيقى فى طغيان الإنسان وتكبره
 وتماديـه ، وهو حبه للدنيا ، واشتغاله بها . وجعلها أكبر هممه ، وذلك يعمى قلبه ،
 ويجمله يغفل عن خالقه ، وما يجب له فى عنقه من إجلال وتعظيم ؛ وقد كان ينبغى
 أن يكون حين الفنى والميسرة ، وكثرة الأعوان ، واتساع الجاه ، أشد حاجة إلى الله .

منه في حال الفقر والمسكنة ، لأنه في حال فقره لا يتنى إلا سلامة نفسه وأعضائه ، أما في حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة ممتلكاته وأتباعه وأمواله .

ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فمجازيه على ما يعمل ؟ وقد بلغ من حمقه أن يأمر ونهى ، وأنه يوجب على غيره طاعته ، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه .

أما ينبغي له أن يهتدى ويستغل بأمر نفسه ؟ فمن كان ذا عقل ورأى وثروة وجاء وأعوان ، واختار الهدى ، وتخلق بأخلاق المصلحين ، كان ذلك خيرا له ، وأجدى .

وإنا لننكثن به نكالا شديدا في العاجلة ، ونهيننه يوم العرض والحساب ، وليدع أمثاله من المغرورين ، فإنهم لن ينعوه ، ولن ينصروه .

ثم ختم السورة بأمره بالتوفر على عبادة ربه فعلا وإبلاغا للناس ، مبتغيا بذلك القربى منه .

الإيضاح

(كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى) أى حقا إن أمر الإنسان لمعجب فإنه متى أحسن من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذى يجب أن يكون عليه ، واستكبر عن الخشوع لربه ، وتطاول بأذى الناس ، وعدّ نفسه فوقهم جميعا ، وقد كان من حقه أن يكون وإياهم أعضاء أسرة واحدة يتعاونون في السراء والضراء . ويجب الخير لهم كما يجب لنفسه .

روى البخارى : « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وروى عن علي في نصيحته لابنه الحسن : « أحب الخير لفيرك كما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها » .

وقد حكم على الإنسان باعتبار الأعم الأغلب في أفراد ، وإلا فإن الغنى والقوة في أيدي الأنقياء من وسائل الخير ، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ،

لأنهم يستعملونها فيما يرضى ربه ، ويعود عليهم بالنفع فى دينهم ودنياهم .
ثم حذر من الطغيان وأندّر من عاقبته ، وأبان أن ما بيد الطاغى عارية ، وليست
معه ببقية ، وأن مرجع الأمر كله لله فقال :

(إن إلى ربك الرجعى) أى إن المرجع إلى ربك وحده ، وهو مالك أمرك
وما تملك ، وسيبين لك عظيم غرورك حينما تخرج من هذه الحياة ، وتظهر فى مظهر
الذل ، وتحاسب على كل ما اجترحت فى حياتك الأولى ، قل أو أكثر ، عظم أو حقّر
كما قال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَتَّبِعُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، ثُمَّ خِعِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَالٌ »

ثم أعقب ما تقدم بالوعيد والتهديد والتعجيب فقال :
(أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى) أى أخبرنى عن حال هذا الأحمق ، فإن
أمره لعجب ، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعتاد أن ينهى عبدا من عبيد الله عن
صلاته ، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته . وهو ليس بخالق ولا رازق ، فكيف
يستطيع ذلك لنفسه ، ويعرض عن طاعة الخالق الرازق .

وفد روى أن عليا كرم الله وجهه رأى قوما يصلون قبل صلاة العيد فقال :
ما رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقيل له : ألا تنهاهم ؟ فقال :
أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى » .

(أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى) أى أخبرنى عن حال ذلك
الطاغية لو تخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى الله ، أما كان ذلك خيرا له
من الكفر به والنهى عن طاعته ، فإن ذلك يفوت عليه أعلى المراتب ، ويجعله
فى أحط الدرجات وأدناها .

والخلاصة — أما كان الأفضل له أن يهتدى ويهتدى غيره إلى خصال البر والخير ، وقد كانت هذه حال النبي صلى الله عليه وسلم ، فعمله كان إما في إصلاح نفسه بالعبادات من صلاة وصيام وغيرها ، وإما في إصلاح غيره بأمره بالتقوى ودعائه إليها .

(أ رأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى) أى أنبئنى عن حال هذا الكافر، إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة ، وأمارة القدرة الباهرة ، وأعرض عن دعوتك والاستماع لهديك ، ودعا الناس إلى مثل ذلك أفلا يخشى أن تحل به قارعة ، ويضيقه من عذاب الله ما لا يقبل له باحتماله ؟ ألا عقل له يرشده إلى أن خالق هذا الكون مطلع على عمله ، وأنه حكيم لا يهمل عقابه ، وأنه سيؤاخذ به بكل ما اقترف من جُرم ؟

ولا يخفى ما في هذا من تهديد وتخويف للعصاة والمذنبين .

ثم زاد في الزجر والوعيد فقال :

(كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة) أى لا يستمرن بهذا الكافر جهله وغروره وطغيانه ، قسما لئن لم ينته عن هذا الطغيان ، وكيف عن نهى المحلى عن صلاته لتأخذ بناصيته ولنذيقه العذاب الأليم .

ألا إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها، مع أنها في قبضة خالقها ، فهي تزعم ما لا حقيقة له ، وإنها خاطئة ، لأنها طغت وتجاوزت حدها ، وعتت عن أمر ربها . ونسبة الكذب والخاطئة إلى الناصية ، والكاذبُ والخَطِيءُ صاحبها، من قبل أنها مصدر الغرور والكبرياء .

وقد أمر هذا الكافر على ضرب من التهمك والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوى النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به فقال :

(فليدع ناديه . سندع الزبانية) أى فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم لينع المصلين المخلصين ، ويؤذى أهل الحق الصادقين ، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسنخ

ربه والتنكيل به ، وسندعو له من جنودنا كل قوى متين لا قبل له بمغالبة فيهلكه في الدنيا ، أو يردبه في النار في الآخرة .

والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه ، وسموا زبانية لأنهم يزبئون الكفار في النار أى يدفعونهم ويسوقونهم إليها .

روى أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين أغلظ له في القول : يا محمد بمن تهديدى ؟ وإني لأكبر هذا الوادى ناديا .

وروى أنه قال : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقاتل : فوعد لأخذه الملائكة .

ثم بالغ في زجر الكافر عن صفته وكبريائه ، ونفى قدرته على ما تهدد به فقال : (كلا لا تطعه واسجد واقترب) أى إنه لن يصل إلى زعمه وأن يدعو نادى قومه ، ولئن دعاهم لا ينفعونه ولا ينصرونه ، فإنه أذل وأحق من أن يقاومك ، فلا تطعه إذا نهاك عن عبادة ربك كما قال : « فَلَا تُطِيعِ الْمُسَكِّدِينَ » وتوفر على عبادته بالفعل وإبلاغ الرسالة للناس ، وتقرب بذلك إليه ، ولا تبعد عنه بتركها ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

وصل وسلم ربنا على من أمرته بالتقرب إليك ، ونهيته عن طاعة عدوك الصائف المتكبر .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على المقاصد الآتية :

(١) حكمة الله في خلق الإنسان ، وكيف رقاها من جرثومة صغيرة إلى أن بسط سلطانه على جميع العوالم الأرضية .

(٢) إنه لكرمهم وعظيم إحسانه علمه من البيان ما لم يعلم ، وأفاض عليه من العلوم ما جعل له القدرة على غيره مما في الأرض .

(٣) بيان أن هذه النعم على توافرها قد غفل عنها الإنسان ، فإذا رأى نفسه خفيا صلف وتجبّر واستكبر .

سورة القدر

هي مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة عبس .
ومناسبتها لما قبلها . أن في تلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ
القرآن باسم ربه الذى خلق ، واسم الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، وفي هذه ذكر القرآن
ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس
وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته
السورة الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ (٢) لَيْلَةُ
الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا يَأْذِنُ
رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) .

شرح المفردات

القدر : العظمة والشرف . من قولهم لفلان قدر عند فلان : أى منزلة وشرف ،
تنزل الملائكة : أى تنزل وتجلى للنفس الطاهرة التى هيأها الله لقبول تجليها ، وهى
نفس النبي الكريم ، سلام : أى أمن من كل أذى وشر ، مطلع الفجر : أى
وقت طلوعه .

تَقْدِيمَةٌ تَبِينُ مِيقَاتِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ

أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم
في أربعة مواضع من كتابه الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا :

- (١) فى سورة القدر: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .
- (٢) فى سورة الدخان: « حُمَ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .
- (٣) فى سورة البقرة: « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .
- (٤) فى سورة الأنفال: « وَاعْمَلُوا أَلْمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ أَمْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

فآية القدر صريحة فى أن إنزال القرآن كان فى ليلة القدر ، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان فى ليلة مباركة ، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان فى شهر رمضان ، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله كان فى ليلة اليوم المائل ليوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر ، التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ، ونصر حزب الرحمن على حزب الشيطان ، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هى ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان .

الإيضاح

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) أى إِنَّا بَدَأْنَا نَزْلَ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ فى ليلة الشرف ، ثم أنزلناه بعد ذلك منجماً فى ثلاث وعشرين سنة محسب الحوادث التى كانت تدعو إلى نزول شىء منه ، تبيناً لما أشكل من الفتوى فيها ، أو عبرة

بما يقص فيه من قصص وزواجر ، ولا شك أن البشر كان في حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم ودنياهم ، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى وأمر النشأة الآخرة ، لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الخفية حتى يسئوا لأنفسهم من النظم ما يقنعهم عن الدين والتدين ، وحوادث الكون التي تراها رأى العين كغفلة بأن تبين وجه الحق في ذلك ، فإن الناس من بدء الخليقة يُبدئون ويعيدون ، ويصححون ويراجعون في قوانينهم الوضعية ، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمن أنها لا تكفي لهدى المجتمع والأخذ بيده إلى موضع الرشاد ، وتمنعه من الوقوع في مهاوى الزلل ، ومن ثم قيل : لاغنى للبشر عن دين ولا عن وازع وروحى يضع لهم مقاييس الأشياء وقيمتها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها ، كما لاغنى له عن الاعتقاد في قوة غيبية يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشك ، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها اه .

ثم أشار إلى أن فضلها لا يحيط به إلا هو فقال :

(وما أدراك ما ليلة القدر ؟) أى ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها ، ومنتهى علو قدرها .

وفى هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء ، وإنما يعلمه علام الغيوب الذى خلق العوالم وأنشأها من العدم .

ثم أوضح مقدار فضلها فقال :

(ليلة القدر خير من ألف شهر) لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى وتكون فاتحة التشريع الجديد الذى أنزل لخير البشر ، ويكون فيها وضع الحجر الأساسى لهذا الدين الذى هو آخر الأديان الصالح لهم فى كل زمان ومكان ، هى خير من ألف شهر من شهورهم التى كانوا يتخبطون فيها فى ظلام الشرك وضلال الوثنية ، حيارى لا يهتدون إلى غاية ، ولا يقفون عند حد .

وقد يكون التحديد بالألف جارياً على ما يستعملونه في مخاطبتهم من إرادة الكثرة منه ، لا إرادة العدد المعين ، كما جاء في قوله : « يَوْذُ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

والله تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعانى التى تدعو إلى التفضيل وله الحكمة البالغة .

وأى عظمة أعلى من عظمة ليلة يتبدى فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه صلى الله عليه وسلم حقب متتابعة وهم فى ضلال الوثنية .

وأى شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلهية على قباب رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة بعباده ، يبشرهم وينذرهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويحمل منهم أمة تحرر الناس من استعباد الفياصرة ، وجبروت الأكاسرة ، ويجمعهم بعد الفرقة ، ويجمع شعوبهم بعد الشتات .

فحق على المسامين أن يتخذوا هذه الليلة عيداً لهم ، إذ فيها بدأ نزول ذلك الدستور السماوى ، الذى وجه المسلمين تلك الوجهة الصالحة النافعة ، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياضته بأنفسهم وأموالهم ، شكرياً له على نعمه ، ورجاء مشوبته .

ثم ذكر سبحانه بعض مزايا هذه الليلة المباركة فقال :

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) أى تنزل الملائكة من عالمها لروحاني حتى تمثل لبصره صلى الله عليه وسلم ، وتمثل له الروح (جبريل) مبلغاً للروحى ، وهذا التجلى على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هياأ لقبوله ليبلغ عباده ما فيه الخير والبركة لهم .

ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شئونه تعالى ، لا نبحت عن كيفية ، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره ، فما عرف العالم بعد علمه

المسأى بشتى وسائله إلا النذر اليسير من الأكران كما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

والخلاصة — إن هذه الليلة عيد للمسلمين لنزول القرآن فيها ، وإيلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك ، تشاركهم فيها الملائكة بما يشعر بعظمتها ، ويشعر بفضل الإنسان وقد استخلفه الله في الأرض .

(سلام هي حتى مطلع الفجر) أي هذه الليلة التي حنفها الخير بنزول القرآن ، وشهود ملائكة الرحمن ، ليلة كلها سلامة وأمن ، وكلها خير وبركة ، من مبدئها إلى نهايتها ؛ ففيها فرج الله الكرب عن نبيه ، وفتح له سبل الهداية والإرشاد .

وصل وسلم ربنا على محمد الذي أكرمته بإنزال الدستور الشامل لخير البشر إلى يوم القيامة .

سورة البينة

هى مدنية . وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الطلاق .
 ووجه مناسبتها لما قبلها — أن قوله : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ » كالملة
 لا يزال القرآن ، كأنه قيل : إنا أنزلناه ؛ لأنه لم يكن الذين كفروا منكم عن كفرهم
 حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ
 حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ
 الْقِيمَةُ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ
 الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)
 جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

شرح المفردات

أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، المشركون : عبدة الأوثان والأصنام من
 العرب وغيرهم ، منفكين : أى مفارقين ما هم عليه ، والبينة : الحجة الواضحة ، والبراد

بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحف : واحدها صحيفة : وهى ما يكتب فيه ، مطهرة : أى مبرأة من الزور والضلال ، والقيمة : المستقيمة التى لا عوج فيها لاشتغالها على الحق ، والبينة : الثانية الدليل ، والإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصا له تعالى ، لا يشرك به سواه ، الدين : العبادة ، وإخلاص الدين لله : تنقيته من أدران الشرك ، حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو فى الأصل المائل المنحرف ؛ والمراد به المنحرف عن الزبغ إلى إسلام الوجه لله ، والبرية : الخليفة ، خشى الله : أى خاف عقابه .

المعنى الجملى

كان اليهود والنصارى من أهل الكتاب فى ظلام دامس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم ، إلا من عصم الله ، لأن أسلافهم غيروا وبدّلوا فى شرائعهم ، وأدخّلوا فيها ما ليس منها ، إما لسوء فهمهم لما أنزل على أنبيائهم ، وإما لاستحسانهم ضروبا من البدع توهموها مؤيدة للدين ، وهى هادمة لأركانها ، وإما لإخفام خصوصهم ، والرغبة فى الظفر بهم .

وقد توالى على ذلك الأزمان ، وكلما جاء جيل زاد على ما وضعه من قبلهم حتى خفيت معالم الحق ، وطمست أنوار اليقين .

وكان إلى جوار هؤلاء عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ممن مرت نفوسهم على عبادتها ، والخضوع لها ، وأصبح من العسير تحويلهم عنها ، زعما منهم أن هذا دين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وكان الجدل يفتش حينئذ بين المشركين واليهود ، وحينئذ آخر بين المشركين والنصارى ، وكان اليهود يقولون للمشركين : إن الله سيبعث نبيا من العرب من أهل مكة ، وينعتونه لهم ، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصرود وأزروه ، واستنصروا به عليهم حتى يبیدهم .

قد كان هذا وذاك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قام المشركون يفاوضونه

ويرفعون راية العصيان في وجهه ، وألبوا الناس عليه ، وآذوا كل من اتبعه وسلك
سبيله من أبار الله بصائرهم ، وشرح صدورهم لمعرفة الحق .

كذلك قلب له اليهود ظهر إيجن بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به ،
بذ وجدوا نعتهم عندهم في التوراة ، فزعموا أن ما جاء به من الدين ليس بالبديع الجديد ،
بل هو معروف في كتبهم التي جاءت على لسان أنبيائهم ، فلا ينبغي أن يتركوا ما هم
عليه من الحق ، ليتبعوا رجلا ما جاء بأفضل مما بين أيديهم ، بل قد بلغ الأمر بهم
أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويهددونهم بأنهم سيتبعون هذا
النبي وينصرونه .

في الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الذين يحدون واضح الحق ، ويفهمون
أعنيهم عن النظر فيه — نزلت هذه السورة .

الإيضاح

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم
البينة) أى لم يكن الذين جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا نبوته من
اليهود والنصارى والمشركين بمفارقين لكفرهم ، تاركين لما هم عليه من الغفلة عن
الحق . والوقوف عند ما كان عليه آبائهم ولو كانوا لا يعقلون شيئا ، حتى يأتيهم
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيحدث بحجته رجّة فيما رسخ من عقائدهم ، وتمكن
من عاداتهم ، ومن ثم أخذوا يحتجون لعنادهم بأن ما جاء به هو ما كان بين أيديهم
وليس بمستحسن أن يتبع ، والبقاء على ما هم عليه أجدر وأجل ، والسير على نهج
الآباء أشهى إلى النفس وأسلم .

ثم فسر البينة التي تعرفهم وجه الحق فقال :

(رسول من الله يتلو صحفا . مطهرة فيها كتب قيمة) أى هذه البينة هي محمد
صلى الله عليه وسلم يتلو لهم صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيف والتدليس ، والتي

تنبعث منها أشعة الحق كما قال : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »
 وفيها الصحيح القويم من كتب الأنبياء السابقين كوسى وعيسى وإبراهيم كما قال :
 « وَإِنَّهُ لَنِي زُبُرِ الْأَوَّابِينَ » ، وقال : « إِنَّ هَذَا لَنِي الضُّعْفِ الْأَوْتَى . ضَعُفَ
 إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » .

وقد يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته ، فإن كل سورة منه كتاب
 قويم ، أو الأحكام والشرائع التي تضمنها كلام الله ، والتي بها يتبين الحق من
 الباطل كما قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا .
 قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وقصارى ذلك — إن حال الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بعد
 مجيء الرسول تخالف حالهم قبلها ، فقد كانوا قبل مجيئه كفارا يتبعون في عمية من
 الأهواء والجهالات ، فلما بعث آمن به قوم منهم ، فلم تبق حالهم كما كانت قبل ،
 إلى أنهم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانوا جازمين بما هم عليه ، واثقين بصحته ،
 فلما بعث إليهم تغيرت حال جميعهم ، فمنهم من آمن به ، واعتقد أن ما كان فيه
 ضلال وباطل ، ومنهم من لم يؤمن ولكنه صار مترددا في صحة ما هو عليه ، أو هو
 واثق بعدم صحته ، ولكن يمنعه العناد والتكبر والافتداء بالآباء من متابعة الرسول
 صلى الله عليه وسلم .

ثم سأل رسوله صلى الله عليه وسلم عن تفرق القوم في شأنه فقال :

(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) أى لا تجميع
 نفسك عليهم حسرات ، ولا يكون في صدرك حرج منهم ، فإن هذا شأنهم الذي
 درجوا عليه ، ودينتهم ودين أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم ، وتفرقوا
 طرائق قددا حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند غيره بغيا وعدوا وبقولا بالتشهى
 والهوى ، ولم يكن تفرقهم تقصير حجتك أو خفاء شأنك عليهم ، فهم إن يجحدوا

ببنتك فقد جحدوا بيعة من قبلك ، وإن أنكروا نبوتك فقد أنكروا آيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم .

وإذا كانت هذه حال أهل الكتاب فما ظنك بالمشركون وهم أعرق في الجهالة وألس مقادة للهوى .

ثم أنبهم ووجههم على ماصاروا إليه من الأفعال ، وعلى ما بلغوه من فساد العقل والضلال فقال :

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أى إنهم تفرقوا واختلفوا وهم لم يؤمروا إلا بما يصاح دينهم ودنياهم ، وما يجب لهم سعادة فى معاشهم ومعادهم من إخلاص لله فى السر والعلن ، وتخليص أعمالهم من الشرك به ، واتباع ملة إبراهيم الذى مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة له كما قال : « تَمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وقال : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا » .

والمراد من إقامة الصلاة الإتيان بها مع إحضار القلب لهيبة المعبود ، ليعتاد الخضوع له ؛ وإيتاء الزكاة إنفاقها فيما عين لها فى الكتاب الكريم من المصارف . (وذلك دين القيمة) أى هذا الذى ذكر من إخلاص العبادة للخالق ، والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو الدين الذى جاء فى الكتب القيمة . وقصارى ماسلف — إن أهل الكتاب اختلفوا فى أصول الدين وفروعه ، مع أنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له فى عقائدهم وأعمالهم ، وألا يقلدوا فيها أبًا ولا رئيسًا ، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف .

وهذا مانسأه الله من حال أهل الكتاب فى افتراقهم فى دينهم ، فما بالناس نحن المسلمين وقد ملأنا ديننا بدعا ومحدثات ، وتفرقنا فيه شيعة ، أفليس مانحن فيه من ذل وهوان ، وضعف بين الأمم جزاء من ربنا لما صرنا إليه من انحراف عن منهج .
لشرع القويم ، والسير على الصراط المستقيم ؟

ثم بين جزاء الذين جحدوا رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :
 (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها)
 أى إن هؤلاء الذين دسّوا أنفسهم بقبیح الشرك واجترأوا المعاصى ، وإنكار الحق
 الواضح بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، يجازيهم ربهم بالعقاب الذى لا يخاصون
 منه أبدا ، ويدخلهم نارا تنطفى جزاء ما كسبت أيديهم ، وجزاء إعراضهم عما دعا
 إليه الداعى ، وهدت إليه الفطرة .

ثم حكم عليهم بحكم آخر فقال :
 (أولئك هم شر البرية) أى هم شر الخليقة على الإطلاق ، إذ منكر الحق بعد
 معرفته ، وقيام الدليل عليه منكر لعقله ، جالب لنفسه الدمار والوبال .
 وبعد أن ذكر جزاء الجاحدين الكافرين ، أردفه جزاء المؤمنين الخبيثين فقال :
 (إن الذين آمنوا وعموا الصالحات أولئك هم خير البرية) أى إن الذين سطع
 نور الدليل في قلوبهم ، فاهتدوا به وصدقوا بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وعموا
 صالح الأعمال ، قبلوا النفس في سبيل الله وجهاد أعدائه ، وبذلوا نفوس المال
 في أعمال البر ، وأحسنوا معاملة خلقه ، أولئك هم خير الخليقة ، لأنهم بمتابعة الهدى
 أدوا حق العقل الذى شرفهم الله به ، وبعملهم للصالحات حفظوا الفضيلة التى جعلها
 الله قوام الوجود الإنسانى .

ثم بين ماسيلة تون من جزاء عند ربهم فقال :
 (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أى
 هؤلاء يجازيهم ربهم بجنات يقيسون فيها أبدا ، وفيها من اللذائذ ما هو أكمل وأوفر
 من لذات الدنيا .

وعلينا أن نؤمن بالجنة ولا نبحث عن حقيقتها ، ولا أين موضعها ، ولا كيف
 تتمتع فيها ، فان علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو ، فهو من علم الغيب الذى
 استأثر به .

ثم ذكر أسباب هذا الجزاء فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى إياهم حازوا رضا الله بالنزاهة حدود شريعته ، فحمدوا مغبة أعمالهم ، ونالوا ما يرضيهم فى دنياهم وآخرتهم .
(ذلك لمن خشى ربه) أى هذا الجزاء الحسن إنما يكون لمن ملأت قلبه الخشية والخوف من ربه .

وفى ذلك تحذير من خشية غير الله ، وتنفير من إشراك غيره به فى جميع الأعمال ؛ كما أن فيه ترغيباً فى تذكر الله ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصاً ، إلى أن فيه إيتاء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشعية لا يكفي فى نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء ، لأن الخشعية لم تحل قلوبهم ، ولم تهذب نفوسهم .
نسأل الله أن يظهر قلوبنا ، وينير بصائرنا ، حتى لا نهرب سواه ، ولا نخشى إلا إياه ، والحمد لله رب العالمين .

سورة الزلزلة

هى مدنية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة النساء .

ووجه مناسبتها لما قبلها - أنه لما ذكر فيها سلف جزاء المؤمنين والكافرين ، بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ؟ (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) .

شرح المفردات

الزلزلة : الحركة الشديدة مع اضطراب ، والأثقل : واحد أثقل ؛ وهو في الأصل متاع البيت كما قال : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِأَعْيُنِهِ إِلَّا يَسِقُّ الْأَنْفُسَ » والمراد به هنا ما في جوف الأرض من الدفائن كالكنوز ، وتقول أوحيت له وأوحيت إليه ووحى له ووحى إليه ، أى كلمه خفية أو ألهمه كما جاء في قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّجَّارِ » يصدر : أى يرجع ، فالوارد هو الآتى الماء ليمشرب أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه ، أشتاتا : واحد هم شتيت أى متفرقين متميزين لا يسير محسنهم ومسيئهم في طريق واحدة ، الذرة : النملة الصغيرة ، أو هى الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخست من نافذة ، ومثقال المذرة : وزنها ، وهو مثل فى الصغر .

سبب نزول هذه السورة

كان الكفار كثيرا ما يسألون عن يوم الحساب فيقولون : « أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » ويقولون : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وما أشبه ذلك ، فذكر لهم فى هذه السورة علامات ذلك لحسب ، ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذى يعرض الناس فيه على ربهم لعقاب المذنبين وثواب المؤمنين .

الإيضاح

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) أى إذا اضطربت الأرض وتحركت حركة شديدة .
ونحو الآية قوله : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » ، وقوله : « يَأْتِيهَا النَّاسُ رَجْجًا » ، وقوله : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » ، وقوله : « يَأْتِيهَا النَّاسُ رَجْجًا » ، وقوله : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » ، وقوله : « يَأْتِيهَا النَّاسُ رَجْجًا » .
اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ .

وفى ذلك إيماء إلى شدة الحال يومئذ ، ولفت لأنظار الكافرين إلى أن يتدبروا

الأمر ويعتبروا ، وكان يقال لهم : إذا كان الجحاد يضطرب لهول هذا اليوم ، فهل
لكم أن تستبقتوا من غفلتكم ، وترجعوا عن عنادكم ؟

(وأخرجت الأرض أثقالها) أى وأخرجت الأرض مافى جوفها من السكروز
والدقائق والأموات ، فانها لشدة اضطرابها يشور باطنها ويقذف مافيه .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » .

ومثال هذا ما نراه فى حيتنا الدنيا من جبال النار الثائرة (البراكين) كما حدث
فى إيطاليا سنة ١٩٠٩ م من ثورانركان ويزوف وابتلاعه مدينة مسينا ولم يبق من
أهلها دياراً ولا نافخ نار .

(وقال الإنسان ما لها) أى وقال من يكون من الناس مشاهداً لهذا الزلزال
الذى يخاف أمثاله فى شدته ، ويحار العقل فى معرفة أسبابه ، ويصيبه الدهش مما
يرى ويبصر : مالهذه الأرض ، وما انذى وقع لها مما لم يعهد له نظير من قبل ؟ كما
جاء فى آية أخرى : « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى » .

(يومئذ تحدث أخبارها) أى فى ذلك الوقت وقت الزلزلة تحدثك الأرض
أحاديثها ، والمراد أن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانقلاب ، وما لم يعهد له نظير
من الخراب ؛ تُعلم السائل وتفهّمه أن ما يراه لم يكن لسبب من الأسباب التى وضعت
لأمثاله مما نراه حين استقر نظام هذا السكون .

ثم بين سبب ما يرى فقال :

(بَارِكْ أَوْحَى لَهَا) أى إن ما يكون للأرض يومئذ إنما هو بأمر إلهى
خاص ، فيقول لها : كوني خراباً كما قال لها حين بدء النشأة الأولى كوني أرضاً ،
وإنما سمي ذلك وحياً ، لأنه أتى على خلاف ما عهد منذ نشأة الأرض ، قاله
الأستاذ الإمام .

(يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) أى يوم يقع الخراب العظيم لهذا العالم
الأرضى ، ويظهر ذلك السكون الجديد كونه الحياة الأخرى ، يصدر الناس متفرقين

ممتازين ، فلا يكون محسن في طريق واحد مع مسيء ، ولا مطيع مع عاص ، ليريههم الله جزاء ما قدمت أيديهم ، ويجزوا ثمر ما غرسه أيانهم .

ثم فصل ذلك بقوله :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أى فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يجد جزاءه ، ومن يعمل الشر ولو قليلاً يجد جزاءه ، لافرق بين المؤمن والكافر .

وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون في الشقاء ، وما نطق من الآيات بحبوط أعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم ، فالمراد به أنها لا تنجهم من عذاب الكفر وإن خفت عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم من السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شئ ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَنْتَبَأَ بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . فقوله : « فلا تظلم نفس شيئاً » صريح في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء . وأن كلا يوقى يوم القيامة جزاءه ؛ وقد ورد أن حاتماً يخفف عنه نكرمه ، وأن أباً لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبی صلى الله عليه وسلم ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقصدين :

- (١) اضطراب الأرض يوم القيامة وهشة الناس حينئذ .
- (٢) ذهاب الناس لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم .

سورة العاديات

هي مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة العصر .
 ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها — أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر
 أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولا يستعدون لحياتهم الثانية ،
 بتعويدها أنفسهم فعل الخير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَأُتُورِيَاتٍ قَدْحًا (٢) فَاغْلُزَاتٍ حُبُجًا (٣)
 فَأُثْرَتُنَّ بِهِ ثَقَمًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)
 وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا
 بُعِثَرَ مِمَّا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مِمَّا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ
 يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

شرح المفردات

العاديات : واحدها عادية من العدو وهو الجرى ، والضبح : صوت أنفاس
 الخيل حين الجرى . قال عنقرة :

والخيل تكدح حين تضجح في حياض الموت ضبحا

والموريات : واحدها مورية من الإبراء وهو إخراج النار تقول : أورى فلان
 إذا أخرج النار برئد ونحوه ، والقدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر ،
 والغيزات : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقته أو يأسره ،
 أو يستلب ماله ، والإثارة : التهييج وتحريك الغبار ، والقعق : الغبار ، ووسطن :

أى توسطن تقول وسطاً القوم أسطهم وسطاً : إذا صرت فى وسطهم ، والكنود :
الكفور ، يقال كند النعمة أى كفرها ولم يشكرها وأشدوا :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنودا لنعماء الرجال يُبَعِّدُ

وأصل الكنود الأرض التى لا تنبت شيئاً ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير
ويحسد ما عليه من واجبات ، لشهيد : أى لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه ،
والخير : المال كما جاء فى قوله : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » ، نشيد : أى لبخيل ، بعثر :
أى بعث وأثير ، وحصل : أى أظهر محصلاً مجوعاً ، مافى الصدور : أى مافى القلوب
من العزائم والنوايا .

الإيضاح

(والماديات ضبيحا) أى قسمها بالخيل التى تعدو وتجرى ويسمع لها حينئذ ضبح
أى زفير شديد .

(فاللوريات قدحا) أى والخيل التى تخرج النار بحوافرها ويتطاير منها الشرر
أثناء الجرى .

(فالغيرات صبيحا) أى والخيل التى تعدو وتهجم على العدو وقت الصباح ،
لأخذه على غير أهبة واستعداد .

(فأثرن به نقما) أى فهيجن فى الصباح غبارا لشدة عدوهن .

(فوسطن به جمعا) أى فتوسطن جمعا من الأعداء فقرقنه وشتتن شمله .

أقسم سبحانه بالخيل التى لها هذه الصفات ، والتى تعمل تلك الأعمال ، ليعلى
من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجِدِّ والعمل ، وليَعْنُوا بتربيتها وتعويدها
الكرِّ والقرِّ ، وليحملهم على العناية بالقروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها
ليكون كل امرئ مسلم منهم عاملاً ناصباً إذا جدَّ الجدَّ واضطرت الأمة إلى صد
عدوٍّ أو بعثها باعث على كسر شوكته ، يرشد إلى ذلك قوله فى آية أخرى :

« وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وفي قسام الله بها بوصف العاديات المغيرات الموريات - إشارة إلى أنه يجب أن تقنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع لا للخيلاء والزينة ، وأن الركوب الذي يحمى ما يكون لسكح جهاج الأعداء ، وخضد شوكتهم ، وصد عدواهم .

وقصارى ذلك - إن للخيل في عدوها فوائد لا يحصى عدوها ، فهي تصلح للطلب ، وتسعف في الحرب ، وتساعد جد المساعدة في النجاء ، والكر والفر على الأعداء ، وقطع شاسع المسافة في الزمن القليل .

ثم ذكر الحلوفاً عليه بتلك الأيمان الشريفة فقال :

(إن الإنسان لربه لكنود) أى إن الإنسان طبع على نكران الحق وجحوده وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له إلا من عصمهم الله وهم الذين روضوا أنفسهم على فعل الفضائل ، وترك الرذائل ، ما ظهر منها وما بطن .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفقده » أى إنه لا يعطى شيئاً مما أنعم الله به عليه ، ولا يراف بعباده كما رآف به ؛ فهو كافر بنعمته ، مجانف لما يقضى به العقل والشرع .

وسر هذه الجبيلة - أن الإنسان يحصر همه فيما حضره ، وينسى ماضيه ، وما عسى أن يستقبله ؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته ، وقسا قلبه ، وامتلاً جفوة على عباده .

(وإنه على ذلك لشهيد) أى وإنه مع كنوده ولجأته في الطغيان ، وتماديه في الإنكار والبهتان ، إذا خلى ونفسه رجع إلى الحق ، وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على نعمه - إلى أن أعماله كلها جحود لنعم الله ، فهي شهادة منه على كنوده ، شهادة بلسان الحال ، وهى أفصح من لسان النقال .

(وإِنَّهٗ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) أى وإن الإنسان بسبب محبته للمال وشغفه به وتعلقه بجمعه وإدخاره - لبخيل شديد فى بخله ، حريص متناهٍ فى حرصه ، ممسك مبالغ فى إمساكه ، متشدد فيه ، قال طرفة :

أرى للموت بعتام الكرام ويصطفى عقيمة مال الفاحش المتشدد
ثم هدد الإنسان الذى هذه صفاته وتوعده بقوله :

(أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور ؟ . إن ربهم بهم يومئذ لخبير) أى أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله عليه ، الجاحد تفضله وأياديه - أنه سبحانه عليم بما تنطوى عليه نفسه ، وأنه مجازيه على جرده وإنكاره يوم يحصل ما فى الصدور ويبعث ما فى القبور ؟ ،

وقد عبر سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبت أيديهم - بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم ، وهذا كثير فى الكلام ، تقول لشخص فى معرض التهديد : سأعرف لك عملك هذا مع أنك تعرفه الآن قطعاً ، وإنما عرفانه الآتى هو ظهور أثر المعرفة وهو مجازاته بما يستحق ، وقد جاء على هذا النسق قوله تعالى : « سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا » مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلاً ؛ فالمراد سنجازهم بما قالوا الجزاء الذى هم له أهل . والله أعلم .

سورة القارعة

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة قريش .

ومناسبتها لما قبلها - أن آخر السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة

أسرها فى وصف ذلك اليوم ، وما يكون فيه من الأهوال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ
يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠) نَارٍ
حَامِيَةٍ (١١) .

الإيضاح

(القارعة) من أسماء القيامة كالخاقة والصاخة والطامة والغاشية ؛ وسميت
بذلك لأنها تفرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر
قارعة قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ
حَادِثَةٌ عَظِيمَةٌ تَفْرَعُهُمْ وَتَصْكَ أَجْسَادَهُمْ فَيَئُولُونَ لَهَا .

(ما القارعة ؟) أى أى شئ هى القارعة ؛ وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها
كأنها أشدة ما يكون فيها من الأهوال ، التى تفرع منها النفوس ، وتدهش لها العقول ،
يصعب تصورها ، ويتعذر إدراك حقيقتها .

ثم زاد أمرها تعظيماً فقال :

(وما أدراك ما القارعة) أى وأى شئ يعرفك بها ، كأنه لاشئ يحيط بها ؛
فهما تخيلت أمرها وحَدَسَتْ شأنها فهى أعظم من تقديرِكَ .

ولما ذكر سبحانه أن إدراك حقيقتها مما لاسبيل إليه ، أخذ يعرف بزمانها الذى
تكون فيه ، وما يحدث للناس حينئذ من الأهوال فقال :

(يوم يكون الناس كالفرش المبثوث) الفراش : هو الحشرة التي تراها تترامى على ضوء السراج ليلاً ، وبها يضرب المثل في الجهل بالعاقبة قال جرير :
 إن الفرزدق ما علمت وقومهُ مثلُ الفراش غشينَ نارِ المصْطَلِي
 والمبثوث : المفرق المنتشر ، تقول بثت الشيء : أى فرقته .
 أى إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منشرين حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ماذا يفعلون ، ولا ماذا يراد بهم كالفرش الذى يتجه إلى غير جهة واحدة ، بل تذهب كل فراشة الى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى .
 وجاء تشبيههم فى آية أخرى بالجراد المنتشر فى كثرتهم وتتابعهم فقال : « كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .

(وتكون الجبال كالعن المنفوش) العن (بكسر العين وسكون الهاء) الصوف ذو الألوان ، والمنفوش : الذى نفس فقرت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح .
 أى إن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، فكيف يكون الإنسان حين حدوثها وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال .
 وقد كثر فى القرآن ذكر حال الجبال يوم القيامة فقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » وقال : « فَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً » وقال : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » كل ذلك ليبين أن هذه الأجسام العظيمة التى من طبعها الاستقرار والثبات تؤثر فيها هذه القارعة ، فما بالك أيها المخلوق الضعيف الذى لا قوة له ؟

وفى هذا تحذير الإنسان وتخويف له كما لا يخفى .
 وبعد أن ذكر أوصاف هذا اليوم بما يكون من أحوال بعض المخلوقات - أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال فقال :

(فأما من ثلث موازينه . فهو فى عيشة راضية) يقال ثقل ميزان فلان إذا كان له قدر وميزنة رفيعة ، كأه إذا وضع فى ميزان كان له به رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة ، والفضائل الراجعة . فهؤلاء يجزون النعيم الدائم ويكونون فى عيشة راضية ، تقر بها أعينهم ، وتسربها نفوسهم . ويرى بعض المفسرين أن الذى يوزن هو الصحف التى تكتب فيها الحسنات والسيئات .

ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر فقال :
(وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) يقال خف ميزانه : أى سقطت قيمته فكأنه ليس بشيء حتى لو وضع فى كفة ميزان لم يرجح بها على أختها ، ومن كان فى الدنيا كثير الشر ، قليل فعل الخير ، فدسى نفسه بالشرك واجترأ المعاصى وعاث فى الأرض فسادا - لم يكن شيئا ، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها . وعلى الجملة فعلمنا أن نؤمن بما ذكره الله من الميزان فى هذه الآية وفى قوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ومن وزن الأعمال ، وتمييز مقدار لكل عمل . وليس علمنا أن نبحث وراء ذلك ، فلا نسأل كيف يزن ، ولا كيف يقدر ؟ فهو أعلم بخبيئه ، ونحن لا نعلم .

أما أن الميزان له لسان وكيفتان فهذا لم يرد به نص عن المعصوم يُلزمنا التصديق به ، وكيف يوزن بهذا الميزان الذى تعلمه الإنسان فى مهد البداوة الأولى ، ويُترك ما هو أدق منه مما اخترع فيما بعد وهدى إليه الناس : على أن جميع ما عمله البشر فهو ميزان للأثقال الجسمانية لا ميزان للعالمى المعقولة كالحسنات والسيئات ، فلنفوض أمر ذلك إلى عالم الغيب .

والمراد من كون أمه هاوية - أن مرجعه الذى يأوى إليه مهواة سحيقة فى جهنم يهوى فيها ، كما يأوى الولد إلى أمه . قال أمية بن أبى الصلت :
فالأرض مقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

(لوما أدراك ما هيه ؟) أى وأى شئ يخبرك بما هى تلك الهاوية ، وأنها أى شئ تكون ؟.

ثم فسرهما بعد إيهامها فقال :

(نار حامية) أى هى نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل ، وما اجترح من سيئات .

وفى هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيسست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية ، وذلك دليل على قوة حرارتها ، وشدة استعارها .

وقانا الله شر هذه النار الحامية ، وآمننا من سعيها بمنه وكرمه .

سورة التكاثر

هى مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر .

ومناسبتها لما قبلها - أن فى الأولى وصف القيامة وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن فى هذه ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذكرت فى السورة السابقة ، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال فى الحياة الدنيا ، وهذا بعض أحوال الآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَآكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ
الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ
عَنِ النَّعِيمِ (٨) .

شرح المفردات

اللهو : ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يسر أم لا ، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور ؛ وإذا أُلْهِىَ المرءُ بشيء فهو غافل به عما سواه ، والتكاثر : التباهى بالكثرة بأن يقول كل للآخر أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك ولها ، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب ، حتى زرتم المقابر : أى حتى صرتم من الموتى ، قال جرير :

زار القبورَ أبو مالك فأصبح ألأمَ زُوارها

علم اليقين : أى علم الأمر الميقون الموثوق به ، والجحيم : دار العذاب عين اليقين ؛ أى عين هي اليقين نفسه .

أسباب نزول السورة

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بريدة قال : نزلت « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ » في قبيلتين من الأنصار وهما بنو حارثة وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى : مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أفيكم مثل فلان وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله هذه السورة .

الإيضاح

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) أى شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار والأشياء ، وصرفكم ذلك عن الجد في العمل ، فكنتم في لهو بالقول عن الفعل ، وفي غرور وعجب بالآباء والأعوان ، وصرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهلكم . وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذى سرتم عليه .

وفي صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ قال : يقول ابن آدم مالى ومالك ، وابن آدم ليس لك مالا إلا ما أكلت فأفئيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأفضيت ، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس » وروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان : وإن يملأاه إلا التراب ويقول الله على من تاب » .

قال الأستاذ الإمام : وقد يكون معنى التكاثر التغالب في الشهوة ، أى طلب كل واحد منهما أن يكون أكثر من الآخر مالا أو جاهاً ، والسمى إلى ذلك لجرد المغالبة ، لا يبنى الساعى في سعيه إلا أن يكون ماله أكثر من مال الآخر ، أو أن يكون عضده أقوى من عضده . لينال بذلك لذة التعلل والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الغالب من طلاب الثروة والقوة ، ولا ينظر الدائب منهم في عمله إلى تلك الغاية الرفيعة ، غاية البذل مما يكسب في سبيل الخير . أو النهوض بالقوة إلى نصر الحق ، وحل المبطلين على معرفته والتوجه إليه ، ثم المحافظة بعد ذلك عليه .

وهذا معنى معقول ذهب إليه بعض المفسرين ، وهو يتفق كل الاتفاق مع ما يفهم من لفظ (أَلْهَاكُم) فإن الذى يلهى الناس عن الحق في كل حال ، ويعصرف وجوههم عنه إلى الباطل ، هو طمع كل واحد منهم أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ، ليعلو عليه ، أو ليستخدمه لسلطانه . بقدر ما يدخل في إمكانه ، أما التفاخر بالأقوال فأنما يلهيهم في بعض الأحوال .

(حتى زرتهم المقابر) أى حتى هلكتم وصرتم من الموتى ، فأضعتم أعماركم فيما لا يجدى فائدة ، ولا يعود عليكم بمائدة ، في حياتكم الباقية الخالدة .

قال العلماء : إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسى ، لأنها تذكر بالموت والآخرة ، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها ،

ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهّد في الدنيا وتذكركم الآخرة » .

كما لا خلاف في منع زيارتها إذا حدث في ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الدين كاختلاط الرجل بالنساء وحدث فتن لا تحمد عقباها .

ثم نهىهم إلى خطئ ما هم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التي لها وخيم العاقبة فقال :

(كلا سوف تعلمون) أى ازدجروا عن مثل هذا العمل الذى لا تكون عاقبته إلا القطيعة والهجران ، والضعينة والأحقاد ، والجثوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على مافيه حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم لأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وإنكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكاثُر إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح نافع لكم في العقبى .

ثم أكد هذا وزاد في التهديد فقال :

(ثم كلا سوف تعلمون) وهذا وعيد بعد وعيد في مقام الزجر والتوبيخ كما يقول السيد لعبد : أقول لك لا تفعل ، ثم أقول لك لا تفعل .

(كلا لو تعلمون علم اليقين) أى ارتدعوا عن تغريكم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثُر ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وإن مائدعونه علما ليس في الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن لا يلبث أن يتغير ، لأنه لا يطابق الواقع ، والجدير بأن يسمى علما هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدلائل الصحيح الذى يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة في زجرهم لتغريهم بأنفسهم ، فقد جرت عادة الغافلين أنهم إذا ذكروا بعواقب حالهم أن يقولوا : إنهم يعلمون العواقب ، وأنهم في منتهى اليقظة وسداد الفكرة .

ثم ذكر لهم بعض ما ينتهي إليه هذا اللهو ، وهو عذاب الآخرة بعد خزي الدنيا فقال :

(لترون الجحيم) أى إن دار العذاب التى أعدت لمن يلهو عن الحق لاريب فيها ولترونها بأعينكم ، فاجمعوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم ، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به .

والمراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الكتاب الكريم .
ثم كرر ذلك للتأكيد فقال :

(ثم لترونها عين اليقين) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه ، إلى أى دين أو إلى أى شخص كانت نسبتكم فلتتقوا الله ربكم ، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها ، ولتنظروا إلى ما أتم فيه من نعمة ، ولترعوا حق الله فيها ، فاستعموها فيما أمر أن تستعمل فيه ، ولا تجترحوا السيئات وتقتربوا المنكرات ، وإنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنكم ، ويرحمكم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامى وتلقيبكم بألقابه ، مع مخالفتكم أحكام القرآن وعملكم عمل أعداء الإسلام .

ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

(ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) أى إن هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتمدونه مما يباهى به بعضكم بعضا — ستسألون عنه — ماذا صنعتم به ؟ هل أدبتم حق الله فيه وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ، فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « أى نعيم نسأل عنه يارسول الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ظلال المساكين والأشجار ، والأخبية التى تقيكم الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .
 اللهم وفقنا لشكر نعمتك وأداء حقها ، لنجد الجواب حاضراً حين سؤالنا عنها ،
 اللهم آمين .

سورة العصر

وهى مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة الشرح .
 ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهى عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعة له في الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ، فكان هذا تعليل لما سلف — إلى أنه ذكر في السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه ، وجرى مع شيطانه حتى وقع في التهلكة ، وهنا ذكر من تجمل بأجل الطباع ، فأمن بالله وعمل الصالحات ، وتواصى مع إخوانه على الاستمسك بعمى الحق ، والاصطبار على مكارهه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

شرح المفردات

العصر : الدهر ، والإنسان : هو هذا النوع من المخلوقات ، والخسر والخسران : نقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة .

والحق : هو ما نقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة ، أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم ، والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل ، الطيب ، وتهوّن عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة ، والتواصي بالحق : أن يوصى بعضهم بما لا سبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير ، والتواصي بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضاً به ويحثه عليه ، ولا يكون ذلك نافعا مقبولا إلا إذا كمل المرء نفسه به وإلا صدق عليه قول أبي الأسود الدؤلي :

يأبى الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيا يصح به وأنت سقيم

الإيضاح

(والعصر) أقسم ربنا سبحانه بالدهر لما فيه من أحداث وعبر يستدل بها على قدرته وبانغ حكيمته وواسع علمه ، انظر إلى ما فيه من تعاقب الليل والنهار وهما آيتان من آيات الله كما قال : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإلى ما فيه : من سراء وضراء ، وصحة وسقم ، وغنى وفقر ، وراحة وتعب ، وحزن وفرح ؛ إلى نحو ذلك مما يسترشد به حصيف الرأي إلى أن للكون خاتماً ومدبراً ، وهو الذى ينبغى أن يوجه إليه بالعبادة ويدعى لكشف الضر وجلب الخير — إلى أن الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر ، فيقولون هذه نائمة من نواب الدهر ، وهذا زمان بلاء ، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خلق من خلقه ، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيراً وشرّاً ، فإن وقعت للمرء مصيبة فبما كسبت يده ، وليس للدهر فيها من سبب .

(إن الإنسان لفي خسر) أى إن هذا الجنس من المخلوقات — لخسر في أعماله ضرباً من الخسران إلا من استثناهم الله ، فأعمال الإنسان هى مصدر شقائه ، لا الزمان

ولا للمساكين . ربحى اتى توقفه فى الملاك ، فذنب المرء فى حق بارئه ، ومن يمن عليه
بعمه الجبيلة ، آلائه الجسيمة . جريمة لانعديها جريمة أخرى .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فاعتقدوا اعتقاداً صحيحاً ، أن للعالم كله إلهاً
خالقاً قادراً برضى عن المطيع ، ويقضب على العاصى ، وأن هناك فرقا بين الفضيلة
والترابطة ، عرفهم ذلك إلى عمل البر والنظر — وجماع ذلك نفع المرء نفسه ونفعه
لنفس أجمعين .

وخلاصة أمرهم — أنهم باعوا الغنى الحسيس ، واشتروا الباقي النفيس ،
واستبدلوا البقيات الصالحات بالغايات الرأحات ، فيا لها من صفقة ما أربحها ، ومنقبة
جامعة لا خير ما أوتوها .

(وتواصوا بالحق) أى وأوصى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذى لا سبيل إلى
إنكاره ، ولا روال فى الدارين لحسن آثاره ، وهو الخير كله من إيمان بالله عز وجل
واتباع بسكته ورسه فى كل عقد وعمل .

(وتواصوا بالصبر) أى وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر عن المعاصى التى تشاق إليها
النفس بحكم الجبلة البشرية ، وعلى الطاعات التى يشق عليها أدائها ، وعلى ما يبغى
الله تعالى به عباده من المصابيب ويتلقاها بالرضا ظاهراً وباطناً ، فلا بد للنجاة من
الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكثوه من قلوبهم ، ثم يحسن
بعضهم بعضاً على سلوك طريقه ، وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات
التي لا قرار للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها .

وخلاصة ماسلف — إن الناس جميعاً فى خسران إلا من انصفوا بأربعة أشياء:
الإيمان ، وإعمال الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ؛ فيعملون الخير
ويدعون إلى العمل به ، ولا يرحضهم عن الدعوة إليه ما يلافتونه من مشقة وبلاء .
والإنسان جميعه خسر مساعيه وضل مناهجه ، وصرف عمره فى غير مطالبه .
فيؤند جاء إلى الأرض ليخلص نفسه من الرذائل ويتحلى بالفضائل ، حتى إذا رجع

إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحا ، وأمضى سلاحا ، لكنه حين رجع إلى مقره في عالم السموات بالموت لم يجد إلا نقضا يحيط به ، وجهلا يرديه ، فندم إلا طائفة منه عاشوا في الدنيا مفكرين ، فأمنوا بأنبيائهم وصدقوا برسلمهم ، وأحبوا بنى جنسهم ، وأحسنوا إلى إخوانهم فساعدوهم بأنفسهم وأموالهم ، وصاروا معهم متعاضدين متعاونين ، وصبروا على ما نزل بهم من الحداث ، ودُّموا به من البهتان ، فهؤلاء في الدنيا يفوزون بما يريدون ، وفي الآخرة بالنعيم يفرحون .

جعلنا الله في زمرة أولئك العاملين الذين تواصلوا بالحق وتواصوا بالصبر .

سورة الهزمة

هي مكية ، وآياتها تسع ، نزلت بعد سورة القيامة .
ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله — ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال .

أسباب نزول هذه السورة

قال عطاء والكلي : نزلت هذه السورة في الأخنس بن شريق ، كان يلزم الناس ويغتابهم وبخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطن فيه في وجهه .
وقال محمد بن إسحاق صاحب السيرة : ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) أَيْحَسِبُ
أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ؟ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَذْرَاكَ
مَّا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفْتِدَةِ (٧) إِنَّهَا
عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) .

شرح المفردات

ويل : أى خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح ؛ والمراد به التوبيخ
على قبح ماسيد كره بعد من صفاتهم ، والهمزة اللمزة : الذى يطعن فى أعراض الناس
ويظهر عيوبهم ويحقر أفعالهم ، انذبا بالخط منهم وترفع عنهم ؛ وأصل الهمز : الكسر
يقال همز كذا : أى كسره ؛ وأصل الهمز الطعن ، يقال لمزه بالرمح : أى طعنه ثم شاع
استعمالها فيما ذكرنا ، قال زياد الأعجم :

إذا لقيتُك عن شحطٍ تكاشرفنى وإن تغيبتُ كنتَ الهامزَ الهمزة

وعن مجاهد وعطاء : الهمزة الذى يغتاب ويطن فى وجه الرجل ، والهمزة :

الذى يغتاب من خلفه إذا غاب ، ومنه قول حسان :

همزتك فاخترضتَ بذلّ نفس بقافية تأجج كالشواظ

عدده : أى عدّه مرة بعد أخرى شعفا به ، أخلده : أى ضمن له الخلود فى الدنيا ،

والنبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير ، والحطمة : من الحطم وهو الكسر ؛ يقال

رجل حطمة إذا كان شديدا لا يبق على شىء وفى أمثالهم : شرُّ الرعاء الحطمة : أى

الذى يحطم ماشيته ويكسرهما بشدة سوقها قال :

قد لفها الليل بسواق حطّم ليس براعى إبل ولا غنم

ولا يجرّار على ظهر وضّم

والمراد بها النار ، لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ،
تطّلع على الأفئدة : أى تعلو أوساط القلوب وتغشاها ، مؤصدة : أى مطبقة من
أوصدت الباب : أى أغلقت قال :

نحن إلى أجيال مكة نأتى ونن دونها أبواب صنعاء موصدة
والعمد : واحداها عمود ، وممددة : أى مطولة من أول الباب إلى آخره .

الإيضاح

(ويل لكل همزة لمزة) أى سخط وعذاب من الله لكل طعان فى الناس ،
أكل للحومهم ، مؤذ لهم فى غيبتهم أو فى حضورهم .

ثم ذكر سبب عيبه وطعنه فى الناس فقال :

(الذى جمع مالا وعدده) أى إن الذى دعاه إلى الخط من أقدار الناس والزراية
بهم هو جمعه للمال وتعليده مرة بعد أخرى ، شغفا به وتلذذا بإحصائه ، لأنه يرى أن
لا عز إلا به ، ولا شرف بغيره ، فهو كما نظر إلى كثرة ماعنده ظن أنه بذلك قد
ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لا يخشى أن تصيبه
قارعة همزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس ، لأن غروره أنساه الموت ، وأعشى بصيرته
عن النظر فى ماله ، والتأمل فى أحواله .

ثم بين خطاه فى ظنه فقال :

(يحسب أن ماله أخذه) أى يظن هذا انهزام العياب أن ماعنده من المال
قد ضمن له الخلود فى الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن
أنه باق حيا أبدا الدهر ، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من
سئ الأعمال .

وبعد أن توعد من هذه صفته بشديد العقاب ، وأردفه ذكر السبب الذي حمله على ارتكاب هذه الخلال المفقودة ، من ظنه أن ماله يضمن له الأمان من الموت ، أعقبه بتفصيل ما أعد له من هذا العذاب المحتوم فقال :

(كلا لينبذن في الحطمة) أى ازدجر أيها العيَّاب عما خيل إليك من أن المال يخلدك ويبقيث ، بن الذى ينفع هو العلم وصالح العمل ، فأبك والله مطروح في النار لاجحالة ، لا يؤثبه لك ولا ينظر إليك .

وأثر عن عليّ كرم الله وجهه من عظة له : يا كميلُ هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء ناقون ما بقى الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة . يريد أن خزان الأموال ممتوون مكروهون عند الناس ، لأنهم لا ينالون منهم شيئاً ، أما العلماء فالثناء عليهم مستمر ما بقى على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم ، ويعترف من بحار فضلهم .

ثم أخذ يهول أمر هذه النار ويعظم شأنها فقال :

(وما أدراك ما الحطمة) أى إن هذه الحطمة مما لا تحيط بها معرفتك ، ولا يقف على حقيقتها عقلك ، فلا يعلم شأنها ، ولا يقف على كنهها ، إلا من أعداه لمن يستحقها .

ثم فسر هذه الحطمة بعد إسهامها فقال :

(نار الله الموقدة) أى إنها النار التى لا تنسب إلا إليه سبحانه ، إذ هو الذى أنشأها وأعداه لعقاب العصاة والمذنبين ، وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تخمد أبداً ، بل هى ملتهبة التهايب لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها .

ثم وصفها بأوصاف تخالف نيران الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال :

(١) (التى تطلع على الأفئدة) أى إنها تتغلب على الأفئدة وتقهرها ، فتدخل في الأجواف حتى تصل إلى الصدور ، فتأكل الأفئدة ، والقلب أشد أجزاء البدن تألماً ، فإذا استولت عليه النار فأحرقتة ، فقد بلغ العذاب بالإنسان غاية لا يقدرها قدرها .

وقد يكون المراد بالاطلاع المعرفة والعلم ، وكأن هذه النار تدرك مدى أفئدة الناس يوم البعث ، فتميز العاصي عن المطيع ، والخبيث عن الطيب ، وتفرق بين من اجتروا السيئات في حياتهم الأولى ، ومن أحسنوا أعمالهم ، وإنا لنكل أمر ذلك إلى علام الغيوب .

وفي وصفها بالاطلاع على الأفئدة التي أودعت باطن الإنسان في أخفى مكان منه — إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولاً وأكثر تغلباً .

(٢) (إنها عليهم مؤصدة) أى إنها مطبقة عليهم لا يخرجون منها، ولا يستطيعون الخروج إذا شاءوا ، فهم « كَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا » .
(٣) (في عمد ممددة) قال مقاتل : إن الأبواب أطبقت عليهم ، ثم شددت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح اهـ .

والمراد بذلك تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم ، والمبالغة في ذلك ليودع في قلوبهم اليأس من الخلاص منها .

وعليها أن تؤمن بذلك ولا تبحث عن كون العمد من نار أو حديد ، ولا في أنها تمتد طولاً أو عرضاً ، ولا في أنها مشبهة لعمد الدنيا ، بل نكل أمر ذلك إلى الله ، لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا ، ولم يأتنا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم يبين ذلك ، فالكلام فيه قول بلا علم ، واقتراء على الله الكذب .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، ويقينا شر النار الموصدة ، بمنه وكرمه .

سورة الفيل

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الكافرين .
ومناسبتها لما قبلها — أنه بين فى السورة السابقة أن المال لا يغنى من الله شيئاً ؛ وهنا أفام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ
سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) .

شرح المفردات

الكيد : إرادة وقوع ضرر بغيرك على وجه الخفاء ، والتضليل : التصنيع والإبطال ، تقول ضللت كيد فلان إذا جعلته باطلا ضائما ، والطير : كل ما صار فى الهواء ، صغيراً كان أو كبيراً ، والأبابل : الجماعات ، لا واحد له من لفظه ، والسجيل : الطين الذى تحجر ، والعصف : ورق الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ، وتعصفه الرياح : فتأكله الماشية ، مأكول : أى أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

المعنى الجملى

ذكر الله سبحانه نبيه ومن تبلغه رسالته بعمل عظيم دال على بالغ قدرته ، وأن كل قدرة دونها فهى خاضعة لسلطانها — ذاك أن قوما أرادوا أن يتعزوا بفيلهم

ليغلبوا بعض عباده على أمرهم ، ويصلوا إليهم بشرّ وأذى ، فأهلكهم الله ، وردّ كيدهم ، وأبطل تدبيرهم ، بعد أن كانوا في ثقة بعدادهم وعددهم ولم يقدم ذلك شيئاً .

قصص أصحاب الفيل كما رواه أرباب السير

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل ، وحدث كذا لستين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم — أن قائدا حبشيا ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدى على السكبة المشرفة ويهدمها ، لينزع العرب من الحج إليها ، فتوجه بحبش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلاً أوفيلة كثيرة زيادة في الإرهاب والتخويف ، ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه ، حتى وصل إلى « المُغَمَّس » وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم البيت ، ففرزوا منه ، واطلقوا إلى شَعَف الجبال ينظرون ما هو فاعل .

وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشى داء الجدري والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب ، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله ، فكان لهم يتناثر ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه وولّوا هاربين ، وأصيب الحبشى ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة ، وأخذت أمته ، حتى انصدع صدره ومات في صنعاء .

الإيضاح

(ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟) أى ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية المائلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فتلك حال قد جاءت على غير ما يعرف من

الأسباب والعلل ، إذ لم يهده أن يحى ، طير فى جهة فيقصد قوما دون قوم ، وهم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أمانة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنفاذ مقصد معين .

وإنما عبر عن العلم بالزوية ، للإيماء إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو فى قوّة الثبوت مع الوضوح — للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة .

وخلاصة ذلك — إنك قد علمت ذلك علما واضحا لا لبس فيه ولا خفاء .

ثم بين الحال التى وقع عليها فعله فقال :

(ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟) أى إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك

القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيب سعيهم .

ثم فصل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال :

(وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل) أى إنه تعالى أرسل

عليهم فرقا من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، فابتلوا بمرض الجدرى أو الحصبة حتى هلكوا .

وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذى تحمله الرياح ، فيعاق بأرجل هذا الطير ، فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامه ، فأنار فيه قروحا تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه .

ولاشك أن الذباب يحمل كثيرا من جراثيم الأمراض ، فوقع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية فى إصابته بالمرض الذى يحمله ، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجسم الغفير من الناس ، فإذا أراد الله أن يهلك جيشا كثير العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدا عن مجرى الآف والمائة . وهذا أقوى فى الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه ، من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور ، وغرائب الأور ، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام النهر الإلهى ، وكيف لا وهو مخلوق نبيده ذبابة . ونقض مضجعه بعوضة ، ويؤذيه هبوب الريح .

قال الأستاذ الإمام : فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه ماوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكته قومه قبل أن يدخل مكة ، وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيهم ، حفظا لبيته حتى يرسل إليه من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ، ولا ذنب اقترفه اه .

(فجعلهم كمصف ما كول) أى فجعل هؤلاء القوم كمصف وقع فيه الأكل وهو السوس ، أو أكلت الدواب بعضه ، وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .
وصل ربنا على محمد الذى قصصت عليه مافيه العبرة لمن اذكر ، وأوحيت إليه مافيه مزدجر ، لمن تدبر واعتبر ، إنك أنت العليم الحكيم .

سورة قريش

هى مكة ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة التين .
ومناسبتها لما قبلها — أن كلا منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ؛ فالأولى تضمنت إهلاك عدوهم الذى جاء لهدم بيتهم وهو أساس مجدهم وعزمهم ؛ والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم ، والتثام شملهم ، ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاء فى تجارتهم ، وجلب الميرة لهم .
ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبى بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما بيسملة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) .

شرح المفردات

تقول ألفت الشئ : إلفاً وإلَافاً ، وآلفته إيلافاً : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه ، وقريش : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ، والرحلة : ارتحال القوم أى شدم الرجال للمسير ، أطعمهم : أى وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله ، وآمنهم : أى جعلهم فى أمن من التمدى عليهم ، والتناول إلى أموالهم وأنفسهم .

الإيضاح

(لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت) أى فلتعبد قريش ربها شكراً له على أن جعلهم قوماً تَجَرَّأَ ذوى أسفار فى بلاد غير ذات زرع ولا ضرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه التى تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى إلى تلك البلاد ؛ ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونها فى أسفارهم ، لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمة ، وولاة السكبة ، فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لاتقطع .

مكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التى تحتوى بها قريش فى الأسفار ، ولهذا ألفتها نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراكاً للرزق .

وهذا الإجلال الذى ملك نفوس العرب من البيت الحرام ، إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمة ، وزادها فى نفوس العرب ردُّ الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكم قبل أن ينقضوا منه حجرا ، بل قبل أن يدنوا منه . ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمة عندهم ، واستطالت الأيدي على سُقَّارهم لنفروا من تلك الرحلات ، فقلَّت وسائل السكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع ، وماهم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم فى عُقر ديارهم ، ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

(فليعبدوا رب هذا البيت) الذى حماه من الحبشة وغيرهم ، ومكن منزله فى النفوس ، وكان من الحق أن يفردوه بالتعظيم والإجلال .
ثم وصف رب هذا البيت بقوله :

(الذى أطعمهم من جوع) أى إنه هو الذى أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله . ولولاه لكانوا فى جوع وضنك عيش .

(وآمنهم من خوف) أى وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع عنهم التمرد والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فهاشوا فى ضنك وجهد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت ، فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ؟ مع أنه لا فضل لأحد من يوسطونه فى شئ من النعمة التى هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق ، وكفاية الحاجة .

اللهم ألهم قلوبنا الشكر على نعمك التى تترى علينا ، وزدنا بسطة فى العلم والرزق .

سورة الماعون

هى مكية ، وآياتها سبع ، نزلت بعد سورة التكاثر .
 ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أنه لما قال فى السورة السابقة : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » ذم فى هذه من لم يحض على طعام المسكين .

(٢) أنه قال فى السورة السابقة : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » وهنا ذم من سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويحسدون الجزاء ، وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢)
 وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ
 صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

شرح المفردات

أَرَأَيْتَ : أى هل عرفت وعلمت ؛ والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرف ما يذكر بعده مع تضمنه ائتمعجب منه ، كما تقول : أَرَأَيْتَ فلانا ماذا صنع ، وأَرَأَيْتَ فلانا كيف عرّض نفسه للمخاطر - أنت فى كل ذلك تريد بعث الخطاب على التمعجب مما فعل ، والدين : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التى لا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقتها ، وإنما يجد آثارها فى السكون باعثة على الإذعان

والتصديق ، كوجود الله ووحدانيته ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء ، يدع اليتيم : أى يدفعه ويزجره زجرا عنيفا كما جاء فى قوله : « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » يحض : أى يحث ويدعو الناس إلى ذلك ، يراءون : أى يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ؛ وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة ، وطلب المنزلة فى قلوب الناس ، ويكون فعل ذلك على ضروب :

- (١) بتحسين السمعة مع إرادة الجاه وثناء الناس .
 - (٢) بلبس الثياب القصار أو الخشنه ليأخذ بذلك هيبة الزهاد فى الدنيا .
 - (٣) بإظهار السخط على الدنيا ، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير .
 - (٤) بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لرؤية الناس له .
- والماعون : ما جرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالقدر والدلو والفأس .

وقال جار الله : ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام : « ولا غمّة فى فرائض الله » لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا الاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح ؛ وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك ؟ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمة .

على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرياء أخفى من ديب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المسح الأسود » اهـ . المسح : كساء خشن من صوف يلبسه الزهاد .

الإيضاح

(أرأيت الذي يكذب بالدين) أى هل عرفت ذلك الذى يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلهية ، والشئون الغيبية ، بعد أن ظهر له بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، فإن كنت لاتعرفه بذاته ، فاعرفه بصفاته وهى :

(١) (فذلك الذى يدع اليتيم) أى فذلك المكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا إن جاء يطلب منه حاجة ، احتقارا لشأنه وتكبيرا عليه .

(٢) (ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يبحث غيره على إطعامه ، وإذا كان لا يبحث غيره على ذلك ولا يدعو إليه ، فهو لا يفعله بالأولى .

وفى هذا توجيه لأنظارنا إلى أننا إذا لم نستطع مساعدة المسكين كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته ونحثه على ذلك كما تفعل جماعات الخير : « الجمعيات الخيرية » .

وقصارى ماسلف — إن المكذب بالدين صفتين : أولاها أن يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم . وثانيتهما أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج ، أو يبخل بسعيه لدى الأغنياء ، ليساعدوا أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة ، ويقوم لهم بكفاف العيش .

وسواء أكان المحقر للحقوق ، البخيل بالمال والسعى لدى غيره مصليا أو غير مصل — فهو فى صف المكذبين ، ولا تخرجه صلاته منهم ، لأن المصدق بشئ لا تطاوعه نفسه على الخروج مما صدق به ، فلو صدق بالدين حقا لصار منكسرا متواضعا لا يتكبر على الفقراء ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم : فمن لم يفعل شيئا من ذلك فهو مصرا فى عمله ، كاذب فى دعواه ، ومن ثم قال سبحانه :

(فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى فمذاب لمن يؤدى الصلاة بحسبه ولسانه من غير أن يكون لها أثر فى نفسه ، ومن غير أن تؤتى ثمرتها التى

شرعت لأجلها ، لأن قلبه غافل عما يقوله اللسان ، وتفعله الجوارح ، فيركع وهو لا يركع ، ويسجد وهو لا يسجد ، ويكبر وهو لا يركب ، وإنا ما هي حركات اعتادها ، وكلمات حفظها ، لا تدرك نفسه معناها ، ولا تصل إلى معرفة ثمرتها .
(الذين هم يراون) أى إنهم يفعلون أفعالا ظاهرة بقدر ما يرى الناس ، دون أن تستشعر قلوبهم بها ، أو تصل إلى معرفة حكمها وأسرارها .

(ويمنعون الماعون) أى ويمنعون ما لم تجر العادة بمنعه مما يسأله الفقير والفقير ، وينسب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق كالقندر والفأس ، والتقدم ونحو ذلك .

قال الأستاذ الإمام : فأولئك الذين يصلون ، ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى للناس ، مما لا يكتفهم بذل شيء من مالهم ، ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم ، أو نقصا يُباليهم ، ثم يمنعون ما عونهم ، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين ، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمانينتهم - لا تنفعهم صلاتهم ، ولا تخرجهم عن حد المكذبين بالدين ، لافرق بين من وسموا أنفسهم بسمه الإسلام أو غيره ، فإن حكم الله واحد ، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة ، التي لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع .

فخاصة المصدق بالدين التي تميزه عن سواء من المكذبين هو العدل والرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التي يمتاز بها عن المصدقين هي احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة ، وحب الأثرة بالمال ، والتعزز بالقوة ، ومنع المعروف عن مستحقه من الناس .

فهو للمسلمين الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلون في هذه السورة الشريفة ؟ ليعرفوا هل هم من قسم المصدقين أو المكذبين ؟ وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التي لا أثر لها إلا في ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذي يسمونه صياما

ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم ، وبداذة ألسنتهم ، وضياح أوقاتهم في اللهو والبطالة ، ويرجعوا إلى الحق من دينهم ، فيقيموا الصلاة ، ويحيوا صورتها بالخشوع للعلیّ الأعلى ، فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد لله يلتزمون رضاه في رعاية حقوقه بما يراه ، ويجعلوا من الصوم مؤدبا للشهوة ، ومهذبا للرغبة ، رادعا للنفس عن الآثرة ، فلا يكون في صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم ، ثم يؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ولا يبخلون بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة اهـ والله أعلم .

سورة الكوثر

هي مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة العاديات .

ومناسبتها لما قبلها - أنه وصف في الأولى الذي يكذب بالدين بأمور أربع :
البخل . الإعراض عن الصلاة . الرياء . منع المعونة - وهنا وصف ما منحه رسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبركة ، وذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ، والحرص على الصلاة ودوامها ، والإخلاص فيها والتصدق على الفقراء .

أسباب نزول هذه السورة

كان المشركون من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويلمزونه بأمور :

(١) أنه إنما اتبعه الضعفاء ولم يتبعه السادة الكبراء ، ولو كان ما جاء به الدين صحيحا لكان أنصاره من ذوى الرأى والمكانة بين عشائهم ، وهم ليسوا ببدع في هذه المقالة . فقد قال قوم نوح له فيما قصه الله علينا : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِادِي الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » .

وقد جرت سنة الله في خلقه أن يسرع في إجابة دعوة الرسل الضعفاء ، من قبل أنهم لا يمكنون مالا فيخافوا أن يضيع في سبيل الدعوة الجديدة ، ولا جاها ونفوذا فيخافوا أن يضيعا أمام الجاه الذي مُنِحه صاحب الدعوة - وأن يتخلف عنها السادة الكبراء حتى يدخلوا في دين الله وهم له كارهون ، ومن ثم يظل الجدل بين أولئك الصناديد ورسول الله ، يأخذون في انتقاصهم ، وكيل التهم لهم تهمة بعد تهمة ، والله ينصر رسله ويؤيدهم ويشد أزهرهم .

وعلى هذا السنن سار أهل مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلف عنه ساداتهم وكبرائهم حسدا له ولقومه الأدنين .

(٢) إنهم كانوا إذا رأوا أبناء يموتون ، يقولون : انقطع ذكر محمد وصار أبت ، يحسبون ذلك عيبا فيلمزونه به ويحاولون تنفير الناس عن اتباعه .

(٣) إنهم كانوا إذا رأوا شدة نزلت بالمؤمنين طاروا بها فرحا وانتظروا أن تدول اللؤلؤة عليهم وتذهب ربحهم ، فتعود إليهم مكانتهم التي زعزعتها الدين الجديد .

فجاءت هذه السورة لتؤكد لرسوله أن ما يرجف به المشركون وهم لاحقية له ، ولتمحص نفوس الذين لم تضلّب قناتهم ، ولتردّ كيد المشركين في نحورهم ، ولتعلمهم أن الرسول منتصر لا محالة ، وأن أتباعه هم المفلحون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ

هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) .

شرح المفردات

الكوثر : المفرط فى الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب
ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ويقال للرجل الكثير العطاء هو كوثر ، قال الكميت
الأسدى :

وأنت كثير يا بن مروان طيبٌ وكان أبوك ابن المعائل كوثرًا

والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ،
والشأنى : المبغض ، وأصل الأبتى : الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا ما لا يبقى
له ذكر ولا يدوم له أثر - شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجليل بذنب
الحيوان من حيث إنه يتبعه وهو زينة له ، وشبه الحرمان منه بيبتر الذنب وقطعه .

الإيضاح

(إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك من المواهب الشيء الكثير الذى
يعجز عن بلوغه العدّ ، ومنحناك من الفضائل ما لا سبيل للوصول إلى حقيقته ،
وإن استخف به أعداؤك واستقلود ، فبما ذلك من فساد عقولهم ، وضعف إدراكهم .
(فصلٌ لربك وانحر) أى اجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك
وما هو نسك لك لله أيضا ، فإنه هو الذى ربك وأسبغ عليك نعمه دون سواه كما
قال تعالى آمراه : « قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

وبعد أن بشر رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم البشارة ، وطالبه بشكره على
ذلك ، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهورا ذليلا ، أعقبه بقوله :
(إن شائتك هو الأبتى) أى إن مبغضك كائنا من كان هو المقطوع ذكره من

خيرى الدنيا والآخرة، وأما أنت فستبقى ذريتك ، ويبقى حسن صيترك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة .

وشأنوه ما كانوا يعضونه لشخصه ، لأنه كان محبباً إلى نفوسهم ، بل كانوا يفتنون ما جاء به من الهدى والحكمة ، لأنه سقاه أحلامهم . وعاب معبوداتهم ، ونادى بفراق ما ألفوه ونشئوا عليه .

وقد حقق الله في شأنه من العرب وغيرهم في زمنه صلى الله عليه وسلم ما يستحقونه من الخذلان والخسران ، ولم يبق لهم إلا سوء الذكر ؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن اهتدى بهديه فان الله رفع منزلتهم فوق كل منزلة ، وجعل كلهم هي العالما .

قال الحسن رحمه الله : عنى المشركون بكونه أبتر : أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه . والله بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك اهـ .

وصل ربنا على نبيك محمد الذى أعليت ذكره ، وأذلت شأنه ، صلاة تبقى مابق الدهر .

سورة الكافرون

هى مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الماعون .

ومناسبتها لما قبلها — أنه فى السورة السابقة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة ، بإخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة التصريح بما أشير إليه فيما سلف .

أسباب نزول السورة

روى أن الوليد بن المغيرة والمص بن وائل السهمي والأسود بن عبد المطالب وأمية بن خنف في جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : هلم يا محمد فاتبع ديننا وننتع دينك ، ونشركك في أمرنا كله ، نعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرا كفت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت حظك منه ، فقال : معاذ الله أن نشرك به غيره ، وأنزل الله ردا على هؤلاء هذه السورة ، ففدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملا من قريش ، فقام على رؤوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك ، وحلفوا يؤذونه ويؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .

الإيضاح

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) أى قل لهم : إن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبد ، لأنكم تعبدون من يتخذ الشفعاء أو الولد ، أو يتجلى فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون ، وأنا أعبد إلها لا مثيل له ولا ند ، وليس له ولد ولا صاحبة ، ولا يحل فى جسم ، ولا تدرك

كنهه العقول ، ولا تحويه الأمكنة ، ولا تمر به الأزمنة ، ولا يتقرب إليه بالشفعاء ، ولا تقدم إليه الوسائل .

وعلى الجلة فبين ماتعبدون وما أعبد ، فارق عظيم ، وبون شاسع ، فأنتم تصفون معبودكم بصفت لا يحمل بمعبودى أن يتصف بها .

(ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى إنكم لستم بعابدين إلهى الذى أدعو إليه لمخالفة صفاته لإلهكم ، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال .

وبعد أن نفي الاختلاف فى المعبود نفي الاختلاف فى العبادة ، من قبل أنهم كانوا يظنون أن عبادتهم التى يؤدونها أمام شفعايتهم ، أو فى المعابد التى أقاموها لها أو فى خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة لله ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم فى شىء فقال :

(ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى ولا أنا بعابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى قاله أبو مسلم الأصفهاني .

وخلاصة ماسلف — الاختلاف التام فى المعبود ، والاختلاف البين فى العبادة فلا معبودا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى منزه عن الندب والنظير ، متعال عن الظهور فى شخص معين ، وعن المحابة لشعب أو واحد بعينه ، والذى تعبدونه أنتم على خلاف ذلك .

كما أن عبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك . مصحوبة باغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(لكم دينكم ولى دين) أى لكم جزاؤكم على أعمالكم ولى جزائى على عملى كما جاء فى قوله تعالى : « إِنَّمَا أَعْمَالُكُمْ وَإِنَّمَا أَعْمَالُكُمْ » .

وصل ربنا على محمد الذى جعل الدين لك خالصا ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

سورة النصر

هي مدنية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة التوبة .
ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ، ودين الكفار الذي يعكفون عليه — أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذي يدعو إليه سيعلم عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان العمورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) .

شرح المفردات

النصر: العون؛ يقال نصره على عدوه ينصره نصرا : أى أعانه ، ونصر الغيث الأرض : إذا أعان على إظهار نباتها ومنع من قحطها ، قال شاعرهم :
إذا دخل الشهر الحرام فجاوزى بلاد تميم وانصرى أرض عامر
والفتح : الفصل بينه وبين أعدائه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ، والأفواج : واحدهم فوج ؛ وهو الجماعة والطائفة ، واستغفره : أى أسأله أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك ، توابا : أى كثير القبول لتوبة عباده .

المعنى الجملى

كان للؤمنون أيام قتلهم وفقرهم وكثرة عدد عدوهم وقوته ، يمر الضجر بنفوسهم ويُقبض مضاجعهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن ويضيق صدره ،

لتكذيب قومه له على وضوح الحق وسطوع البرهان . كما قال تعالى مخاطباً رسوله :
 « فَلَمَّا كَانَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقال :
 « فَلَمَّا كَانَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ
 عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقال :
 « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ . فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
 بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ » .

وفي هذا القلق والضجر استبطاء لنصر الله للحق الذي بعث به نبيه ، بل فيه
 سهو عن وعد الله بتأييد دينه ، كما جاء في قوله : « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ » .

هذا الضجر ليس بنقص يعاب به النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن الله يعمده
 على أقرب عبادته إليه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد يراه النبي
 صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة شدته ذنباً يتوب إلى الله
 منه ويستغفره ، ومن ثم ورد الأمر الإلهي بالاستغفار مما كان منه من حزن وضجر
 في أوقات الشدة حين يجيء الفتح والنصر .

الإيضاح

(إذا جاء نصر الله والفتح) أى إذا رأيت نصر الله لدين الحق ، وانهمز أهل
 الشرك وخذلانهم ، وفتح الله بينك وبين قومك ، يجعل الغلبة لك عليهم ، وإعزاز
 أمرك ، وإعلاء كلمتك .

(ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) أى ورأيت الناس يدخلون
 في دينك ، وينضوون تحت لوائك جماعات لا أفراداً كما كان في بدء أمرك
 وقت الشدة .

(فسبح بحمد ربك) أى إذا تم لك كل ذلك فترّه ربك وقدسه عن أن يهمل الحق ، ويدعه للباطل يتغلب عليه ، وعن أن يخلف وعده الذى وعده بك به ، بأن يجعل كلتك العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ويتم نعمته عليك ولو كره الكافرون .

وأيكن تنزيهه بحمده على ما أولاك من نعم ، وشكره على مامنحك من خير ، والثناء عليه بما هو له أهل ، فإنه هو القادر الذى لا يغلبه غالب ، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ، فلن يضيع أجر العاملين .

(واستغفره) أى واسأله أن يغفر لك ولمن اتبعك من أصحابك ما كان منهم من القلق والضجر والحزن والأسى لتأخر النصر .

والتوبة من هذا القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله ، وتغليها على خواطر النفس التى نحدثها الشدائد ، وإن كان ذلك مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله قد علم أن نفس رسوله قد تبلغ ذلك السكال ، ومن ثم أمره به ، وهكذا يحدث فى نفوس السكاملة من أصحابه وأتباعه ما يقارب ذلك ، والله يتقبله منهم .

ثم علل طلب الاستغفار بقوله :

(إنه كان توابا) أى إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده ، لأنه يرى النفوس بالحن ، فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدّد عزيمتها بحسن الوعد ، ولا يزل بها حتى تبلغ مرتبة السكال .

وخلاصة ماسلف - إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق فنتد زال الخوف ، فعليك أن تسبح ربك وتشكره وتنزع عما كان من خواطر النفس وقت الشدة ، فلن تعود الشدائد تأخذ نفوس الحنصين من عباده ماداموا على تلك السكورة ، ينزل بساحتهم الإخلاص وتجمعهم الألفة .

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم من هذا أن الأمر قد تمّ ، ولم يبق إلا أن يلحق بالرفيق الأعلى ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نُعِيَتْ إِلَيْهِ نفسه .

قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمضى في حجة الوداع ، ثم نزلت « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فعاش بعدها ثمانين يوماً ، ثم نزلت آية الكلاله فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزلت : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ، ثم نزلت : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً .

وصلَّ وسلَّم ربَّنَا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا ورابطوا في سبيل الله .

سورة المسد

هي مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفتح .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء في الدنيا ، والثواب الجزيل في العقبى . وهنا ذكر أن عقبة المعاصي الخصار في الدنيا والعقاب في الآخرة .

أسباب نزول هذه السورة

روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قریش ، فقال : أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبّاً لك ۱۱ وفي رواية : إنه قام ينفذ يديه ويقول : تبّاً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَإِزْرَأْنُهُ فَهَآءَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا
حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) .

شرح المفردات

التبّاب : الهلاك والخسران قال تعالى : « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ »
وأبولهب : أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزّي بن عبد المطلب ،
وتبّ : أى قد تبّ وخسر ، يصلى نارا : أى يحرقها ويذوقه ، ولهب النار : ما يسطع
منها عند اشتعالها وتوقدها ، والجيد : العنق ، والمسد : الليف .

الايضاح

(تبت يدا أبي لهب) هذا دعاء عليه بالخسران والهلاك ، ونسب الهلاك إلى
البيدين ، لأنهما آلة العمل والبطش ، فإذا هلكتا وخسرتا كان الشخص كأنه
معدوم هالك .

(وتبّ) أى وقد تب وهلك .

والجملّة الأخرى دعاء عليه بالخسران والهلاك ، والجملّة الثانية إخبار من الله بأن
هذا الدعاء قد حصل ، وقد خسر الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ما كان يعتزّ به في الدنيا من مال وجاه لم يغن عنه من الله شيئا يوم
القيامة فقال :

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى لم يفده حينئذ ماله ولا عمله الذى كان يأتيه
في الدنيا من معاداته رسول الله طيبا للعلو والظهور ، فكما أن ذلك لم يجده شيئا

في الدنيا ، إذ لم يتغلب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل - لم يفده في الآخرة ، بل لحقه البوار والنكال وعذاب النار .

وقد كان أبولهب شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، شديد التحريض عليه ، شديد الصدّ عنه .

روى أحمد عن ربيعة بن عباد قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول : قولوا لا إله إلا الله فتلحقوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضى الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبولهب » .

ومن ذلك تعلم أن أبالهب كان يصدّ عن الحق ، وينفّر عن اتباعه ، وذاع عنه تكذيبه للرسول صلى الله عليه وسلم وتحديّه واتباع خطواته لدحض دعوته ، والخط من شأن دينه وما جاء به .

(سيصلى نارا ذات لهب) أى سيذوق حر النار ويعذب بلظاهها .

وخلاصة ماسلف — خسر أبولهب وضل عمله ، وبطل سعيه الذى كان يسعى للصّد عن دين الله ، ولم يغن عنه ماله الذى كان يتباهى به ، ولا جدّه واجتهاده في ذلك ، فان الله أعلى كلمة رسوله ، ونشر دعوته ، وأذاع ذكره ، وأنه سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر وهيب ، وإحراق شديد ، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين ، فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ، ودحض عمله ؛ وستعذب معه امرأته التى كانت تعاونه على كفره وجحده ، وكانت عضده في مشاكة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذائه ، وكانت تمشى بالنميمة للإفساد ، وإيقاد نار الفتنة والعداوة كما قال :

(وامرأته حمالة الحطب) أى وستعذب أيضا بهذه النار امرأته أروى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب ، جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعى بالنميمة إطفاء لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ والعرب تقول لمن يسعى في الفتنة ويفسد

بين الناس ، هو يحمل الخطب بينهم ، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلات .
وقيل إنها كانت تحمل حُرَم الشوك والحَسَك والسَّعْدَان ، وتنثرها بالليل
في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيذائه .

وقد زاد سبحانه في تبشيع عملها وتقبيح صورته فقال :

(في جيدها جبل من مسد) أى في عنقها جبل مما مُسِد من الجبال أى أحكم
فتله ، وقد صورها الله بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها
كـبعض الخطابات المتهنات احتقارا لها ، واحتقارا لبعلمها ، حين اختارت
ذلك لنفسها .

وقصارى أمرها — إنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس
وإيقاد نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حاملة الخطب التى في عنقها جبل خشن تشدّ به
ماتحمله إلى عنقها حتى تستقلّ به ، وهذه أبشع صورة تظهر بها امرأة تحمل الخطب
وهي على تلك الحال .

ويرى بعض العلماء أن المراد ببيان حالها وهي في نار جهنم ، إذ تكون على
الصورة التى كانت عليها في الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك إيذاء لرسول الله صلى
الله عليه وسلم : فهي لاتزال تحمل حُرمة من حطب النار ، ولايزال في جيدها جبل
من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ؛ فقد روى عن سعيد بن المسيّب أنه
قال : كانت لأم بجيل قلادة فاخرة فقالت : لأنفقنها في عداوة محمد ، فأعقبها الله
جبلا في جيدها من مسد النار .

نسأل الله الوقاية من النار ، والبعد من الصدّ عن دينه وكتابه ، إنه
هو السميع العليم .

سورة الإخلاص

هي مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة الناس .

أسباب نزولها

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عامر ابن الطَّمِيل فقال له عهم : شقت عصانا (فرقت كلمتنا) . وسبيت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجناكها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له : بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أم من فضة ؟ فأُزيل الله هذه السورة .

المعنى الجملى

هذه السورة تضمنت أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي توحيد الله وتنزيهه ، وتقرير الحدود العامة للأعمال ، ببيان الصالحات وما يقابها ، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب ، وقد ورد في الخبر : « إنها تعدل ثلث القرآن » لأن من عرف معناها ، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر ، علم أن ما جاء في الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) .

شرح المفردات

أحد : أى واحد لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية ولا من أصول متعددة غير مادية ، والحمد : الذى يقصد فى الحاجات كما قال :
لقد بكر الناعى بخير بنى أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد والكفاء والمكافى : النظير فى العمل والقدرة .

الإيضاح

(قل هو الله أحد) أى قل لمن سألت عن صفة ربك : الله هو الواحد المنزه عن التركيب والتعدد ، لأن التعدد فى الذات مستلزم لامتناع المجموع إلى تلك الأجزاء والله لا يفتقر إلى شىء .

(الله الصمد) أى هو الله الذى يقصده العباد ويتوجهون إليه ، لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى شفيع ، وبهذا أبطل عقيدة مشركى العرب الذين يعتمدون بالوسائط والشفعاء ، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط ليرحم فى نيل مبتغاهم ، فيلجئون إليهم أحياء وأمواتا ، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين ، كما يخشعون لله أو أشد خشية .

(لم يلد) أى تنزه ربنا عن أن يكون له ولد ، وفى هذا رد لمزاعم مشركى العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، ومزاعم النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، اقرأ إن شئت قوله تعالى : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَقَّنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَنَّا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

(ولم يولد) لأن ذلك يقتضى مجانسته لسواه ، وسبق العدم قبل الوجود — تنزه ربنا عن ذلك .

وأثر عن ابن عباس أنه قال : لم يلد كما ولدت مريم ، ولم يولد كما وُلد عيسى وعزير ، وهورد على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، وعلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله .

(ولم يكن له كفوا أحد) أى ليس له نِدٌّ ولا مماثل ، وفي هذا نفي لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نداً فى أفعاله كما ذهب إلى ذلك مشركو العرب حيث جعلوا الملائكة شركاء لله .

والخلاصة — إن السورة تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفي الله عن نفسه أنواع الكثرة بقوله : « الله أحد » ونفي عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله : « الله الصمد » ونفي عن نفسه المجانسة والمشابهة لشيء بقوله : « لم يلد » ونفي عن نفسه الحدوث والأولية بقوله : « ولم يولد » ونفي عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

سورة الفلق

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

شرح المفردات

أعوذ : أى أُلجأ ، والفلق : شق الشيء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلنقت الشيء فانفلق كما قال تعالى : « فَأَلْقِ الْحَبَّ وَالنَّوَى » والشيء المنفلق يسمى فلَقاً ،

والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق عن
عيون الماء ، والسحاب التى تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التى تنفلق عن
الأولاد ، والفاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقب : دخل ظلامه فى كل شيء ،
ويقال وقبت الشمس إذا غابت ، والنفاثات : واحدهم نفاثة كعلامة ، من النفث
وهو النفخ من ريق يخرج من الفم ، والعقد : واحدها عقدة ، والحاسد : هو الذى
بمعنى زوال نعمة المحسود

الإيضاح

(قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق) أى قل : أستعيذ برب المخلوقات ،
ومبدع الكائنات ، من كل أذى وشر يصيبني من مخلوق من مخلوقاته طرّاً .
ثم خصص من بعض ما خلق أصنافاً يكثر وقوع الأذى منهم فطلب إليه التعمود
من شرهم ودفع أذاهم ، وهم :

(١) (ومن شر غاسق إذا وقب) أى ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شيء
بظلامه ، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفاً باعثاً على الرهبة - إلى أنه سقار
يختفى فى ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى - إلى أنه عون لأعدائك عليك .

(٢) (ومن شر النفاثات فى العقد) أى ومن شر النمامين الذين يقطعون
روابط المحبة ، ويبددون شمل المودة ، وقد شبه عنهم بالنفث ، وشبهت رابطة الوداد
بالعقدة ، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شئئين عقدة ، كما سمى الارتباط بين
الزوجين : (عُقْدَةُ النِّكَاحِ) .

فالتمية نحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التى تشبه
أن تكون ضرباً من السحر ، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها ، فالنمام يأتى لك
بكلام يشبه الصدق ، فيصعب عليك تكذيبه ، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد

أن يحل عقدة الحبة بين المرء وزوجه ، إذ يقول كلاماً ويعقد عقدة وينفث فيها ، ثم يحلها إياها للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين .

قال الأستاذ الإمام ما خلاصته : قد رووا هاهنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم ، وأثر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه . وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفي صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام - ماس بالعقل آخذ بالروح ، فهو مما يصدق قول المشركين فيه : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » .

والذي يجب علينا اعتقاده أن القرآن المتواتر جاء بنفي السحر عنه عليه الصلاة والسلام ، حيث نسب القول بآثبات حصوله له إلى المشركين ووبخهم على ذلك . والحديث على فرض صحته من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في العقائد ، وعصمة الأنبياء عقيدة لا يؤخذ فيها إلا باليقين ، ونفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم لا يستلزم نفي السحر مطلقاً ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون ، ولكن من المحال أن يصيبه صلى الله عليه وسلم ، لأن الله عصمه منه .

إلى أن هذه السورة مكية في قول عطاء والحسن وجابر ، وما يزعونه من السحر إنما وقع بالمدينة ، فهذا مما يضعف الاستعجاج بالحديث ، ويضعف التسليم بصحته .

وعلى الجملة فعلينا أن نأخذ بنص الكتاب ، ونفوض الأمر في الحديث ، ولا نحكمه في عقيدتنا اهـ .

(٣) (ومن شر حاسد إذا حسد) أي ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده ، بالسعي والجِدِّ في إزالة نعمة من يحسده ، فهو يُعْمَلُ الحيلة ، وينصب

شباكه ، لايقاع المحسود في الضرر ، بأدق الوسائل ، ولا يمكن إرضاءه ، ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره ، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة ، وليس في الطوق دفع كيده ، ورد عواذيه ، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخلاق الأكرم ، فهو القادر على رد كيده ، ودفع أذاه ، وإحباط سعيه .

نسألك اللهم وأنت الوزير والنصير ، أن تقينا أذى الحاسدين ، وتدفع عنا كيد الكائدين ، إنك أنت الملجأ والمعين .

سورة الناس

هي مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الفلق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

شرح المفردات

رب الناس : أى مربيهم ومنمهم ومراعى شؤونهم ، الوسواس : أى الموسوس الذى يلقي حديث السوء فى النفس ، والخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء ، والجنة : واحد من جنات ، كائن وإنسى .

الإيضاح

(قل أعوذ برب الناس) أمر رسوله أن يستعين بمن يربى الناس بنعمه ، ويؤدبهم بنقمة .

(ملك الناس) أى مالسكم ومدبر أمورهم . رواضع الشرائع والأحكام التى فيها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .
(إله الناس) أى المستولى على قلوبهم بعظمته ، وهم لا يحيطون بكنهه سلطانه بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم ، ولا يدرون من أى جانب يأتهم ، ولا كيف يسلط عليهم .

وإنما قدم الربوبية ، لأنها من أوائل نعم الله على عباده ، ثم ثنى بذكر المالكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مفكراً ، ثم ثلث بذكر الألوهية ، لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة ، وإنما قال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وهو رب كل شئ ومالك كل شئ وإله كل شئ من قبل أن الناس هم الذين أخطئوا فى صفاته وضلوا فيها عن الطريق السوى ، فجعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعض النعم ، ويلجئون إليهم فى دفع البقم ، ويلقبونهم بالشفعاء ، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ، ويرسمون لهم حدود أعمالهم .

وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمِمَّا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » وقوله : « وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ »

والخلاصة — إنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم ، وهم أناس مفكرون ، ومالسكم وهم كذلك ، وإلههم وهم هكذا ، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر .

(من شر الوسواس الخناس) أى ألجأ إليك رب الخلق وإلههم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الوسوس الكثير الخنوس والاختفاء ، لأنه يأتى من ناحية

الباطل ، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير ، إذا انجرت مع وسوسته ، وانساق معه إلى تحقيق ما خطر بالبال وهذه الأحاديث النفسية إذا سلط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت وسكن الموسوس عند إلقيها .

وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس ، يذهب هباء إذا تنهت النفس لأوامر الشرع ، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ وبعثك على فعل سوء ثم ذكرته بأوامر الدين يخنس ويمسك عن التول ، إلى أن تمنح له فرصة أخرى . وقد وصف الله هذا الوسواس الخناس بقوله :

(الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) أى إن هذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور البشر ، قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا إِبْرَاهِيمَ نَبِيًّا وَتُوحًى وَعَدُوًّا لِلنَّاسِ وَالْجِنَّ » فشیطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى ، وشیطان الإنس كذلك ، فكثيرا ما يريك أنه ناصح شفيق ، فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه استرسل واستمر فى حديثه وبالغ فيه ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به » رواه أبوهريرة وخرجه مسلم .

وإنما جعل الوسوسة فى الصدور من قبل أنه عهد فى كلام العرب أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك فى صدرك ، ويحيش فى صدرى كذا ، ويختلج ذلك بخاطرى ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل تكون فى الخلق ، ويظهر لها أثر فى حركات الدم ، وضربات القلب ، وضيق الصدر وانبساطه .

قال الأستاذ الإمام الموسوسون قسمان :

(١) قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لانعرفهم ، وإنما نجد فى أنفسنا

أثرا ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهى قوة نازعة إلى الشر ، ويحدث منها فى نفسه خواطر سوء .

(٢) . قسم الناس ، ووسوستهم ما شاهدته ونراه بأعيننا ، وسمعه بأذاننا . وما أوردوه فى خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو على القلب ونحو ذلك ؛ فهو من قبيل التمثيل والتصوير اه ملخصا . وقد بدئت السورة رب الناس ، ومن كان مريهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوستهم .

وقد أرشد فى هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه ، كما أرشد إليها فى الفاتحة ، للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله هو التوجه إليه وحده ، والإخلاص له فى القول والعمل ، والانتجاع فيما لا قدرة لنا على دفعه .

* * *

اللهم اجعلنا من الخاصين فى أعمالنا ، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن ، وأبعد عنا شر الموسوسين ، وقنا عذاب جهنم ، ولا تفضحنا يوم العرض . وصل ربنا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الذين زادوا عن دينك ، بقدر ما غرست فى قلوبهم من برّ اليقين ، وأثابجت صدورهم بمحبة هذا الدين .

خاتمة التفسير

حمداً لك اللهم على نعمائك ، وشكراً لك على جزيل آلائك ، سبحانه رب
 وفقتني لتفسير كتابك الكريم ، وبيان أسرارهِ ومغازيه لجمهرة المسلمين ، بعد أن
 كانت تقوم أمامهم عقبات تبو عقبات ؛ فمن مصطلحات العلوم لا تستسيغها
 إلا طوائف ممن تخصصوا لدرسها ، ومن تفسير لمنظريات طبية أو فلسفية دلت أبحاث
 العلماء المحدثين على أن تفسير العلماء القدامى لها كان مجانفاً للحقائق التي أثبتتها
 العلم الحديث ، ومن قصص دون في كتب التفسير يفوز به الدليل النقل الصحيح ،
 ولا يوافق على صدقه العقل الرجيح ، ولا سيما قصص الأنبياء وأخبار الأمم البائدة ،
 وبدء التكوين ، وخلق السموات والأرض .

وكم سهرت الليالي الطوال في أيام القرّ ، وإبان الحرّ ، لا تؤنّسني إلا معونة الله
 وجميل توفيقه ، وما أشعر به من لذة تخفف عني ما أنقض ظهري .

وحينما كنت أحس بسأم من العمل المضني — آنس أن نفحة من روح الله
 يهب نسيمها على قلبي ، فأنشط للعمل ، وأدأب على المضى قُدماً ، لمواصلة الدرس
 والتأليف .

وهكذا كانت تمر الليالي والأيام ، فلا أجد مع ذلك الجهد إلا انشراحاً وسروراً
 بمواصلة العمل . وقد أعانني الله على إتمامه بعد سبع سنين دائماً العمل ليل نهار ،
 صباح مساء .

وكان مسك الختام ، وإنجاز التفسير في سلخ ذي الحجة من سنة ١٣٦٥
 خمس وستين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان بمدينة حيوان من أرباض
 القاهرة قاعدة الديار المصرية .

والله الحمد في الآخرة والأولى ، وإليه المرجع والمآب ؟
 المؤلف

خاتمة الطبع بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن أنزل القرآن نبيا للناس وهدى وموعظة للمتقين ، وأرسل سيدنا محمدا بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين ، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه مصاييح الهدى وترجمان القرآن الذى هو حجة الله على الناس أجمعين .

أتى رب العالمين فيه بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة على انفراده سبحانه بالألوهية ، واختصاصه جل ذكره بالمعبودية . دمع به الباطل وأزهقه ، وزيف به عقائد العرب وبين لهم البجدين ، فمنهم من مال إلى الإسلام ، ومنهم من خضع بالسيف والسنان . ولقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، وبين مراميه وفسر بعض آياته ، وافتدى به الصحابة ومن بعدهم فى ذلك .

ولله در حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ «أحمد مصطفى المراغى بك» حيث خاض لجة بحر علم تفسير القرآن ، فشرح الألفاظ المفردة التى يصعب على القارئ فهمها لأول وهلة ، ثم تلاها بالمعنى المراد من الآيات فى عبارة مختصرة ، ثم ثلثها بإيضاح للمانى بإيضاحا شاملا شافيا ، مع تجنب القصص الإسرائيلية المدسوسة والحرافات الدخيلة على هذا العلم النفيس ، فذكر منها الصريح والقل الصحيح . اهتدى إلى ما لم يهتد إليه الفحول من متقدميه ، واستدل بأحاديث الرسول فى بعض المواضع ، وبأشعار العرب ، وبأقوال أهل اللغة والعلماء الوثوق بعلمهم وتقلهم ، فهو كما قال القائل :

إنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وقد قام بطبعه طبعاً متقناً ونشره بين الأنام السادة النبلاء من نشروا كتب الجهابذة الأعلام فى أنحاء المعمورة ، أصحاب :

[شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر]

فلله درهم حيث قدموه للجمهور القراء بهذا الشكل البديع مع الاعثناء بتصحيحه بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف برئاسة الأستاذ الشيخ «أحمد سعد على» وإشراف صاحب الفضيلة الشيخ «على محمد الضباع» شيخ القراء والمفارى بالديار المصرية .

القاهرة فى يوم الخميس { ٢٩ من ربيع الثانى ١٣٦٩ هـ
١٦ من فبراير ١٩٥٠ م

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	كان المشركون كثيرا ما يتحدثون فى شأن البعث والحساب فنزلت سورة عمّ .
٨	للظلمة فوائد وللنور فوائد .
٩	فى الشمس سر الحياة .
١١	أمر الكائنات فى يوم الفصل على غير مانعده .
١٤	ذكر جرائم الكفار التى استحقوا عليها العذاب .
١٧	التمتع بالنساء فى الآخرة يكون على نهج يشاكل العالم الأخرى .
١٩	الملائكة مخلوقات غيبية تصدق بما جاء فى الكتاب من أوصافها .
٢٠	فى يوم القيامة تتجلى للمرء أعماله التى كانت فى حياته الأولى .
٢٣	الإقسام ببعض المخلوقات فى الكتاب الكريم يكون لأحد أمرين .
٢٥	استبعد المشركون أمر البعث لأسباب ثلاثة .
٢٧	قصص موسى مع فرعون طاغية مصر .
٣٠	البعث هين إذا قيس بخلق السموات والأرض .
٣١	تعاقب الليل والنهار يهين الأرض للسكنى .
٣٣	يوم القيامة يتذكر كل امرئ ما عمل فى الدنيا .
٣٥	كان المشركون يسألون النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة فأمره أن يقول لهم : علمها عند ربى .
٣٧	يوم القيامة يظن المشركون أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا عشية أو ضحاها .

الصفحة	المبحث
٣٩	عتاب الله للنبيه على الإعراض عن هذا الأعمى .
٤٢	الهداية تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل .
٤٧	آيات المنبئة في الآفاق والأنفس .
٤٩	ذكر بعض أهوال يوم القيامة التي توجب الفرع .
٥٠	النفاس فريقان : سعداء وأشقياء .
٥٣	حين تقع أحداث القيامة تعلم كل نفس ماقدّمت من عمل .
٥٥	افتنّ العرب في وأد البنات .
٥٦	لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان عن قلب مليء بالإيمان .
٥٩	أوصاف جبريل عليه السلام .
٦٠	صفة النبي عليه الصلاة والسلام .
٦١	على مشيئة المكف تتوقف الهداية .
٦٥	في يوم الحشر يسأل الإنسان عما دعاه إلى مخالفة خالقه .
٦٦	الإنسان لا يعيش كما يعيش سائر الحيوان .
٦٧	لا ينفع الإنسان من التصديق بالبعث إلا العناد .
٧١	جزاء التطفيف في السكيل والميزان .
٧٣	التطفيف يكون في غير السكيل والميزان .
٧٥	مقالة المشركين في القرآن .
٧٦	لا يكذب بيوم الدين إلا المعتدى الأثيم .
٧٨	ما يقال للكفار يوم القيامة .
٨٠	أعمال الأبرار في كتاب يسمى علميين وأعمال الفجار في كتاب يسمى سجيناً .

الصفحة	المبحث
٨١	أثر النعيم في أهل الجنة .
٨٣	ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين في الدنيا .
٨٤	من شأن القوى أن يضحك ممن يخالفه .
٨٨	الناس في الآخرة فريقان : بركة وفجرة .
٨٩	حين اختلال نظام هذا العالم تمد الأرض مدد الأديم العكاظي .
٩١	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم حاسبني حسابا يسيرا .
٩٢	إتناء الكتاب باليمين أو بالشمال تصوير وتمثيل .
٩٤	إقسام الله تعالى بآياته الباهرات في هذا الكون .
٩٨	الإقسام بما فيه غيب وشهود .
٩٩	تعذيب المشركين للمؤمنين شنشنة قديمة .
١٠٠	حديث أصحاب الأخدود .
١٠٢	ما أعد الله للكافرين من العذاب الأليم .
١٠٤	ما يعظم به الملك في الدنيا .
١٠٦	في قصص أصحاب الأخدود تسليمة للنبي وصحبه .
١٠٧	أحوال الكفار متشابهة في كل عصر .
١٠٩	إقسام الله تعالى بأن النفوس لم تخلق سدى .
١١٢	كيفية خلق الجنين ونمو الحمل كما أثبتته العلم حديثا .
١١٤	الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة .
١١٨	في الحديث « كتاب الله فيه نبا من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم الخ » .
١٢١	اسم الله ما يعرف به .

المبحث

الصفحة

- ١٢٣ وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيقترنه من كتابه ما فيه تنزيهه .
- ١٢٥ أمره صلى الله عليه وسلم بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم .
- ١٢٦ الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أقسام ثلاثة .
- ١٢٧ وعد من زكى نفسه بالفوز والفلاح والظفر بالسعادة .
- ١٢٩ الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين .
- ١٣٤ وصف الجنة وما فيها .
- ١٣٦ إقامة الحجة على النكرين ليوم البعث .
- ١٣٧ ضرب أمثلة دالة على قدرته تعالى .
- ١٤١ نعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار .
- ١٤٣ ذكر قصص الأمم الماضية وما فيها من سلوى لرسوله صلى الله عليه وسلم .
- ١٤٣ الإنسان لا يهتم إلا بشئون الدنيا .
- ١٤٨ توبيخ الإنسان على زجر اليتيم والمساكين .
- ١٥٠ إيثار الناس للحياة الدنيا على الآخرة .
- ١٥١ يندم الإنسان على ما فرط منه حين لا يجدى الندم .
- ١٥٢ وصف يوم القيامة وما فيه من أحداث .
- ١٥٧ خلق الإنسان في عناء .
- ١٦١ الحظ على مواساة اليتيم وإطعام المسكين .
- ١٦٣ فعل البر لا يجدى نفعا إلا مع الإيمان واطمئنان القلب .
- ١٦٦ الحكمة في القسم بالشمس والقمر والليل والنهار .

- الصفة المبحث
- ١٦٨ أَلْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى النُّفُوسَ الْفَجُورَ وَالتَّقْوَى وَعَرَّفَهَا حَالَهَا .
- ١٧٠ ذَكَرَ بَعْضُ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَمَا جُوزُوا بِهِ .
- ١٧٤ اخْتِلَافُ الْأَجَنَةِ فِي الذِّكْرَةِ وَالْأَثْوَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ وَاضِعَ النِّظَامِ عَلَيْهِ بِنَا يَفْعَلُ .
- ١٧٨ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى عِبَادِهِ فَأَبَانَ لَهُمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَأَرْشَدَ إِلَى عَاقِبَتِهِمَا .
- ١٨٠ النَّاسُ أَصْنَافٌ ثَلَاثَةٌ .
- ١٨٢ سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الضُّحَى .
- ١٨٤ تَعْدَادُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى رَسُولِهِ قَبْلَ النَّبَوَةِ .
- ١٨٦ مَطَالِبَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ .
- ١٨٧ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرَ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ الْعَظِيمِ الرَّأْفَةِ بِهِمْ .
- ١٨٩ لَانْخِرَاعُ أَعْظَمَ مِنْ ذِكْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَلِمَةِ الْإِيمَانِ مَعَ الْعَلِيِّ الرَّحْمَنِ .
- ١٩١ اسْتَخْرَجَ النَّفْسَ ظَافِرَةً مَهْمَا اشْتَدَّ الْعُسْرُ إِذَا اعْتَصَمَتْ بِالصَّبْرِ وَتَوَكَّلَتْ عَلَى رَبِّهَا .
- ١٩٤ أَقْسَمَ رَبُّنَا بِالْأَمْهُودِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي كَانَ لَهَا أَثَرٌ بَارِزٌ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ .
- ١٩٧ صَدَرَ سُورَةُ اقْرَأْ أَوَّلَ الْقُرْآنِ نَزُولًا .
- ٢٠٠ نَعِمَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ .
- ٢٠١ أَسْبَابُ طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ .
- ٢٠٥ مَا دَارَ مِنَ الْحَوَارِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي جَهْلٍ .
- ٢٠٦ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى نَزُولِ الْقُرْآنِ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ .
- ٢٠٨ فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ .
- ٢١٥ النِّعْمَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِيمَا أَحْدَثُوا مِنَ الْبَدْعِ .
- ٢١٨ عَلَامَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

المبحث

الصفحة

- ٢٢٣ أقسم الله سبحانه بالخيل ليعلى من قدرها .
- ٢٢٧ نحن نؤمن بالميزان يوم القيامة لكننا لا نعرف حقيقته .
- ٢٣٠ زيارة القبور أعظم دواء للقلب القاسى .
- ٢٣٢ يسأل الكفار عن النعيم الذى كانوا يتمتعون به فى الدنيا .
- ٢٣٤ الدهر خلق من خلق الله تقع فيه الحوادث خيرها وشرها .
- ٢٣٥ الناس فى خسر إلا من اتصفوا بأربع صفات .
- ٢٣٨ سخط الله وعذابه لكل طعان فى الناس أكل للحوم .
- ٢٤٢ قصص أصحاب القيل كما رواه الثقات .
- ٢٤٣ البعوض الذى أهلك أصحاب القيل .
- ٢٤٥ تعداد النعم على قریش .
- ٢٤٨ الرياء على ضرب .
- ٢٥١ أسباب نزول سورة الكوثر .
- ٢٥٧ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لتكذيب قومه له .
- ٢٦٢ كان أبو لهب يصد عن الحق وينفر الناس عن اتباعه .
- ٢٦٤ ورد أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .
- ٢٦٤ سورة الإخلاص تضمنت نفى الشرك بجميع أنواعه .
- ٢٦٧ علمنا الله أن نتعوذ به من أصناف من الخلق .
- ٢٦٨ نفى تأثير السحر فى النبى صلى الله عليه وسلم .
- ٢٧١ الموسوسون قسمان .
- ٢٧٣ خاتمة التفسير .
- ٢٧٤ » الطبع .